الشّيخ عُدّون

بأقلام أصدقائه وأبنائه

جمع وتقديم وتعليق

الدّكتور محمد بن قاسم ناصر بوحجام

الطّبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

نشر جمعية التّرات

القرارة – غرداية – الجزائر

محرّم الحرام 1430هـ/ يناير 2009م

جمعية التراث
الجزائر

08

الشيخ عدّون

(سعيد شريفي)

بأقلام أصدقائه وأبنائه

جمع وتقديم وتعليق

الدّكتور محمد بن قاسم ناصر بوحجام

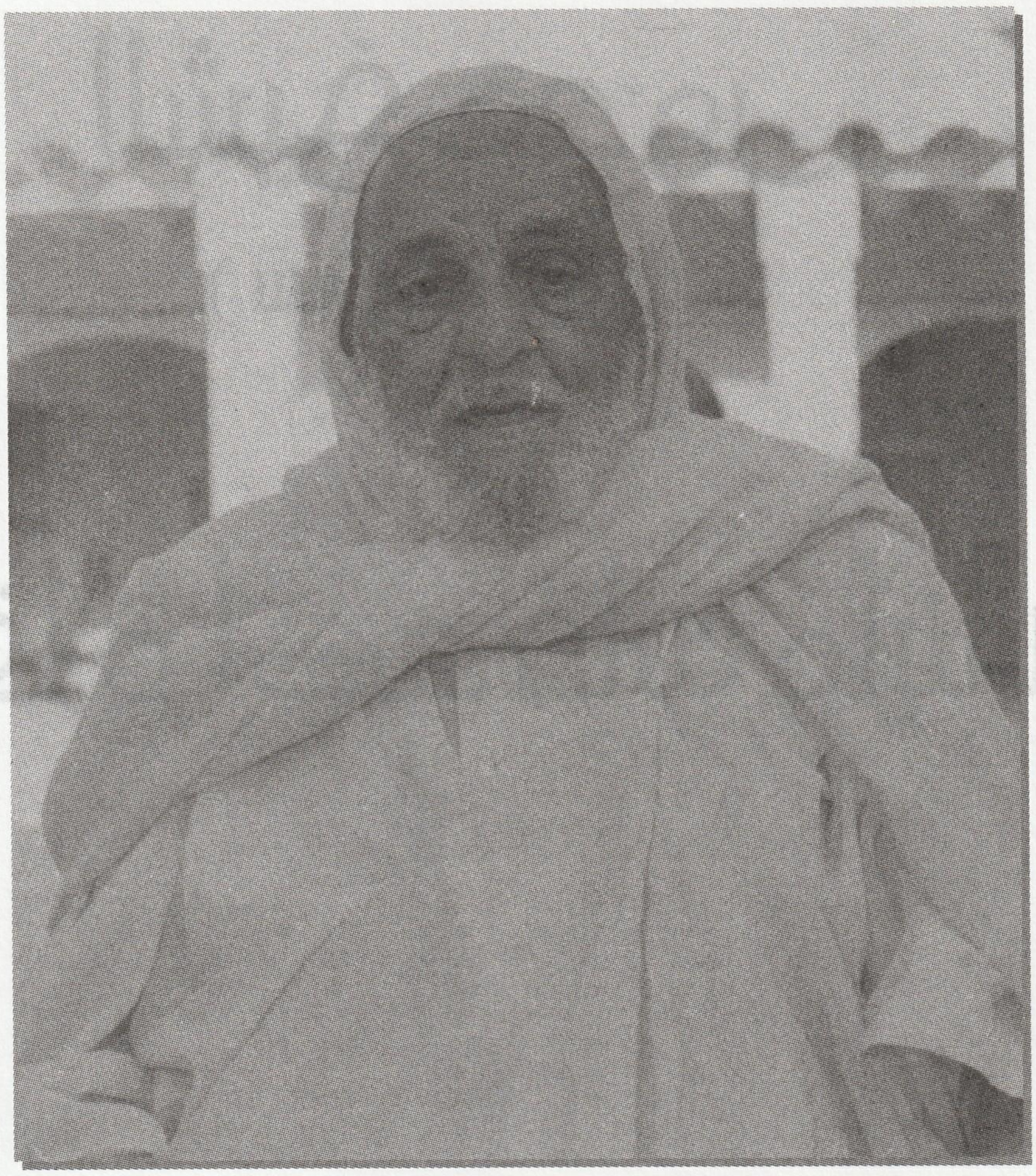

فضيلة الشيخ عدون

(سعيد بن بالحاج شريفي) رحمه الله

(1319-1425 هـ / 1902-2004م)

بسم الله الرّحمن الرّحيم

تقديم

يحتاج المرء، بل الجماعات والأجيال المتعاقبة إلى تقليب صفحات التّاريخ، وفتح سجلاّت التّجارب، والتّأمّل في سير المجاهدين الصّابرين، القاهرين للظّروف والصّعوبات والمعوّقات، والنّظر في أعمال الرّجال العاملين، والتّملّي في إنجازات المخلصين الجادّين المحتسبين، والاعتبار بمخطّطات أصحاب الرّسالة، والفاقهين لواجباتهم الدّينية والاجتماعية والتّربوية والتّاريخية... إنّ في طيّات كلّ ذلك دروسًا وعظات وفوائد وعبرًا، تعين من ينظر فيها على اختصار المسافات، وربط الحلقات، وتخطّي العقبات، وتجاوز العثرات, والتّخطيط المحكم لما هو آت...

هذه الخطوات ضرورية اليوم، قبل أيّ وقت مضى؛ لأنّنا نعيش تحدّيات، لم يسبق لها مثيل في القرون الغابرة، بل السّنوات الماضية القريبة. تحدّيات داخلية وأخرى خارجية. فالدّاخلية يتمثّل بعضها في:

1 - نقص الوعي عند إخواننا وأبنائنا، الذي يدفع إلى مزيد من العمل الهادف الجادّ لحماية الذّات، وتطوير النّشاط لمواكبة التطّوّرات والمستجدّات.

2 - نقص في الشّعور بالمسؤولية الفردية على المجتمع ومؤسّساته وهياكله وهيئاته وكلّ ما يتّصل به.

3 – نقص في قوّة التّحمّل والصّبر على الشّدائد والصّعوبات، والثّبات أمام الأعاصير والزّعازع والمزعجات،والصّبر على العمل الدّؤوب للظّفر بالغايات...

4 – الانهزامِ النّفسي، واليأسِ اللّذين يقتلان روح المبادرة، ويبيـــدان روح المقاومة، ويهدمان سور المناعة، وينقضان جدار الحصانة.

5 – اضطراب في تحديد الهويّة، وتثبيت الانتماء، وتمييز الشّخصية.

6 – المساومة في المقوّمات، والارتياب في العادات والتّقاليد والأعراف...

أمّا التّحدّيات الخارجية فيتجلّى بعضها فيما يأتي:

1 – غول العولمة التي اربكت الضّعفاء، وقهرت الجبناء، وهزمت الأدعياء...

2 – الغزو الثّقافي الذي سلب الضّمائر، وقطع الأواصر، و جرّ الجرائر...

3 – الهيمنة الأجنبية على سيرورة العالم، التي كرّست تبعية الشّعوب المقهورة لها، وربطت حركاتها بذيولها...

4 – الأطماع الخارجية التي فرضت تحكّمًا، بل سيطرة على مقدّرات الدّول المغلوبة على أمرها.

5 – المناورات المحبوكة بدقّة، والمراوغات المدغولة بقوّة، التي خدّرت

الشّعوب الغافلة، واحتالت على الأمم الضّعيفة.

6 – التّكتّلات المغرضة التي أضرّت بالمجموعات قليلة الفاعلية والجدوى، وأرهقت الفئات قليلة العدد والعدّة والقوّة...

كلّ ذلك أثّر سلبًا على الحياة العامّة التي نعيشها. إنّ هذه التّحدّيات، أفرزتها العلاقات غير الطبيعية التي نعيشها فيما بيننا، وعلاقاتنا غير السّليمة بمبادئنا وأصولنا، ونوعية التّربية والتّوجيه اللّذين نمارسهما في مؤسّساتنا التّربوية، ومراكزنا التّكوينية، وهيئاتنا الثّقافية. وأوجدها ضعف أو نقص في معرفة واقعنا معرفة جيّدة، والإلمام بما يحيط بنا، وما يراد لنا، محليًّا وإقليميًّا وعالميًّا... ووتسبّب فيها الخلل في تخطيطنا، وفي رؤانا المستقبلية، واستشرافنا للقادم من الأيّام والمستجدّات...

إنّ كثيرًا من المناهج التي نمارسها، وكثيرًا مِمَّا نبديه من خطط وأفكار في حاجة إلى إصلاح وترميم وتهذيب، والرّجوع بها إلى الصّراط السّويّ، والطّريق القويم...

قد نجد في سير بعض الرّجال، وفي تجاربهم، وتوجيهاتهم ما يعين على الرّجوع إلى الحادّة، والأوبة إلى المحجّة، والمثاب إلى النّهج الصّحيح؛ للإفادة في التّوجيه والتّخطيط وإصلاح الخلل... فأستاذنا فضيلة الشّيخ سعيد بن بالحاج شريفي (الشّيخ عدّون) (1319 –

1425هـ/ 1902 – 2004م) من هؤلاء الذين أطـــال الله في عمرهم وحَسَّنَ عملَهم، وممّن تركوا رواءَهم ســـيرة مليئـــة بجلائـــل الأعمال، غنيّة بأغلى التّجارب، عظيمة بتنوّع مجالات النّشاط، طريفة بعنصر المفاجآت، مزدانة بأرفع الخلال، محاطة بسياج من رفيع الشّمائل والشّيم، وعناصر العمل الجادّ الهادف المخطط.

حاولنا في هذه الصّفحات أن نجمع بعض الكتابـــات ([1]) الـــتي تناولت حياة شيخنا عدّون بن بالحاج، بمناسبة إقامة مهرجان الوفـــاء لتكريمه، وتدشين المبنى الجديد لمعهد الحياة، الذي أسّسه أستاذنا المرحوم فضيلة الشّيخ إبراهيم بن عمر بيّوض ([2]) والتي كان فيه لشيخنا عدّون شريفي دور فعّال، بل أساس في تأسيسه.

هذه الكتابات هي لأصدقاء الشّيخ عدّون وأبنائه، الذين عاشروه

---

[1] – فضّلت أن أسمّيها كتابات، ولم أَسِمْها بالدّراسات؛ لأنّها شهادات وانطباعات أوّلية عن شخصية الشّيخ، ولم تكن تحليلاً معمّقًا بمفهوم الدّراسة, وقد أشار إلى ذلك أصحاب هذه الكتابات، بل إنّ بعضهم وعد بالقيام بدراسات حقيقية عن الشّيخ مستقبلا.

[2] – الشّيخ إبراهيم بن عمر بيّوض (1316 – 1401هـ/ 1899 – 1981م) من علماء الجزائر، وأحد أركان الإصلاح في الجزائر، وأحد أقطاب العالم الإسلامي، أسهم في تجديد الفكر الإسلامي، والتّأسيس للعمل الإسلامي والإصلاحي على قواعد ثابتة صحيحة. صاحب الأصالة في تفكيره، يتميّز بالتّمسّك بالمبادئ والأصول والتّفتّح في أفكاره، وعلى عالم الجديد في كلّ شيء، والإفادة منه، ما دام لا يمسّ بالثّوابت والأصول.

وعايشوه عن كثب، فنقلوا إلينا شهاداتهم الموثوق بها عن جهاد الشّيخ عدّون. وقدّموا انطباعاتهم الصّادقة عن سيرته وشخصيته، وعن نشاطه المتميّز. فهي لذلك تحمل سمة المصادر الأولى التي يعتمد عليها في الكتابة عن شخصيته. هذه الشّهادات والانطباعات والتّحليلات تفتح مجالات كبيرة للدّارسين كي ينطلقوا، وبخطوات سليمة في دراسة سيرة الشّيخ عدّون وشخصيته.

اجتهدت هذه الكتابات أن تلمّ بجوانب نشاط الشّيخ عدّون، عرضًا أوّليًا. وحرصت على سبر غور سيرة الشّيخ؛ بالوقوف على بعض ما يتميّز به من خصال وخلال وفعال، وما قدّم من أقوال وأعمال. وكان الغرض تسجيل هذه السّيرة الكبيرة، وتحسيس النّاشئة والشّباب - بخاصّة - بمكامن العبر في حياة الشّيخ، وعرض أعمالهم ونشاطهم على ما قدّم الشّيخ نفسه، مع تقدير الظّروف التي كان يتحرّك فيها وينشط؛ لتقويم مسيرتهم، وتقدير جهودهم، ومحاسبة نفوسهم ونقدها فيما تقوم به. كلّ هذا يحدّد مسؤوليتهم ورسالتهم في الوجود، بعد أن يذكّرهم بواجبهم نحو أمّتهم..

نعت أو وصف الشّيخ عدّون في هذه الكتابات بِـ: (بوزير صدق وإخلاص في ميادين الجهاد، الأب الحاني، الوالد الرّؤوف، الأستاذ المربّي، المربّي النّاجح، مربّي الأجيال، المعلّم القدوة، الأستاذ

المتواضع، الرّئيس المحنّك، القائد الملهم, المراقب الموجِّه، المدير المسؤول، المدير المجرّب، المدير المرن، المدير الحازم، رجل الميدان وأساس البنيان، شيخ الشّباب الصّالح، الوليّ الرّضيّ...) هذه النّعوت تبيّن مكانة الشّيخ وقدره، وتسجّل قوّة شحصيته...

يمكن ذكر بعض ما تميّزت به هذه الكتابات كما يأتي:

1 – هي شهادات عيان ومعاشرة ومشاركة، وصحبة وتلقٍّ وتلمذة...هذا ما يوسّع من دائرة الانطباعات، ويعدّد الجهات التي كانت لها بالشّيخ عدّون علاقة، ويسجّل تنوّع نشاط الشّيخ عدّون.. زيادة على إضفاء صفة الواقعية والشّمولية والممارسة الحقيقية للعمل الدّعوي والإصلاحي. وبذلك يغدو الشّيخ شاهدًا على عصره. وهو ما يعطي لسيرته ثراء.

2 – هي مذكّرات وتأريخ حقبة مهمّة للحركة الإصلاحية، والنّهضة العلمية بمنطقة وادي ميزاب بخاصّة.

3 – ملأت هذه الكتابات بعض الفجوات والثّغرات التي يشكو منها تاريخ الحركة الإصلاحية، وهي بلا شكّ تقف سدًّا منيعًا في وجه بعض التّأويلات التي قد تعطى لبعض المواقف، كما تعاني من ذلك الحركة الإصلاحية، في غياب مثل هذه التّسجيلات والشّهادات.

4 – سجّلت المراحل التي مرّت بها حياة الشّيخ عدّون، التي تميّزت

بالحرمان والعطاء، والضّيق والسّعة. والفقر والغنى، والحلـــو والمـــرّ، والصّراع والتّوافق، والكآبة والانشراح. فقد اجتمع على الشّـــيخ في بداية حياته – مثلا – ألم اليتم وهمّ الدّين وغرم الفقر... كـــلّ ذلـــك ساعد على تكوين شخصية الشّيخ عدّون التي أعدّها الله لتقود مسيرة، وتخطّط لنهضة، وتتبنّى مشروعات، وتفكّر في المســـتقبل، وتســـتعدّ للطّوارئ والمفاجآت...ففي كـــلّ هـــذا دروس وعـــبر وتوجيهـــات للمسيّرين والمُوَجِّهين، والنّاشئين والمُوَجَّهين.

5 - اتّفقت هذه الكتابات على سرد صفات معيّنة اتّصف بها الشّيخ عدّون. فلم نسجّل اختلافًا بينها في ذلك. هذا يدلّ على أصالة الشّيخ، وعلى وضوح شخصيته، وعلى صفاء نفسه، التي أفرزت هذه السّمات العالية. فلأنّ الشّيخ عدّون يتحرّك بين نقطتين، في خطّ مســـتقيم، لا انحراف فيه ولا اعوجاج، نقطة المبادئ الثّابتة الرّاسخة ونقطة الأهداف المرسومة الواضحة. مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّـــاكُمْ بِـــهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: 153) فقد جاءت شخصيته متّزنة، وخلاله كريمةً. من هذه الصّفات والخلال ما يـــأتي: (الـــورع، الاســـتقامة، الإخلاص، الصّدق، التّواضع، التّفاني، الوفاء، المضاء، التّضحية، الصّبر، قوّة الإرادة، صفاء القلب، حسن النّيّة، الزّهد، المحبّة، حـــبّ الخـــير،

عذوبة الرّوح، علوّ الهمّة، عزّة النّفس، الحزم، العزم، الغرام بالعلم...)

6 – هذه الكتابات بيّنت وأكّدت أنّ للشّيخ عدّون الفضل الكبير، بل الدّور الأساس في وضع قواعد كثير من المشروعات والمؤسّسات الّتي نشأت، وتطوّرت وأينعت، وأزهرت وأثْمرت...وكان لها آثارها الكبيرة إلى اليوم. وستستمرّ إن شاء الله؛ لأنّها أسّست على تقوى من الله ورضوان، ولأنّها غذّيت بالإخلاص والصّدق والصّفاء...بل إنّ له الرّيادة في وضع قواعد النّهضة والإصلاح مع أشياخه وأترابه وأقرانه وخلاّنه.

7 – أثارت هذه الكتابات مسائل وقضايا، كانت مستوحاة من حياة الشّبخ عدّون. بعضها يحتاج إلى مزيد من البحث والدّراسة والتّحليل للكشف عن شخصية الشّيخ. وبعضها ينبّه إلى ضرورة مراجعة بعض التّصرّفات في حياتنا الرّاهنة، باستلهام حياة الشّيخ، واقتفاء آثاره، وترسّم خطواته، لتصحيح بعض الخلل في مسيرتنا، ودفع حياتنا إلى التّطوّر المخطّط المدروس المؤسّس. كما كان يفعل. فنرجو أن يفيد مسؤولونا من أخلاقه في التّسيير والتّوجيه، والأخذ بأيدي الشّباب. من ذلك أن يتمتّعوا بما يتمتّع به: أصالة في التّفكير، ومرونة في التّسيير، وفتح المجال للمبادرات، ومنح الفرص للعاملين كي يشاركوا في بناء المجتمع، وفسح الميدان للأكفاء كي يشغلوا مكانهم الحقيقي.

نرجو أن تكون هذه الكتابات الزّائدة المخلصة، القيّمة بداية المشوار لدراسات كبيرة معمّقة في شخصية شيخنا المرحوم الوالد عدّون ابن بالحاج. جمعناها في هذا العمل البسيط، الذي جاء على عجل، ولم تمهلنا قرب مناسبة إقامة مهرجان الوفاء لتوسيع البحث فيما كتب عن الشّيخ، عسى أن يحصل هذا في الطّبعة الثّانية لهذا الكتاب إن شاء الله. وقد اكتفينا ببعض التّعليقات القليلة، التي رأيناها ضرورية؛ لتوضيح بعض الأمور، أو لتصحيح بعض الأخطاء التي وردت في بعض الكتابات. تنفع في - الدّرجة الأولى - الذين لم يعش، أو لم يعايش البيئة التي نشأ فيها ودرج ونشط الشّيخ عدّون. وقد أشرنا إليها في الهامش بِـ (م.ن.ب) أي (محمد ناصر بوحجام).

نسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبّل منّا هذا الجهد المتواضع، وأن ينفع به النّشء، وكلّ مَنْ يتطلّع أن يبقى وفيًّا لأمجاده، سويًّا في سيرته، قويًّا في شخصيته... يقتفي أثار الأسلاف، ويطمح أن ينبت نباتًا حسنًا، ويتّبع أصل الشّجر، كما أوصى بذلك أستاذنا الدّكتور محمد بن صالح ناصر الشّباب قائلاً:

أورِق وكن غصنًا قويًّا في إيراقك، متجذّرًا أصل الشّجرْ
فإذا نبتَّ، وكلّ نبت نافعٌ، فاسْعِدْ جوارَك بالأريجِ، وكنْ زَهَرْ

هكذا كان شيخنا عدّون. نبت نباتًا حسنًا، وأثمر ثمرًا طيّبًا، وطلع

زهرًا متفتّحًا ، أرسل الأريج إلى من حوله، فأنعشه بأقواله، وأسعده بأعماله، وأغناه بخلاله، وأدهشه بخصاله، وبهره بجلاله... فقد عاش للتّأصيل والتّجديد، عاش للماضي والحاضر والمستقبل، عاش للمبادرة والتّروّي، عاش للتّشجيع والتّوجيه، عاش للّين والشّدّة، عاش للصّرامة والحزم والعزم، عاش للدّأب والتّعب والنّصب، عاش للدّين واللّغة العربية، عاش للمجتمع والأمّة، عاش للوحدة الإسلامية، عاش للتّربية والتّعليم، وعاش لمعهد الحياة بخاصّة، فهو القائل في آحر كلمة ألقاها على طلبة معهد الحياة في افتتاح سنتهم الدّراسية (1425 – 1426هـ/ 2004 – 2005م): " ...وعلى كلّ طالب جاء إلى المعهد أن يعتقد عقيدة راسخة، أنّه إنّما جاء ليعرف الله حقّ المعرفة، ويؤمن به حقّ الإيمان، ويعمل من أجله كلّ عمل صالح، إنّه علم زاخر وبحر لا ساحل له، ويا سعادة من رزق هذا العلم، ويا سعادة من رزق هذا السّبيل، لنكون بعد ذلك خالدين مخلّدين في جنان الفردوس.

هذه غايتنا الأولى والمثلى والقصوى من هذا العلم، معرفة الله والعمل بما يأمر، القرآن وحفظه وفهمه والعمل به، السّنة المطهّرة فهمها والعمل بمقتضاها، وإنّني أكرّر وأؤكّد هذه الحقيقة والكلام في هذه النّقطة يستحقّ الإطالة أكثر.

ألا فلتعلموا جميعا أيّها الطّلبة، وخصوصا الذين التحقوا بالمعهد جُدُدًا، أنّكم إنّما جئتم لطلب هذه الغاية، لا لنيل الشّهادات، وإنّما الشّهادات جواهر في الطّريق المرسوم، نتوصّل بها إلى الحياة العليا في

الدّنيا- إن كانت في الدّنيا حياة عليا - وعلينا أن نبذل كلّ الجهد في هذا العام بالفوز بنجاح أكبر في الشّهادات، ولكنّ الجهد الأكبر إنّما نبذله في العلم الذي يوصلنا إلى الجنّة وإلى مرضاة الله، في العلم الذي يزيدنا إيمانا بعد إيمان، ويزيدنا حبّا لله ﴿...وَالذِينَ ءَامَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...﴾ (البقرة: 165)، فلنكن ممّن يحبّ الله، وحبّ الله يتجسّد بتقواه والعمل بما يحبّ، ومن اتّقى الله حقّ تقاته فقد أحبّ الله وأحبّ رسوله، ولنحمل نفوسنا على هذا السّبيل.

إنّ للطّلبة لشرفًا كبيرا بالتحاقهم بهذا المعهد، وللأساتذة الذين بذلوا كلّ جهد لترقية المعهد، وإنّنا لنقدّر مجهوداتهم ولا ننكر فضلهم أبدا، وقد تكون منهم بعض زلاّت تعدّ في حقّهم صغائر، وهي لا ينجو منها أحد، وهي الصّغائر التي تمحى بالحسنات، ولعلّه من كمال الإنسان أن يلمّ ببعض الصّغائر، ثمّ يتوب منها﴿...إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...﴾(هود: 114).

على الطّلبة أن يعلموا أنّهم يطلبون نفيسا لا يوجد في غير هذا المعهد، وأقولها جازما، قد يوجد مثل هذا في بعض النّفوس الطيّبة، أو في بعض الكتب القيّمة، ولكن أن يوجد مثل هذا المجتمع، ومثل هذه المشاريع العلمية، والكفاءات المهنيّة، والنّوايا الصّادقة فهذا ما لا أظنُّ وجوده...

...هذا هو المعهد الذي جئتم لتتزوّدوا منه خيرَ زاد، خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ، ولتعلموا أنّه سواء كان مجيئكم برغبة منكم أو برغبة أوليائكم فأنتم سعداء، لأنّكم ـــ من اليوم ـــ في بحبوحة الجنّة؛ بطلبكم هذا

العلم، فأعظم بها من نعمة سابغة عليكم وعلى أوليائكم." ([1])

رحمك الله شيحنا:

بصرت بالرّاحة الكبرى فلم ترها تنال إلاّ على جسر من التّعب

تعبت في حياتك لينعم غيرك، نصبت ليهنأ مجتمعك، دأبت لتسعد أمّتك. أسعدك الله في الدّنيا، ولكم في الأخرى سعادة أكبر وأعظم إن شاء الله. فقد كتبت إلى الشّيخ أبي اليقظان ([2]) تواسيه، وتشجّعه على المضيّ في طريق الجهاد والعمل "... وإنَّ من يعلم أنه خُلق ليشقى لتسعَدَ أمَّته، ويُهَان لتعِزَّ، ويبأس لتنعم، ويفتقر لتغنَى، ويتغرّب لتتمدّن، فلا يطمع في راحة أو نعيم، ولا يقول: «ولكن إلى متى؟!» فليدأب، وليصبر، وليرابط، حتَّى يأتي نصر الله ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا ياتِكُمْ مَثَلُ الذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأساءُ والضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حتَّى يَقُولُ الرّسولُ والذينَ معهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ألاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة: 214)." ([3])

---

[1] – مجلّة الحياة، العدد العاشر، ص: 221، 222. الكلمة ألقاها الشّيخ عدّون في المسجد الكبير بالقرارة، يوم الأربعاء 6 من رمضان 1425هـ/ 20 من أكتوبر 2004م.

[2]– الشّيخ إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان، (1306 – 1393هـ/ 1888 – 1973م) عالم وكاتب وشاعر وفقيه وصحفي، من روّاد الحركة الإصلاحية في الجزائر, أصدر ثماني جرائد ما بين (1926 و 1938م). وترك أكثر من ستّين مؤلَفًا. له مشاركات فعّالة في النّهضة الجزائرية الحديثة...

[3] – من رسالة أرسلها الشّيخ عدّون إلى الشّيخ أبي اليقظان، مؤرّخة هكذا: القرارة، 15 من صفر =

لقد هزمت التّعب، وقهرت النّصب، فصنعت العجب، وبلغت الأرب.فرحمك الله شيخنا وأسكنك فسيح جنانه، إنّه سميع قريب مجيب.

الجزائر يوم الإثنين: 06 من شوّال 1429هـ

06 من أكتوبر 2008م

الدّكتور محمد بن قاسم ناصر بوحجام

1352هـ/ أوت 1933م.

الشّيخ عدّون في سطور ([1])

الأستاذ عيسى بن محمد الشّيخ بالحاج

الاسم: سعيد بن بالحاج بن عدُّون بن الحاج عمر.

اللقب: شريفـــي.

تاريخ الميلاد: *1319* هـــ / *1902* م.

مكان الميلاد: القـــرارة ولاية غرداية. الجزائر.

1910-1912: درس المرحلة الابتدائية في كُـــتَّاب السيِّد إسماعيل بن يحكوب، وفي المدرسة الرّسميَّة بإشراف المعلِّم: الطالب محمَّد بالقرارة.

1912: توفيَ والده وبيعت دار سكناه، وبقي تحت كفالة خاله أحمد بن الحاج سعيد جهلان. فسافر إلى مدينة سريانه بولاية باتنة للكسب والعمل تحت طائلة الفقر والعوز وعمره عشر سنوات.

1912-1915: دخل المدرسة الرّسميَّة في مدينة سريانة، وكان طالبا نجيبا ومتفوِّقا، ولكنَّ ظروف العمل في الدكَّان لم تســـعفه لإجراء الامتحانات.

---

[1] - مجلّة الحياة (معهد الحياة)، القرارة، الجزائر، العدد العاشر، رمضان 1427هـــ/ أكتوبر 2006م. ص: 183 – 188.

1915: عاد إلى القرارة إثر قيام الحرب العالميَّة الأولى ودخل مدرسة الشّيخ محمَّد بن الحاج إبراهيم قرقر المعروف بالشّيخ الطرابلسي([1])، ووصل في حفظ القرآن إلى سورة يس.

1915: عاد إلى مدينة سريانة ليتفرَّغ للعمل فقط دون التعلُّم، فكان حاذقا لبيبا كسب ثقة زبائنه ومستخدميه.

1919: عاد إلى القرارة للزّواج، ودخل مدرسة الشّيخ الطرابلسي مرَّة ثانية، وبعد سبعة أشهر استظهر القرآن الكريم.

1920: دخل حلقة «إِيرْوَانْ».

1920: تُوفِّيَ وليُّ نعمته، خاله أحمد بن الحاج سعيد، فاشتدَّ به الأمر وازدادت متاعبه الماليَّة وهو ربُّ أسرة، وكان كارها للغربة والعمل التّجاريِّ، إذ كان يطمح إلى حياة العلم وخدمة المجتمع.

1920: دخل معهد الشّيخ الحاج عمر بن يحيى([2]) طالبا، وشكا

---

[1] – الشّيخ محمد الطّرابلسي (1304 – 1368هـ/ 1885 - 1948م) هو من مواليد مدينة بريّان، نسب إلى مدينة طرابلس بليبيا؛ لأنّه نشأ فيها وتلّقى نصيبًا من العلم فيها. لمّا فتح المصلحون في القرارة دارًا للتّعليم سنة 1331هـ. كان أوّل معلّم فيها. وكانت هذه المدرسة نواة لمدرسة الحياة. ينظر سعيد شريفي، معهد الحياة نشأته وتطوّره، ص: 24. (م.ن.ب).

[2] – الحاج عمر بن يحي الأمليكي (ويرو الحاج يحي) لقبًا، (ت 1339هـ/ 1921م) من تلاميذ الشّيخ الحاج امحمد بن يوسف طفيَّش، هو من حمل راية النّهضة العلمية والإصلاحية إلى مدينة القرارة. من غرسه وثماره المشائخ: إبراهيم بيّوض، إبراهيم أبو اليقظان، عدّون شريفي...

له حاله وعوزه ورغبته في التعلُّم، فطمأنه فقام ببعض ما يصلح حاله ليواصل تعلُّمه، وهناك ازدادت معرفته واشتدَّ اتِّصاله بزعيم الأمَّة ورائد الإصلاح الشّيخ بيُّوض رحمه الله.

1923: شارك في جلسات متوالية لإصلاح التّعليم بإنشاء معهد على النُّظُم الحديثة للتّعليم، بعد وفاة شيخه الحاج عمر بن يحيى سنة *1921*.

1925: تأسَّس معهد الحياة (معهد الشّباب سابقا) تحت إشراف الشّيخ بيّوض، وعيِّن الشّيخ عدّون مديرا له إلى يوم وفاته. ويقول الشّيخ عدُّون: «إنَّ أحسن عمل أتقرَّب به إلى الله تعالى هو سعيي وأثري في تأسيس المعهد، وأعتقد أنّه لو لم أكن حاضرا يوم ذاك لبقيت حالة التّعليم على حالها جيلا أو أكثر». واستمرَّ أستاذا بالمعهد إلى سنة *1988* مدرِّسا للموادِّ الشّرعيَّة والعربيَّة خاصَّة مادَّة النّحو. كما كان رئيس جمعيَّة الشّباب التي تُعْنَى بالتّكوين الثّقافيِّ والاجتماعيِّ للطّلبة، وتُعِدُّهم في ميدان الخطابة والشّعر والمقالة، وكذا رئيس جريدة الشّباب التي يصدرها طلبة المعهد أسبوعيًّا.

1926: شارك بأوَّل مقال في جريدة وادي ميزاب بعنوان: «جولة في وادي ميزاب».([1])

---

[1] – جريدة أصدرها الشّيح إبراهيم أبو اليقظان ما بين 1926 – 1929م. صدر منها 119عددًا، ثمّ =

1930: خَلَفَ الشّيخَ أبا اليقظان في إدارة الجريدة لمدَّة شهر في الجزائر لَمَّا جاء إلى القرارة لتزويج ابنه عيسى.

1936-1937: بقي سنة كاملة في الجزائر لإدارة الجريدة والإشراف عليها إشرافا كاملا خلفا للشّيخ أبي اليقظان لَمَّا استقرَّ بالقرارة.([1])

1937 : شارك في تأسيس جمعيَّة الحياة التي تشرف على الحياة العلميَّة في القرارة، فعيِّن عضوا في إدارتها، ثُمَّ صار رئيسًا لها إلى يوم وفاته. وكان الشّيخ بيُّوض يقول كلَّما جرى تجديد انتخابات إدارة الجمعيَّة: «غيِّروا من شئتم إلاَّ الشّيخ عدون».

1938 : عُيِّن عريفا لحلقة إيروان وللعريف مقامه يومذاك.

1938: شارك في تأسيس نادي الحياة الذي يعدُّ ميدانا لفرسان الخطابة والشّعر والتّمثيل.

1940: قام بأوَّل جولة لجمع الاشتراكات لصالح جمعيَّة الحياة، ثمَّ توقَّفت الجولة سنتي *1940-1941* لظروف الحرب

صادرتها السّلطات الفرنسية. لمزيد من التّفاصيل ينظر الدّكتور محمد بن صالح ناصر، الصّحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954م.، ط2، ألفا ديزاين، الجزائر، 1427هـ/ 2006م، ص: 72 – 86. (م.ن.ب).

[1] – الشّيخ أبو اليقظان لم يستقرّ في هذه الأوبة إلى القرارة، إنّما غادر العاصمة وبقي في القرارة مدّة طويلة لظروف خاصّة, ثمّ عاد بعد ذلك إلى الجزائر العاصمة. استقراره سيكون بعد مصادرة آخر جرائده (الفرقان). (م.ن.ب).

العالميَّة الثّانية، ثُمَّ استؤنفت بعد ذلك، ولم تنقطع منذ ذلك التّاريخ.

1943: دخل حلقة العزَّابة عضوا، ثُمَّ صار رئيسا لها إلى يوم وفاته.

1943: أسهم في تأسيس فرع الكشَّافة الإسلاميَّة في القرارة.

1948: شارك في تأسيس جمعيَّة قدماء التّلاميذ العتيدة التي تضمُّ كلَّ الطّلبة الذين درسوا في معهد الشّيخ بيُّوض رحمه الله (معهد الحياة) وتعنى بالنّظر في الشّؤون العامَّة الاجتماعيَّة منها والثقافيَّة.

1948: عيِّن مفتِّشا عامًّا للمدارس الخاصَّة بوادي ميزاب وبقيَّة مدن القطر، بعد أن بدأ الميزابيُّون بالاستقرار بأُسَرِهِم خارج ميزاب.

1981: عيِّن خَلَفًا للشّيخ بيوض في رئاسة جمعيَّة الحياة ومؤسَّساتها وزعامة حركة الإصلاح.

1989: عيِّن رئيسا لمجلس عمِّي سعيد خَلَفًا للشّيخ الحاج محمد ابن يوسف بابانو. وبقي في المنصب إلى أن توفّاه الله.

2003: يوم الجمعة *14* فيفري،تمّ تكريمه بمسقط رأسه القرارة،في حفل بهيج شهدته البلدة كلّها، بمناسبة الذّكرى

المئوية لميلاده.

2003: وضع الحجر الأساسي لبناء معهد الحياة وداخلية الحياة الجديدين (مشروع الحياة).

2004: يوم الخميس *10* جوان، تَمَّ تكريمه بالجزائر العاصمة، وأُسندت إليه الرئاسة الشّرفية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريِّين.

مهامُّه التي كان يتولاَّها وهو في سنِّ السّادسة بعد المائة:

ـــ رئاسة مجلس عمِّي سعيد

ـــ رئاسة مجلس باعبد الرّحمن الكرثي

ـــ رئاسة حلقة العزَّابة بالقرارة

ـــ رئاسة جمعيَّة الحياة وفروعها بالقرارة

ـــ رئاسة جمعيَّة القدماء بالقرارة

ـــ رئاسة جمعيَّة التّراث

ـــ رئاسة إدارة معهد الحياة

ـــ أمين مال جمعيَّة الحياة

ـــ القائم بجولة جمع الاشتراكات لصالح جمعيَّة الحياة

ـــ رئاسة عشيرته آل كاسي والنّاصر

ـــ رئاسة دورية الحياة

ـــ الموجِّه العامُّ لجميع الأنشطة العلميَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة ببلدة القرارة.

ـــ الرّئاسة الشرفيَّة لجمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين بعد وفاة الشّيخ سحنون، رحمهما الله.

نـــتـــاجه الفـــكـــري:

*- عشرات المقالات التي كان يرصِّع بها جرائد الشّيخ أبي اليقظان، ويتحف بها جريدة الشّباب بمعهد الحياة.

*- مئات الرّسائل القيِّمة التي تعدُّ وثائق تاريخيَّة لحركة إصلاحيَّة واجتماعيَّة وعلميَّة جاوزت الثّمانين عاما.

*- آلاف من المتخرِّجين على يده ممَّن صاروا شموسا ينيرون درب الحياة في مختلف المجالات، وقد صاغهم على سننه، وغذَّاهم بفكره، وأشبعهم من إخلاصه، داخل الوطن وخارجه.

*- مئات الدّروس التي كان يلقيها في المسجد والمناسبات العامَّة والخاصَّة.

*- كتاب: «معهد الحياة نشأته وتطوُّره».

ميـــزاتـــه الخـــاصَّـــة:

تقوى الله عزَّ وجلَّ، الورع الشّديد، التّضحية والإخلاص، التّواضع الكبير، التّفاني في الحفاظ على مقوِّمات الأمَّة، الدّفاع المستميت عن اللّغة العربيَّة، الشّغف الشّديد بالمطالعة، تشجيع

المبادرات البنّاءة والتّطور الإيجابي، السّعي الحثيث الجادُّ في وحدة المسلمين.

وفاتـــــــه

تُوُفِّيَ في سحر يوم الثلاثاء 19 رمضان 1425 هـ / 2 نوفمبر 2004 م وعمره 106 سنة، وترك زوجة وأربعة ذكور وثلاث إناث، وشُيِّعت جنازته صبيحة الأربعاء 20 رمضان، في موكب مَهيب، بحضور آلاف المشيِّعين من مختلف أنحاء القطر الجزائري.

ـــ رحمه الله، وأسكنه فسيح جنانه ـــ

الشّيخ عدّون العالم العامل المخلص ([1])

الشّيخ إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان

ومنهم العلاّمة الجليل العامل الشّيخ عدّون بن بالحاج المُلقّب بالشّريف.

هو عالم جليل عامل مخلص من علماء القرارة المخلصين.

ولادته: وُلد في القرارة سنة 1902م

نشأته:

بعد أن تعلّم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وعرضه على الإمام، وانخرط في دار التّلاميذ. أخذ مبادئ علمه ودينه عن نور القلب شيخنا الحاج عمر بن يحي في القرارة رحمه الله.

وبعد وفاته التحق بمدرسة الشّباب الّتي يديرها الشّيخ بيّوض وقد آلت بعد إلى معهد الحياة، وكان الشّيخ عدّون من قدماء تلامذة الشّيخ بيّوض ومن ملازميه طول حياته، إلى أن صار يدير باقتدار شؤون معهد الحياة، وإلى ما شاء الله، فتخرّج منه تلاميذ نبغاء بارعون في فنون المعهد، كما يأتي ذلك كلّه مفصّلاً بحول الله في تفصيل تلامذته المتتابعين فيما يلي إن شاء الله.

---

[1] – أبو اليقظان إبراهيم، ملحق سير الشّماخي، القسم الثّاني، (مخطوط)، ورقة: 3، 4. أنهى الشّيخ أبو اليقظان تحرير القسم الثّاني من ملحق سير الشّماخي يوم 23 من شوّال 1390هـ/ 24 من ديسمبر 1970م. العنوان من وضعنا (م. ن. ب)

أخلاقه:

أوتي حظًّا موفورًا من الخلق الكريم، وتفقّهٍ بالأدب العربي، ومن تواضع وصبر وثقة بالله، واتّكال عليه وتقوى له. وإيمان كامل به، وعزّة نفس وهمّة عالية ولين عريكة، وحسن نيّة وصفاء قلب، وصدق وإخلاص وورع وزهد ومحافظة على سمت السّلف الصّالح، وحزم وعزم واقتدار على إدارة ما يناط به من المهمّات بأمانة وجدّ، لا يعرف كللاً ولا سأمًا، ولا تزعزعًا في مبدئه.

إنشاؤه:

وهو وإن لم يكن خطيبًا ساحرًا، فهو بارع مبدع إذا كتب، لا سيّما في المواضيع الاجتماعية والأخلاقية.

ويرجع الفضل إليه في تحرير افتتاحيات جرائدنا خصوصًا :وادي ميزاب، المغرب، النُّور، الأمّة. وهو الّذي يذيل مقالاته بإمضاء (سعيد). وقد ساعدنا بذلك - جزاه الله خيرًا - مساعدة مثمرة، تذكر فتشكر. وكان قرّاؤنا معجبين بإنتاج قلمه السّيّال.

أولاده:

أنجب من الأولاد شبّانًا أربعة :بالحاج، ومحمد سعيد، ويوسف، وبكير.

أمّا بالحاج فتأتي ترجمته في آخر هذا القسم من الملحق إن شاء الله.

وأمّا محمد سعيد فبعد أن تخرّج من معهد الحياة، التحق بجامعة القاهرة وتابع دروسه في فرع الجامعة للفنون الجميلة. وقد حصل فيما حصل في فنّه على الشّهادة العالية منها. وهو مثقّف بالثّقافتين العربيّة والفرنسية وفقه الله وهداه.

وأمّا يوسف فقد تابع دروسه في الطبّ بالجامعة الجزائريّة, وقد بقي له فيها عام واحد، يتخرّج فيه لفن الطّبّ.

وأمّا بكير فلا يزال يزاول دروسه الابتدائية في مدرسة الحياة فتح الله عليه.

حياة من أجل القرآن ([1])

الشّيخ إبراهيم بن عمر بيّوض

في ليلة الأحد 04 أفريل 1971م، بمناسبة زفاف نجل أبينا الرّوحي الشّيخ عدُّون ــ رحمه الله ــ الدّكتور شريفي يوسف بن سعيد، أُقيمت حفلة أدبية في رحاب مدرسة الحياة بالقرارة، حضرها الإمام الشّيخ بيّوض إبراهيم ــ رحمه الله ــ وألقى فيها درسا قيِّما، أشاد فيه ببعض خصال الشّيخ عدُّون. وهذا مُلخَّـــص هذا الدّرس:

ما كان في قصدي أن أُلقي درسا هنا ما دمتم تسمعون إلى دروسي في المسجد دائما، وكذلك خطب الجمعة بعد أن وفّقنا الله تعالى لإقامتها.([2])

رأيت من واجبي أن أحضر معكم مثل هذا الحفل؛ رغم أنّ حضوري في حفلات الأعراس قليل جدّا، وخاصّة في القرارة، وقديما قيل: إذا لم تستطع أن تسوّي بين النّاس في العطاء فسوّ بينهم في المنع. ولكنّ بعض الأعراس تستثنى لضرورة خاصّة. فلكلِّ قاعدة شواذّ.

---

[1] – مجلّة الحياة، (معهد الحياة وجمعية التّراث)، القرارة، الجزائر، العدد الحادي عشر، رمضان 1428هـ/ 2007م، ص: 255 – 262. قدّم الأستاذ صالح بن أحمد حدبون هذا الدّرس وثيقة لِهذا العدد.

[2] – أحيا الشّيخ إبراهيم بيّوض صلاة الجمعة في القرارة ووادي ميزاب سنة 1391هـ/ 1971م. بعد انقطاع دام قرونًا. أوّل صلاة جمعة أقيمت كانت بإمامة الشّيخ بيّوض، وكانت في المسجد الكبير بالقرارة، يوم 1 محرّم 1391هـ/ 26 فيفري 1971م. (م.ن.ب).

وعرس اليوم من الشّواذِّ، وهي مناسبة كريمة يجب أن أحضرها وأشهدها ولو حبوًا، ولماذا يا ترى؟ الجواب: لأمرين اثنين: الأوّل يتعلّق بماضي الوالد، والثّاني يتعلّق بمستقبل الولد. فللوالد ماض ناصع، مليء بالخير وبفعل الخير، وله حاضر سعيد، ونتمنّى أن يطول حتّ يلقى الله وهو عنه راض.

وإن نسبة 99 في المائة من التّكريم اليوم إنّما هو للوالد، فعلى الولد العريس أن يعتبر حتّى ينال مثل هذا التّكريم في مستقبل حياته.

كان الخطيب البارع الأستاذ فخّار والشّاعر المبدع الأستاذ باجو، والقصيدة العصماء التي سمعناها الآن للأستاذ بربوشة ([1]). أشادت بذكر مناقب الشّيخ عدُّون، وهو يستحقُّ آلاف المرّات أكثر ممّا قيل فيه. ولا أظنُّ أنّ أحدًا في هذا الحفل يعرف حقيقة الشّيخ عدُّون وبلاءه مثل ما أعرفه أنا. وبودّي لو كان لي قلم سيّال، أو لسان قوّال لكتبت وكتبت، ولقلت وقلت. ومجيئي إلى هذا الحفل وحضوري فيه معكم، إنّما كان لهذا القصد. ولم يكن يمرُّ بخاطري أن يسبقني ممّن سبقني إلى ما سأقول. فالشّيخ عدّون ركيزة هذه الحركة الإصلاحية والنّهضة العلمية ـــ مع تجوُّز

---

[1] – فخّار هو الشّيخ حمّو بن عمر فخّار (ت 1426هـ/ 2005م) أحد تلاميذ الشّيخ بيّوض ورئيس جمعية الإصلاح بمدينة غرداية. باجو هو أستاذنا صالح بن الحاج إبراهيم باجو, أخد خرّيجي معهد الحياة، وأحد المدرّسين فيه منذ سنة 1962م إلى اليوم. بربوشة هو أستاذنا الدّكتور محمد بن صالح ناصر، أحد خرّيجي معهد الحياة، وأحد المدرّسين فيه من 1966 – 1971م. (م. ن. ب)

في الوصف ــ وإن كانت مطامحنا أبعد ممَّا وصلنا إليه، ولكن مع ذلك فهي نهضة لا تنكر، ولقد أعطت بعض ثمرات هذا الإصلاح. فالشّيخ عدّون ــ في القرارة على الأخصّ ــ هو الرّكيزة، وأضغط على هذه الكلمة، فهو العمود الفقري أو السّارية التي يرتكز عليها كلّ ما فوقها.

فالتّعليم الابتدائي والثّانوي، وما حفَّ بهما من مشروع البعثات الطلابية، وكلّها مراكز مفيدة، نرجو برَّها وذخرها عند الله. هذه المنشآت كلّها كان الشّيخ عدّون الرّكيزة التي تعتمد عليه. فقد أعاننا الله تعالى على مدّها وتوسيعها بحسب ما منحنا من إمكانيات وما أزاح الله أمامنا من عقبات.

والحركة تسلَّمناها في 27 رمضان 1339 هـ ــ شهر جوان 1921م ــ فإذا اعتبرنا التّاريخ الهجري فلقد أكملنا 51 عامًا، وندخل في 52، وإذا حدَّدت هذا التّاريخ فلأنَّه تاريخ وفاة مربِّينا الشّيخ الحاج عمر ابن يحي ــ رحمه الله ــ الذي دفن يوم 27 رمضان 1339 هـ ــ ومن ذلك التّاريخ لا تزال ــ بفضل الله ــ الرّاية بأيدينا مرفوعة. وفي ذلك الوقت كان الشّيخ عدّون طالبا من الطّلبة، تبدو عليه مخائل الإخلاص وحبِّ العلم وهي الميزة التي امتاز بها.

وأذكر أمرين متمايزين ــ وهي من غرائب الصّدف ــ بين طبعي وطبعه، وخلقي وخلقه. فأنا: والدي ــ رحمه الله ــ توفي في 25 رجب 1339هـ، قبل وفاة الشّيخ الحاج عمر ابن يحيى ــ رحمه الله ــ

بشهرين، وترك ديونا وأمورا ثقيلة، وكنتُ قضيت قرابة عام في العمل بالمتجر في «سانطارنو» (العلمة حاليًا)، وكانت لوالدي تجارة هناك، ولقد وقعت تطوُّرات كبيرة في التّجارة بسبب الحرب العالمية الأولى، وانهارت التّجارة فبعثني والدي لإنقاذ تجارته. ولما توفِّي الوالد ــ رحمه الله ــ اتّصلت بشركائه لتصفية التّركة، وبعد ذلك رجعت إلى القرارة إلى الميدان العلمي، ولكن كتب إليَّ الإخوان من سانطارنو، يطلبون منّي وبكلِّ إلحاح أن أعود إلى دكّان والدي لإنقاذ التّجارة مع شركائه، وكان عمري يبلغ 21 سنة. ولكن كتبت إليهم معتذرًا ورافضًا طلبهم؛ لأنَّني أشعر في قرارة نفسي أنِّي خُلقت لإنقاذ أمَّتي، وكانت لي عقيدة راسخة في نفسي لا تتزحزح، وتحمَّلت جرَّاء ذلك أشياء كبيرة، ملأتني من مفرق رأسي إلى أخمص قدميَّ بأنَّني خُلقت للعلم، وهذا الشّعور هو الذي دفعني إلى ذلك الموقف الجريء الذي اتَّخذته يوم وفاة شيخي، الذي فارقته على السّاعة 11 ليلا، وتوفِّي هو على السّاعة 12، ووقع النّبأ علينا وقتئذ كالصّاعقة، فسار فكري إلى كيفية الحفاظ على هذا الحمل الثّقيل الذي تركه الشّيخ، إنَّه حمل المسؤوليات التي كان يشرف عليها في الأمَّة. إنَّها أثقال سياسيَّة واجتماعية وإصلاحية، كلّها كانت ملقاة على رأسه. وأتذكَّر عندما كان الغسَّالة يهيئون جثمان الشّيخ ناديت أحد الطّلبة ليطوف بجميع زملائه الطّلبة، فيخبرهم أنَّ اللّقاء العامَّ لكلِّ الطّلبة سيكون بعد الجنازة مباشرة، فمن المقبرة إلى المدرسة. ولقد شعرت بقوّة الاهتمام لحمل هذه الرّاية في الوقت الذي كان النّاس كلُّهم يبكون بالدّموع

الغزيرة. وأتذكَّر تأثُّر الشّيخ الحاج محمَّد المؤذِّن ([1]) لما خرجنا من دار الشّيخ قبيل وفاته، وكان يبكي ويقول: إلى أين نذهب إذا مات الشّيخ وتركنا؟ وأجبتُه على الفور: «لا تخف لقد ربَّانا لمثل هذا اليوم».

رجع الطّلبة كلُّهم من الجنازة إلى دار القراءة، فوقفتُ فيهم خطيبا وعزَّيتُهم في فقيدنا الشّيخ المرحوم. وقلتُ لهم: إنَّ أيَّام العزاء ثلاث تتعطَّل فيها الدّراسة، ومن بعدها يعود النّظام الدّراسي كما كان، ولا ينقصه شيء إلاَّ وجود الشّيخ ــ رحمه الله ــ وكان ما كان، ورجعت المياه إلى مجاريها.

وكان للشّيخ عدُّون الفضل الأكبر في ذلك. ولقد كان قبل ذلك في التّجارة بمدينة «سريانة»، ولكنَّه رجع إلى طلب العلم، ولكن عرضوا عليه مُلحِّين أن يرجع إلى التّجارة وهو في حالة شديدة من الفقر وطلب الرّزق، وهو يتيمٌ طالب نجيب, وطال الإلحاح عليه، ولكنَّه أصرَّ على البقاء في ميدان العلم، وقال لهم: لا أترك العلم أبدًا. ومن الغريب أن تتلاءم أخلاقه وطباعه معي. ومن تلك اللّحظة كان هو حامل للرّاية معي، وكان الحمل عليه ثقيلاً، وأنا أزيد له الأثقال لأخفِّف عن نفسي. وقد مضت على ذلك خمسون عامًا.

---

[1] – هو ابن النّاصر الحاج محمد بن حمّو، أحد طلبة الشّيخ الحاج عمر بن يحي، ومؤذّن الجامع الكبير بمدينة القرارة لمدّة تزيد عن الأربعين سنة. توفِّي يوم الأحد 02 من جانفي 1983م. (م.ن.ب).

ولقد فتح المعهد من جديد في 21 ماي 1921([1])، وكان له منذ ذلك الوقت حلقة يدرِّسها، وله دور في تأسيس المعهد وإدارته، ولا شكَّ أنَّ أكثر من في الحفل من الضّيوف كانوا وقتئذ طلبة، وتخرَّجوا في هذا المعهد، ولقد تفرَّقت بهم الآن سبل الحياة شرقًا وغربًا، وكلُّهم تحمَّلوا مهامّ مختلفة في الحياة، ولأجل ذلك ربّيناهم ليكونوا في هذه الوظائف. فأولادنا منبثّون في كامل القطر الجزائري، و99 في المائة منهم صالحون والحمد للّه. فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من هو على قيد الحياة أمثال «الشّيخ حمُّو فخَّار»، الذي لا يزال يعمل في حقل الإصلاح، فكم من أجيال جاءت وتربَّت، ونشكر الله على صلاح أغلبهم، وما شذَّ إلاَّ القليل ممَّن زلَّت به قدمه، وهؤلاء يُعدُّون على اليد الواحدة، والبقية كلُّهم صالحون، يقومون بواجبهم في كلِّ الجهات. لكن من بقي بجانبي من أوَّل لحظة إلى اليوم، وكلُّ شيء مرتكز على كاهله هو الشّيخ عدُّون. فهو حامل لأثقال المعهد والطّلبة على ظهره، وكلَّما جاءني طالبٌ يطلب عذرًا، أو يشكو شيئا، أقول له اذهب إلى الشّيخ عدُّون، وأنا أقدِّر ما عليه من أثقال، وما بقي لي الآن شيء من هذه المسؤوليات إلاّ ما قلَّ وندر، والباقي كلُّه على كاهل الشّيخ عدُّون.

والشّيء الذي يقضُّ مضجعي الآن، كلَّما مرَّ بخيالي ـــ ونحن بشر مُعرَّضون للخطر ـــ هو إذا مرض الشّيخ عدُّون أو مات، من يحمل بعده

---

[1] – إذا كانت الإشارة إلى معهد الحياة فالسّنة هي 1925م. (م.ن.ب).

هذه الأثقال؟ وإنَّ هذا الهمَّ يمرُّ عليَّ كلَّ حين؛ ففي العام الماضي مرض الشّيخ عدُّونّ وحملت همًّا كبيرا وهذه الفكرة أظلمت الدّنيا أمام عيني، وأنا إلى هذه اللّحظة لم أجد من يطمئنُّ إليه خاطري، وحسبي الله، فهو الذي أحسن إلينا في الماضي، وهو الذي سيحسن إلينا في الباقي. ومنذ الخمسينيات، فإنَّ كلَّ من تعلَّم شيئا إلاّ وكان بفضل الشّيخ عدُّون، وهذا الجمع الحاشد كلُّه اعتراف بهذا الجميل، فمثل هذه المشاركة في العرس هو عنوان الشّكر الذي لا يقدَّر بقيمة. ونحن لا نريد منكم جزاء ولا شكورا، بل نحن نُسَبُّ ونُشتَمُ من طرف أناس، نريد لهم الخير ويريدون لنا غير ذلك من أنواع المكر إلى درجة الاغتيال، وهذا ما يتبعنا إلى اليوم، ونحن نعلم أنَّ الله يتولَّى أمرهم، ونقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل». وما كان ينبغي لمن قضى مثل هذا العمر الطّويل أن يخاف إلاّ ما شاء الله، لهذا أريد أن أقرِّر هذا في هذا الحفل؛ لعلِّي لا أدرك عرس ابنه الآخر، وأنا عمري خمس وسبعون سنة، وقد كنت أعتذر من الحضور في هذا الحفل، ولكن من واجبي الحضور وتأدية التّهنئة لعلِّي لا أدرك أعراس بقية الأبناء، وعجَّلت بهذا الكلام لتسجيل ماضي الوالد. وهذا هو ماضيه بأخصر ما يُمكن أن يُقال، وهو عبرة للمعتبر وخاصَّة الطّلبة.

***

وأمَّا الأمر الثّاني، فهو يتعلّق بمستقبل الولد، ونرجو أن يكون مثل أبيه، ولو أنَّه سلك طريق مداواة الأبدان، وأبوه سلك طريق معالجة الأديان! فلنا من دارٍ واحدة مُعالج للبدن ومعالجٌ للرُّوح. ومُعالج البدن يجب أن يكون

صحيح الروح، يعالج ضميره أوَّلا كي يكون له ضميرٌ دينيٌّ، لا ينظر إلاَّ لمستقبله ومصيره المحقَّق، وهو لقاء الله. أمَّا المصير الذي يتغنَّى به النّاس فإنَّنا نجهل أعمارنا كلَّنا. فالواجب أن نجعل نصب أعيننا لقاء ربِّنا، والله لما نعى على الظالمين قال: ﴿ألا يظُنُّ أُولَئِكَ أَنّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[المطففين: 4، 5]. وهذا هو سرُّ النجاح، ولا ينجح في دنياه إلاَّ مَن جعل لقاء الله نصب عينيه. فنرجو لابننا العريس مستقبلا زاهرًا، ولقد اختار هذا النّوع من العلم. ولقد سمعنا العلماء يقولون في كتاب: «العلم يدعو للإيمان»، وليس مرادهم هو علم الشّريعة، بل مرادهم هو علم الطّبيعة والحياة وتشريح الإنسان، وفي ذلك اطِّلاع على أسرار الكون وعلى عجائب الله في هذا الجسم الإنساني. ونحن نعرف الظّواهر ولكن الأطبَّاء يطَّلعون على خبايا القلب والكبد وغيرها من الأجهزة العجيبة ودورها داخل الجسم، وهذا شيء عجيب حقًّا، والأطباء يطَّلعون على هذه الأسرار، ولا يقفون على سرِّها، والحياة كلُّها سرٌّ من أسرار الله والرّوح من أمر ربِّي وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلا.

وأحقُّ النّاس بتقوى الله هم الأطبَّاء وعلماء الطّبيعة والباحثون، فهم يطَّلعون أكثر منَّا على كلِّ حركة، ويقولون: سبحان الله، لا إله إلا أنت سبحانك، فهم باطِّلاعهم على هذه الأسرار أحقُّ النّاس بالإيمان وتقوى الله، والويل لهم إن لم يَدْعُهم علمهم للإيمان. فعلى أطبَّائنا أن يستجيبوا لله، فإنَّ العلم يدعو للإيمان، ومن حقِّ الأطبَّاء أن يكونوا أقوى إيمانًا منَّا، لأنَّنا نتلمَّس العلوم تلمُّس الأعمى ممَّا نقرأ من كتابات العلماء الذين

اطَّلعوا على أسرار العلم ودوَّنُوها، ولكنَّهم يطَّلعون ويرون كلَّ ما في الإنسان من العجائب.

أنجب الشّيخ عدُّون أربعة أولاد ذكورا، وكلُّهم سلموا وتجاوزوا مرحلة الخطورة. تُرى إذا حضر أجل الشّيخ عدُّون ــ حفظه الله ــ فأنا أقول لشريفي بالحاج أن يترك كلَّ ما في يده لثقتي به، فهو نُسخة من أبيه.

وعلى الأثر نجد ابنه محمَّدًا، الذي سلك طريق الفنِّ والخطِّ فهو بارع في هذا الفنِّ؛ فنِّ الرسم والخطِّ، ولا أظنُّ أن يوجد من هو أبرع منه في الجزائر، فهو يكتب أجمل الخطوط. والفنونُ يتّصل بعضها ببعض كفنِّ الخطِّ والرّسم والنّحت. والحمد لله أنَّه لم يجتذبه الفنُّ الآخر الذي قد يرديه، كالذي يصوِّر الصّور العارية وينحتها بأيّ مادَّة كانت، وهذا حرام في الشّريعة، وهو ما يميل إليه أكثر الرسَّامين. وأذكر رسومًا كثيرة ومن أبرعها رسم في غلاف مجلَّة العربي عدد يناير الماضي، وهي صورة فنِّية لشيخ هرم يتفكَّر في الحياة، ونظرتُ إليها عشرات المرَّات أتأمَّل في براعة تصوير رجل، اشتعل شيب رأسه، وهو متَّكئ وعيناه كيف تحدقان؛ وهي صورة من أغرب ما يكون، وأمثال هذه اللّوحات تُقوَّمُ بالملايين، ومنها الصّور الخليعة التي تستهوي الكثير من المصوِّرين.

ولقد تكلَّمت مع الابن محمَّد، وأحمد الله أن جعل فيه الميل إلى الخطِّ، والميل إلى رسم القرآن، ولعلَّ هذا سرٌّ من أسرار تربيته، وظهر هذا في سَمْتِه وهيئته، ولقد عاش في القاهرة ولم يستهوه شيءٌ ممَّا استهوى الكثير

من الشّباب أمثاله. ونرجو من هذا الولد الثّالث أن يسلك طريق أبيه وطريق أخويه، وهما لم يجلبا عارًا لأبويهما، ونرجو أن يسلك طريقهما، وطوبى له إن سلكه.

أمَّا كون طلب العلم أو المداواة أو تثقيف الأذهان، كما نرى في شريفي بالحاج، وهو معلِّم، أو أخيه محمَّد رسَّاما للخطوط، فالكلُّ نافعٌ، والسرُّ إنّما هو في القلب حين يكون عامرا ملآن بالعقيدة وضاربة جذورها فيه، وهي الكلمة الطّيّبة التي شبَّهها الله بالشّجرة الطّيّبة، أصلها ثابت وفرعها في السّماء، وهي العقيدة المتمكِّنة في القلب، فيظهر أثرها في الجوارح، فاللّسان لا يقول إلا صدقا، واليد لا تكسب إلا حلالا، وهذه من فروع الشّجرة المغروسة في القلب.

تعلَّموا يا شباب كلَّ علم، وطيروا إن استطعتم إلى السّماء، وليكن دينكم معكم، واحذروا من سخافات بعض الشّباب، إذا أمر أحدهم بمعروف أو نهي عن منكر قال: إيه! النّاس طلعوا إلى القمر، وأنتم لا زلتم هنا بأفكاركم القديمة.

ويلك يا هذا ! إنَّك تفتخر بعلم غيرك، وهل يتغيَّر دين الله بصعود النّاس إلى القمر؛ فما قيمة علمك بالنّسبة لعلم روّاد الفضاء؟ وهل شاركتهم في اكتشافاتهم؟ فلا فضل لك أبدًا، إنَّما أنت سمعت خبرهم كما سمعه البلداء والنّاس جميعا، وأنت تكفر بربِّك لأنَّ فلانا صعد إلى القمر ! فاحذروا يا شباب من هذه الانزلاقات الخطيرة.

وبعد؛ فلقد أطلت عليكم، ولا بدَّ أن نعرف فضل أهل الفضل؛ حتى

نعتبر ونسعى لتكون أواخر أيّامنا خيرا من أوائلها، ونطلب من الأبناء أن يسلكوا طريق أبيهم. وإن كان للأبناء العبرة من أبيهم، فليوسف العبرة من أبيه وأخويه، والكلمة لكم جميعا أيُّها الشّباب لتعتبروا.

أبدا ما تعلَّمنا لنيل درهم ولا دينار وما كان يخطر ببالنا أن نسأل من أين نأكل، ومن الغريب أنَّ هذه الفكرة لا تأتينا، والله سبحانه يرزقنا من طرق شريفة، فلا نتذلَّل لمخلوق ولا لغنيٍّ أبدا. ومشايخنا يحرِّضوننا على طلب العلم ويقولون لنا: « لطالب العلم رزقان؛ رزقٌ له ورزق لكتابه ».

وأذكِّركم بهذه النّكتة، فليس كلُّ الطلبة يتفوَّقون في العلم، وهذه من تجارب حياتنا، مَنْ أظهر الله فيه موهبة صلاحه للتّعليم، وعرض عليه أساتذته وطلبوا، منه أن يبقى في ميدان العلم فإذا مالت نفسه للدنيا فإنّه لا ينال من دنياه إلاَّ ما كتب الله له، فالذي بهرته الدّنيا لا ينال منها شيئا، ولقد مرَّت علينا أمثلة كثيرة، وكم طلبنا من بعض الآباء أن يُسبِّلوا ابنا من أبنائهم لله، فمنهم المستجيب ــ وما أكثرهم ــ ومنهم من يصرُّ ويمتنع. ولكن مرَّت علينا نماذج للاعتبار، فالذي رفض الاستجابة لغرض دنيوي دنيء، يتعب في مسعاه ولا ينال من دنياه شيئًا، ولولا الاحتفاظ بأسرار النّاس لذكرنا أمثلة، كانت حالتهم في وقت التّعليم أحسن من الحالة التي هم فيها الآن. وقد ينفح الله عبده بنفحات، فيفتح له أبواب الخير، فإن دخلها أخذ الله بيده، وإن أعرض عنها وكله الله إلى نفسه، والويل لمن وكله الله إلى نفسه !

الزّواج عقد مقدَّس، ولقد ضلَّ الذي ظنَّ أنَّه عقد مدنيٌّ، وهو من

العقود الشّرعية، كاشتريتُ وبعتُ، بل عليه مسحة من القداسة، ومن شروطه الخطبة مثل ما في صلاة الجمعة، وليس شرطه الصّفقة بعد الاتّفاق، كما هو في البيع كما يباع الحمار مثلا. وعقد الزّواج مهما وقع فيه من تراض واتِّفاق، فلا بدَّ من تشهير وقراءة خطبة وشهود حاضرين أثناء قراءة القاضي أو العالم لخطبة النكاح. والخطبة شرط مثل خطبة صلاة الجمعة وصلاة العيد، وإذا تمَّت خطبة الزّواج تمَّ الزواج. هكذا كان العرب والسّلف وعمل الرّسول ﷺ. والرّسول ﷺ عندما خطب خديجة ورضيت قبل أن يعلم عمُّه، وبعد أن علم عمُّه وقع الاجتماع، وبدأ عمُّه يخطب خديجة للرّسول ﷺ من جديد، وتمَّت الخطبة والموافقة في العلن؛ فلا بدَّ من المحافظة على قداسة الزّواج الشّرعي والنّبيّ افتخر بنسبه النّقيّ، فليس فيه سفاح، وجاء الإسلام وأقرَّ هذا ودعا إليه. ولذلك تؤدَّى الشّروط وتُقام الحفلات للتّشهير. ويجب أن لا يكون في تلك الحفلات ما يُسخط الله لكي يبارك الله في هذا النّكاح، ويؤتي بذريَّة طيّبة، كما دعا سيّدنا زكرياء: ﴿...رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ﴾.(آل عمران: 38) ودعائه:﴿...وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾(مريم: 6)؛ أي ترضى عنه وأرضى عنه. فما الفائدة من أن نلد أولادًا ونرميهم في النّار، ولو عرف أحد منَّا هذا لدعا لنفسه بالعقم. ولكي يستجيب الله دعاءنا، يجب أن نقدِّم بين أيدينا ما يجعل دعاءنا مستجابًا عند الله ليكون أبناؤنا صالحين. فحفلاتنا في الأعراس ترضي ربَّنا، ولا نحصرها في أصحاب الصّحراء فقط، بل يجب أن نقيم أمثالها في التّلِّ. ولقد سمعنا أنَّ فينا شبابا تزوَّجوا في التلِّ فأحضروا المحرَّمات، ولكن لم تمض على زواجهم إلا أيَّام

فكان ما كان، فكيد الله ومكره شديد لمن حاد عن طريق الله.

وهذا ما ندعو إليه؛ ندعو إلى النّكاح الـــمبكِّر، واختيار الزّوجة الصّالحة، وإقامة الحفلات على النّقاء والصّفاء، حتى يبارك الله لنا في أمورنا كلِّها.

وهذا ما يمكن أن يقال في هذا العرس المبارك الميمون.

وإنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد،

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

دور الشّيخ عدّون في معهد الحياة ([1])

الشّيخ محمد عليّ دبوز

وكان الشّيخ عدّون أنبغ التّلاميذ الكبار، وأكثرهم حزمًا ونشـــاطًا، وأوفرهم علمًا، سيَما في العلوم العربية. وكان قد أعطـــى نفســـه للمعهـــد، ولمؤازرة الشّيخ بيّوض في جهاده، فاستعان به الشّيخ بيّـــوض في التّـــدريس، وأسند إليه دروسًا في العربية، يلقيها على الطّبقة الصّغيرة المتوسّطة. فقام بذلك أحسن قيام، ونشط في ذلك أكبر النّشاط، فكان أكبر معين للشّيخ بيّوض في خلق جوّ النّشاط في المعهد وفي توجيه التّلاميذ وخلق الرّغبة في نفوسهم.

وكان الشّيخ عدّون قد تولّى في المعهد منذ بدايته درس القطر لابن هشام في النّحو للطّبقة الوسطى، ثمّ اختار كتاب الغلاييني (الحلقات)في ثلاثة أجزاء، فدرّسه في النّحو مكان الآجرومية للطّبقة الأولى، ومكان القطر للطّبقة المتوسّطة، ودرّس بعد ذلك في 1937 النّحو والصّرف للطّبقة الثّالثة العُليا.

وكان للشّيخ عدّون درس في الأدب للطّبقتين الأولى والثّانية، وكان لهذا الدّرس ثلاث حصص في الأسبوع، وكان ينتقي من كتب الأدب ما يُوافق التّلاميذ، فيدرسونه ثمّ يحفظونه. وألقى درسًا في تاريخ الأدب على هاتين الطّبقتين.وقد اختار تاريخ الأدب العربي للأستاذ أحمد حسن الزّيات فدرّسه، للتّلاميذ. وقام بتدريس الإنشاء للطّبقتين الأولى والمتوسّطة. وللإنشاء

---

[1] - محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1389هـ/ 1969م، ص: 55، 56. العنوان من وضعنا (م. ن. ب)

حصّتان في الأسبوع لكلّ طبقة. ويستعين الأستاذ في الطّريقة ببعض الكتب العصرية في الإنشاء. أمّا المواضيع فيختارها من بيئة التّلاميذ.

وللشّيخ عدّون درس في الإملاء للطّبقة الأولى. وهُو أهمّ من عاضد الشّيخ بيّوض في التّدريس في أطوار المعهد الأولى. وقد أبدى كفاءة ونتيجة، وأحبّ التّلاميذ دروسه لحبّهم إيّاه، ولولا وجود الشّيخ عدّون في معهد الحياة لتثاقل سيره، أو عصفت به عواصف تؤذي به، أو تعظم أحمال الشّيخ بيّوض في المعهد، فلا يجد من الطّاقة والوقت ما يصرفه في ميادين النّهضة الأخرى كالإصلاح الاجتماعي والجهاد السّياسي.

والشّيخ عدّون من أهم مصادر النّشاط والصّفاء والطّهر الّذي يمتاز به معهد الحياة، وأياديه على المعهد وعلى النّهضة في الجنوب لا تُحصى!

---

1 - ولد سنة 1921 /1340هـ بالبيّاض وكفل بتربية أخيه الأكبر بعد وفاة والدهما سنة 1939 /1358هـ. تخلفت دراسته بالزيتونة إلى سنة 1975 /1395هـ (الإجازة). توفي سنة 1996 /1417هـ: ينظر: الزّاوي، ص: 202 – 204.

الشّيخ عدّون بن بالحاج

العَضُد الأيمن للشّيخ بيّوض في جِهاده العلمي ([1])

الشّيخ محمد علي دبوز

من جَزاء الله العظيم للشّيخ بيّوض على حُسن نيّته، وعمله لِوجهه الكريم، أن وَهَب الله له الشّيخ عدّون بن بالحاج، فَكان من الطّلبة الأوّلين في مَعهده، وهُو ممّن سَعى في إنشاء معهد الحياة، وألَحّ على الشّيخ بيّوض في إنشائه. وقد وجَدَ فيه الشّيخ بيّوض كُلّ الصّفات العقلية والخلقية الّتي يُريدها في تلميذه. كان مِثالاً في الذّكاء وقُوّة الحافظة، وفي الصّفاء وحُسن النّية، وعُذوبة الرّوح وظرف النّفس، ومِثالاً في الحزم وقُوّة الإرادة والغرام بالعلم والجدّ فيه، فكوّن بهذا في معهد الشّيخ بيّوض جوًّا حيّا أنيسًا أثّر في التّلاميذ، وكان قدوتهم في الجد وحبّ العلم؛ ووجد فيه الشّيخ بيّوض كلّ ما أراد في الطّالب النّاجح، فازداد نشاطه. وكان لا يفتح دروسه إلاّ إذا حضر، ولا يجد نشاطه كلّه إلاّ إذا كان في درسه. وكان الشّيخ بيّوض يُحبّه حُبًّا جمّا لصفاته العظيمة الّتي ذكرنا. ويحبّ الشّيخ عدّون أستاذه الشّيخ بيّوض حبًّا عظيمًا. وهو مثال البرّ به، والاحترام والإكبار له إلى يومنا هذا، وهُو في شيخوخته، وعَلَم من أعلام الإصلاح المُمتازين في الجنوب.

---

[1] - محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر من عام 1340هـ/ 1921م إلى عام 1395هـ/ 1975م، ج2، ط1، مطبعة البعث، قسنطينة (الجزائر)، 1396هـ/ 1996م، ص: 202 – 204.

ولقد أقرّ الله عين الشّيخ بيّوض به فنبغ في العلم على يده، وأنعش الشّيخ بتربيته الحكيمة وراثته العظيمة، فبرزت فيه بكل خصائصها، فكان مثال أبيه وجدّه وعمّه وأسرته في الإخلاص وحبّ العمل، وفي النّشاط والحزم، وفي الصّفاء وحسن النيّة، وفي التّضحية وإعطاء النّفس للعلم والدّين ينصرهما بكل قواه.

وكان الشّيخ عدّون عند افتتاح المعهد في أوّل شبابه، وهو من أصغر التّلاميذ في معهد الحياة، ومع هذا صار ناظرًا في المعهد مع الشّيخ بالحاج بن محمد، والشّيخ الحاج محمد بن حمّو، وهُما أكبر منه سنًّا، وأقدم في طريق العلم، فأعان أستاذه كلّ الإعانة، ثمّ اختاره معينًا له في التّدريس. وفي أوّل الأربعينات صار مدير المعهد والمدرّس فيه، يقوم بالعلوم العربيّة والشّرعية: النّحو والصّرف والفقه وغيرها، وأعطى للمعهد نفسه فازداد ازدهارًا به، كما كان من أسباب ازدهاره من قبل ونجاح الشّيخ بيّوض في التّربية والتّعليم. إنّه ساعده الأيمن في التّربية وإدارة المعهد، وهو أكثر اختلاطًا بالطّلبة؛ لأنّه ناظر المعهد، يرابط فيه في كلّ الأوقات، ويمتزج بالطّلبة معظم النّهار وفي اللّيل فتأثّروا به، وكانوا يحبّونه حبًّا عظيمًا، لصفاء نفسه صفاءً نادرًا، لا تجده إلاّ في الصّفوة الورعة من أولياء الله الأخيار. وهو من أكبر أسباب نجاح الشّيخ بيّوض في التّربية والتّعليم، فلولاه لعظمت أثقاله في المعهد، فلا يستطيع أن يتفرّغ في جزء كبير من وقته لقيادة النّهضة ومشاكل الإصلاح.

والشّيخ عدّون محبوب لدى الجمهور. يحبّ النّاس لصفاء طويّته فأحبّه النّاس، وكلّ النُّبغاء قد منوا بالحسدة يكيدونهم ويعكّرون صفوهم إلاّ الشّيخ

عدّون، فما رأيت له حاسدًا يكيده، ويتمنّى زواله، وذلك لزهده في الرّئاسة والظّهور. إنّه يقوم بجهاده العظيم في عدّة ميادين في سكون وتواضع، لا يقصد بعمله إلاّ الله، ونفع الأمّة، والبرّ بشيخه؛ لتخفّ أحماله، وتعظم نتائجه للأمّة. وهو عمدة كبرى في جمعية الحياة الخيرية، التي تكفل النّهضة في القرارة، وتقوم بمدرسة الحياة الابتدائية، ومعهد الحياة الثّانوي. وهو عضو في العزّابة، وهو مفتّش المدارس الميزابية الحرّة في الشّمال والجنوب، وهو رئيس جمعية قدماء التّلاميذ، وهو رئيس عشيرته يرفع أثقالها ويحلّ مشاكلها. إنّه بطل فحل نهّاض بأعباء كثيرة، وهبه الله للإصلاح في القرارة و ميزاب. وتاريخه عظيم، وهو من المثل العليا الّتي يجب أن يعرفها الشّباب ليقتدوا به، وسنجلو عليك إن شاء الله تاريخه مفصّلاً في جزء خاص به وبالشّيخ صالح بابكر من هذا الكتاب، لعلّه الرّابع أو الخامس. فكلّ أنواع الجهاد الّتي قام بها الشّيخ بيّوض في القرارة، سيما التّربية والتّعليم فالشّيخ عدّون من أعوانه الكبار فيها. فلزام أن نجلو تاريخه. وقد حدّثني به بتفصيل، وعاشرته ولابسته منذ أربعين عامًا، فسبرت أغواره، وعرفت حقيقته، وأنا تلميذ في معهد الحياة وأستاذ فيه. إنّ ما يشدّني إلى هذا المعهد العظيم فآثرته ميدانًا للجهاد في سبيل الله لنيل رضى الله أسباب كثيرة قويّة، منها قيام الشّيخ عدّون بإدارته. وقد وجدت فيه كلّ ما أريد من صفاء وتواضع وحب، وغرام بالعمل والتّقدم. إنّه من أكبر أسباب تقدّم معهد الحياة وازدهاره في كلّ عهوده. ولا زال نشاطه فيه وطموحه في شبابه وهو في شيخوخته. وقد أوردت لك موجزًا صغيرًا في حقيقة هذا الرّجل العظيم؛ لأنّه من أكبر أسباب نجاح الشّيخ بيّوض في التّربية والتّعليم، فالمقام يستدعي ما قلنا.

ومن نتائج إخلاص الشّيخ عدّون وعمله لله ويمنه أن يسّر الله لي تاريخه رواية، ونقلاً له حرفيًّا من آلة تسجيل الصّوت وتأليفًا. لما أتممت تأليف الجزء الثّالث من كتاب نهضة الجزائر الحديثة،وأغلبه في معهد الحياة، أتممت تأليفه في آخر ربيع سنة 1389ه /1969م وأنا مكدود متعب تعبًا شديدًا. فرأيت أنّ أُلِمَّ بتاريخ مدير معهد الحياة فيما تبقّى لي من الوقت قبل أن أشرع في طبع الجزء الثّالث في أوّل العطلة الدّراسية في الصّيف، فأكتب مقدّمة صغيرة من تاريخه، فكان الله معي فكتبت في الزّمن القصير نصف تاريخه الطّويل، بأسلوب يرضيني، وتحليل عميق، ووجدت من عون الله، ومن أريحية النّفس، ونشاط الفكر، وسهولة الــتّأليف في كتابة تاريخه كلّ ما أريده والحمد لله. وهذه نتيجة صفائه وبرّه بمشايخه ونتيجة برّنا بمشايخنا والحمد لله. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يزيدني من عونه وتوفيقه، فأتمّ كتابة تاريخه، فأتحفك به عزيزي القارئ لتعلم حقيقة هذا الرّجل العظيم فتُحبّه، ويكون قدوة حسنة للأجيال.

من رسائل الشّيخ عدّون إلى الشّيخ أبي اليقظان ([1])

الدّكتور: محمد بن صالح ناصر

مدخل:

من خلال قراءاتي المتعدّدة لمراسلات المشايخ فيما بينهم، ولاسيّما ما كتبوه وتداولوه بينهم إبّان الحركة الإصلاحيَّة ونهضتها ما بين (1925–1962) أصبحت عندي قناعة، ازدادت مع الأيَّام رسوخًا، بأنَّ هذه المراسلات تعدّ من أهمِّ الوثائق المؤرِّخة لتلك الفترة، ذلك لما تحتوي عليه من أهميَّة كبرى، تكمُن في غناها الفكري المتنوِّع، وهو ما يؤهِّلها لتكون دون مبالغة من أهمِّ الوثائق التاريخيَّة، لمن يرغب في الاطّلاع على مصادر الحركة الإصلاحيَّة وأعلامها وروّادها وأحداثها، وهي جزءٌ حيوي من تاريخ الجزائر المعاصرة، ولاسيّما في المجالات الدينيَّة، والاجتماعيَّة، والتّربويَّة، والسّياسيَّة.

فإنَّه إضافةً إلى ما تحتوي عليه "الرّسالة" بطبيعتها من عفويَّة، وصدق ومتابعة، تضمُّ في ثناياها خصائص المذكِّرات، واليوميات، والتّقرير، والوصف الخبري، والتّحقيق الصّحفي، والنّقد الصّريح للمواقف والأفكار، فإنَّها تنِمُّ قبل هذا وذلك عن نفسية كاتبها، دون تزييف أو تجميل، لأنَّ هذه المراسلات تتمُّ غالبا بين أصدقاء أوفياء، تربط بينهم زمالة دراسيَّة أو مهنيَّة أو أُسريَّة، ومن ثمَّ فهي تجمع بين خصائص الكاتب الشّخصيَّة صاحب الرّسالة، كما تصبح في

---

[1] – مجلّة الحياة (معهد الحياة)، القرارة، الجزائر، العدد التّاسع، رمضان 1426هـ/ نوفمبر 2005م، ص: 117 – 147.

الوقت نفسه مرآةً عاكسة لأحداث الحياة الجماعيَّة في هذا الوطن أو ذاك.

وقد فهمتُ من خلال قراءتي لهذه الرّسائل سرَّ اهتمام أصحابها بها كتابةً وردًّا، ولا سِيَّمَا عند مشايخ الحركة الإصلاحية وأدبائها، الذين غدا هذا النّوع من الأدب الرّفيع صنفًا لهم، ورباطًا أخويًّا متينًا بينهم، وأدركت ـــ كما لم أدرك من قبل ـــ سرَّ احتفالهم هذا الاحتفال العظيم بهذه الرّسائل.

والحقّ إنَّ الفضل الأكبر ـــ بعد الله ـــ يعودُ إلى الحظِّ الذي ساقني إلى الاطِّلاع على مجموعات مراسلات الشّيخ أبي اليقظان (رحمه الله)؛ فهو معروفٌ بعنايته بهذا الجانب كتابةً، وجمعًا، وحفاظًا. كان الشّيخ في مراسلاته المتعدِّدة إلى خارج الوطن وداخله كالمنارة الشّامخة في لجَّة البحر، توزِّع النّور وتنشُره إلى كلِّ الآفاق، فتكون بذلك مُرسلةً للنّور، هادية للسّفن القادمة من مشارف الأرض ومغاربها.

لقد كان الشّيخ أبو اليقظان بما أوتي من همَّة عاليَّة، ودأبٍ على الكتابة والمواظبة عليها، ومتابعةٍ دائبةٍ حثيثةٍ للأحداث من حوله ـــ رغم مرضه آخر العمر ـــ مركزا مشعًّا لمشايخه، والأساتذة، والطّلاَّب، والمستفتين، ومن ثمَّ كثرت مراسلاته وتنوَّعت، وهو ما جمع بين يديه رسائل كثيرة من أمثال، الشّيخ عدُّون، الشّيخ علي معمَّر، الشّيخ أبي إسحاق، الشّيخ محمَّد علي دبُّوز، الشّيخ حمُّو فخَّار([1])، من عُمان، ومن جربة، ومن تونس، ومن القاهرة، ومن

---

[1] - هؤلاء المشائخ المذكورون هم من أقطاب الحركة الإصلاحية قي وادي ميزاب بالجنوب الجزائري. إلاّ الشّيخ عليّ يحي معمّر (1919 - 1981م) فهو من ليبيا، لكنّه شارك في هذه الحركة مشاركة مهمّة وفعّالة؛ بصفته كان طالبًا تخرّج في معهد الحياة، ومدرّسًا فيه، وكانت له =

دمشق، ومن أمريكا، ناهيك عن داخل القطر شرقًا وغربًا، شمالا وجنوبا، ممَّا لا أحصيه عدًّا ولا حصرًا[1].

ويأتي في الصفِّ الأوَّل ممَّن كانوا يُراسلون الشّيخ أبا اليقظان، تلميذُه وزميلُه وصديقُه الوفيّ الحميم: الشّيخ عدُّون، ولا سيّما في الفترة التي كان فيها الشّيخ أبو اليقظان مستقرًّا في العاصمة فيما بين (1926 – 1940)، وهي فترة ما بين الحربين العالميتين، التي طبعت الحياة في الجزائر، بل في العالم بطابعها الخاص. وقد رأيتُ أن يكون هذا البحث متناوِلا لرسائل الشّيخ عدُّون إلى الشّيخ أبي اليقظان في الفترة المذكورة للأسباب التّالية:

أوَّلاً: يُعدُّ الشّيخ عدُّون من أهمِّ صانعي الأحداث أو من المشاركين فيها في تلك الفترة، مِمَّا يؤهِّله ليكون شاهدًا على عصره، أمينًا على أحداثه، ودقيقًا في أخباره.

ثانيًا: صِدقُ الشّيخ عدُّون وإخلاصُه ووفاؤه لما آمن به من قيم ومبادئ، وثباتُه في الميدان الإصلاحي؛ لم يتردَّد، ولم يتغيَّر، ولم يَشكُ قطُّ طوال عمره المديد الذي، بارك الله له فيه، فتجاوز المائة بخمس سنوات، وهو كالطّود الشّامخ رسوخًا وثباتًا.

ثالثًا: في هذه الفترة (1930 – 1940) كان الشّيخ عدُّون في عنفوان شبابه،

علاقات وطيدة مع مشائخ وادي ميزاب: علاقات روحية، وعلاقات نشاط وحركة وعمل إصلاحي ودعوي...(م.ن.ب).

[1] – حبّذا لو تقوم دراسة أكاديمية بهذا الموضوع لأهميّته.

ونضارة عمره، وقمَّة عطائه، وحيويَّة تحرُّكاته ونشاطه (في العقد الرّابع من عمره).

رابعًا: عملُه المهني في التّدريس، ومسؤوليتُه في الإشراف على الحركة التّربويَّة والتّعليميَّة، وقربُه الحميم الدّائم من أستاذه الشّيخ بيُّوض ــ زعيم الحركة ــ في المدرسة، والمعهد، والنادي، والمسجد[1]، وملازمته اللاّصقة به حتَّى كان يُطلق على نفسه (التَّانْبَرْ) أي طابع البريد الذي لا تُرسل الرّسالة بدونه، مِمَّا أهَّله ليكون مقرِّرا وفِيًّا، وشاهدا أمينا على كثير من الأحداث[2].

خامسًا: مشاركته الفعَّالة في صحافة أبي اليقظان بالمقالات الكثيرة، والرّأي والتّدبير وكتابة افتتاحيات كثير من جرائد أبي اليقظان: النّور، المغرب، الأمَّة، النّبراس، ولا سيّما موضوع الحركة الإصلاحيَّة؛ مِمَّا يؤهِّله ليكون مطَّلعا على خلفيات الكثير من تلك المقالات ودواعي كتابتها، وما وراءها من أسباب مباشرة أو غير مباشرة.

سادسًا: كانت هذه المراسلات أسبوعيَّة تصل إلى القرارة يوم الخميس، وتغادرها يوم السّبت، وهي قلَّما تخلَّفت عن موعدها، مِمَّا يجعلها سِجِلاًّ تاريخيًّا حافلا يكاد يكون يوميًّا لكلِّ مجالات الحياة بالوادي، في مناحيها

---

1 ــ يذكر في إحدى رسائله (14 مارس 1935) أنَّه يقوم بتسجيل دروس الشّيخ، ولا سيّما في التّفسير في مذكِّرات خاصَّة، يلخِّصها بعد ذلك. يقول: «ولي مذكِّرات أقيِّدها أثناء الدّرس، أستخلص منها أكثر الدّرس بعد ذلك». ألا تدعونا هذه الإشارة المهمَّة إلى البحث عن هذه المذكِّرات لإكمال ما نقص من دروس التّفسير ما قبل استخدام الآلة المسجِّلة للصّوت.

2 ــ كانت له مذكِّرات خاصَّة يسجِّل فيها دروس الشّيخ، ولاسيّما درس التّفسير الذي بدأ في فاتح محرَّم من سنة 1354هـ ــ والأمر جدير بالبحث للعثور على هذه المذكِّرات في مكتبته.

السّياسيَّة، والدّينيَّة، والاجتماعيَّة، والثّقافيَّة.

ومن هنا نلحظ كيف أنَّ هذه الرّسائل تتوزَّعها عدَّة محاور؛ فهي أخبار ذات طابع ديني؛ مثل ما يلقى في المسجد من دروس، أو طابع سياسي؛ مثل حركة الحكَّام العسكريّين والقيَّاد، أو طابع تربوي؛ مثل أخبار التّلاميذ والمدرسة والمعهد، أو ذات طابع اجتماعي؛ مثل الوفيات والنّزاعات، أو ذات طابع اقتصادي؛ مثل غلاء المعيشة أو رخصها والقحط والخصب وحملات "زقرير" وغير ذلك، أو ذات طابع إخواني أُسري؛ مثل جلسات النّادي، وقدوم الإخوان من ميزاب، والنّجاحات والإخفاقات وغير ذلك.

سابعًا: تُمثِّل هذه الرّسائل جانبًا أدبيًّا مهمًّا لمن شاء دراسة هذا الجانب، لأنَّها كانت تجدُ اهتمامًا كبيرًا من كُتَّابها ومن قرائها على السّواء، ومن ثمَّ كانوا يحتفلون بصياغتها، كما كانوا يعقدون الجلسات الحميميَّة لقراءتها والتّعليق على ما فيها، وكثيرًا ما كانت تلك الجلسات في النّادي، أو في مترل أحد الإخوان، يصحب كلَّ ذلك الظّرف والشّاي؛ ففي إحدى الرّسائل نقرأ ما يلي:

«... قد اتَّصل الكتاب بيد الأخ بوحجَّام ومعه الخيَّاط، واستبشروا به لضخامته فظنُّوه حافلا بالأخبار، وارتقبوا خروجي من المسجد قبل الزّوال، فاختطفوني لمجرَّد خروجي، واشترطتُ عليهم ألاَّ يُقرأ إلاَّ عشيَّة بين هالة من الإخوان حيث يطيب المجلس والشّاي...»[1].

---

1 ــ رسالة مؤرَّخة بِـ : 9 جوان 1948.

ومن ثَمَّ نلحظ أنَّ إلحاح الشّيخ عدُّون على أستاذه كان كلَّ مرَّة قويًّا ليداوم على المراسلة الأسبوعيَّة، ويفصِّل فيها تفصيلا، وبقدر ما كان يطير فرحا لكلِّ بريد يصله، بقدر ما كان يتأسَّف تأسُّفا حارًّا لتأخُّر أجوبة أستاذه عنه، فقد جاء في الرّسائل ما يأتي:

« وَدِدْنا لو أطلقتَ العنان لقلمك السيَّال فيفيض علينا بالتّفاصيل، إجابة لرغبتك في إتحاف إخوانك بكلِّ جديد، ولعلَّنا لا نَعْدِمُ هذا القلم وهذه الرّغبة منك بعد أن استقرَّ بك المقام[1]، واتَّجه سير الأعمال في الطّريق المعبَّد، واطمأنَّ بك البال، فقد بقينا منقطعين في جوف الصّحراء؛ لا وِرْدَ ولا كلأ، فاعطفوا على مساكينكم فهم أحقُّ النّاس بالعطف...» [2].

ونظرًا لتزاحم الموضوعات التي تحتوي عليها هذه الرّسائل، وهي حوالي خمسين رسالة فإنِّي أكتفي ــ لأنَّ المقام لا يسمح بغير ذلك ــ بفهرست في آخر البحث أُورد فيه قائمة بتاريخ هذه الرّسائل، وأستخرج منها أهمَّ الأحداث والأخبار المحتوية عليها[3]. كما أنِّي سألحق البحث ببعض النّماذج التي تقدِّم صورة وافية عن طبيعة هذه الرّسائل وأسلوبها واهتماماتها. ولكنِّي

---

1 ــ كان الشيخ أبو اليقظان فيما بين (1940 – 1948) مستقرًّا بالقرارة، ثمَّ غادرها لبعض الأعمال إلى العاصمة.

2 ــ الرسالة السّابقة.

3 ــ نظرًا لطول الفهرست المخصَّص لرسائل الشّيخ وموضوعاتها، فإنَّنا رأينا عدم نشره في هذا العدد لأسباب تقنية تتعلَّق بحجم الدّورية، راجين المولى عزَّ وجلّ أن يرى هذا البحثُ بملاحِقِه النورَ في صيغة كتاب قشيب في أجلٍ قريب.
(لجنة التحرير).

قبل هذا وذاك سأتناول بالدّراسة شخصية الشّيخ عدُّون، كما تبدو لي في رأيي المتواضع من خلال هذه الرّسائل.

فكيف يتجلّى لنا الشّيخ عدُّون من خلال هذه الرّسائل؟

1 ــ الإخلاص:

لعلَّ أوَّل صفةٍ يتميَّز بها الشّيخ عدُّون وهو في فورة الشّباب، ونضارة العمر هو الشّيخ عدُّون نفسه بعد أن تجاوز المائة من عمره ! ثباتًا على المبدأ، ووفاءً للصّداقة، وتفتُّحا على كلِّ جديد لا يتنافى مع القيم والثّوابت الدّينيَّة والأخلاقيَّة، وهو النّاظر إلى المستقبل دومًا، المتسامح الذي يفتح قلبه لكلِّ أصدقائه وأبنائه وتلامذته وزملائه، لا يحمل غلاًّ ولا حقدًا ولا حسدًا. وهذه الصّفة أي ميزة الإخلاص، وحسن النيَّة التي طالما عُرف بها الشّيخ عدُّون واشتهر، حتَّى قال فيه الشّيخ عبد الرحمن بن عمر بكلِّي: «إنَّه الإخلاص يمشي على رجليه»؛ ومن أجل هذه الخاصيَّة ظلَّ الشّيخ عدُّون في الثلاثينيات هو الشّيخ عدُّون في التّسعينات محبوبًا من الجميع، ومسيطرًا على الأفئدة لدى الكبار والصّغار، الشّباب والشيَّاب. ونضرب لذلك مثلا: فعندما وقع خلاف حادٌّ في أوائل الخمسينيّات بين الشّيخ بيُّوض وأحد زملائه وتلامذته حول قضيَّة من قضايا الإصلاح الاجتماعي، تتعلَّق بسفر المرأة وإصلاحات المسجد، وكادت وحدة القرارة تتصدَّع من جرَّائها، كان ضمن المساعي أن تدخَّل الشّيخ أبو اليقظان بين الشّيخ بيُّوض ومن اختلف معه في تلك القضيَّة، فكتب إليه الشّيخ عدُّون في رسالة مؤرَّخة بـــ 11 جمادى الأولى 1373 هـــ موافق لـــ 27 جانفي 1953 قائلا:

«... بلغني كتابُك بعد الأخير للإخوان بعد غيبة طويلة، وانتظار طويل وقد سرَّ الإخوان، وجماعة العزَّابة بسعيكم المبرور في القضيَّة الشّائكة، نسأل الله تعالى أن يمدَّكم بروح منه ويصل بكم إلى نتيجة مُرضِيَة يرتضيها الجميع، تحفظ كيان الإصلاح من التصدُّع، وتغسل ما علق في القلوب من أدران، ولا شكَّ أنَّ الله تعالى سيصل بنا إلى هذه الغاية ما دام الإخلاص والنيَّة الحسنة رائد الجميع...».

2 ــ التّواضع:

عادةً ما يكون التّواضعُ صفةً مرتبطة بالإخلاص؛ لأنَّ التكبُّر مرضٌ نفسيٌّ يعاني منه مرضى القلوب فقط، ومن ثمَّ فإنَّ مـــــمَّا يلفت النّظر في خِلاَل الشّيخ عدُّون تواضُعُه المذهل أمام أبنائه وتلامذته دون افتعال أو تكلُّف، لأنَّ تصرُّفاته تَنمُّ عمَّا يحمل في قلبه الأبيض النقيِّ الصافي، ولأنَّه يصدُرُ عن أخلاق إسلاميَّة عاليَّة، وإذا كان ذلك ديدنُه مع تلامذته فأولى أن يكون ذلك تصرُّفه مع أساتذته وزملائه، وهذه صفةٌ نفسيَّة بارزة أخرى نستجليها من رسائله إلى أستاذه الشّيخ أبي اليقظان، فقد لاحظتُ في رسائله كيف يوجِّه الخطاب الموشَّح بالخلق الرفيع: لين جانبٍ، وصفاء طويَّة، واحترام مقام، على الرّغم من أنَّ تَتلمُذَ الشّيخ عدُّون للشّيخ أبي اليقظان يُعدُّ اعتباريًّا، فهو لم يتلقَّ عنه دروسًا في فصلٍ، إلاَّ ما كان بينهما من جلسات حميميَّة أدبيَّة في النّادي أو في السّهرات الخاصَّة، أو المراسلات، أو ما جمعهما من زمالة طويلة في إطار الصّحافة، فهي ــ إن شئنا القول ــ علاقة صداقة وزمالة أكثر منها علاقة تلمذة أو أستاذيَّة، ولكنَّ تواضع الشّيخ عدُّون أبى عليه إلاَّ أن يخاطب أستاذه وشيخه بما يليق

بمقامه العلمي الرفيع: «أستاذنا الجليل العلاَّمة»، أو «أستاذي العزيز المجاهد الكبير»، وما انصرف عن هاتين الصّيغتين قطُّ في كلِّ رسائله، ومن تواضعه أنَّه كان يطلب من أستاذه دومًا أن يصحِّح له (الفصول) التي كان يحرِّرها لجرائده: «النّور»، «الأمَّة»، «المغرب» وغيرها، ويفوِّضه في اختيار عناوينها، ويلحُّ عليه ألاَّ ينشر شيئًا ممَّا يَكتُب دون أن يفحصه فحصًا دقيقًا، على الرّغم من أنَّ الشّيخ عدُّون كان كثيرًا ما يعرض تلك المقالات على الشيخ بيُّوض قبل إرسالها للنشر. ومـــــــمَّا يدلُّ على تواضعه تعليقُه على الافتتاحيات التي كان يكتبها في بداية الثّلاثينات لجريدة «النّور» عندما كان الشّيخ أبو اليقظان مشغولا بإعداد المطبعة العربيَّة يقول في رسالة مؤرَّخة بـــ 20 رجب 1350 هـــ.

«... لقد وُفِّقت كلَّ التّوفيق في ذلك النّسج البارع، وهكذا جميع ما يجري به قلمكم الذّهبي، فلو كان يقوم بواجبه أيضًا في تحرير الافتتاحيات لكان نورًا على نور، وأرى اقتصاركم فيها على هذا القلم الجاف ممَّا يزري من شأن الجريدة...».

ويقول من رسالة مؤرَّخة بـــ: 21 محرَّم 1355 هـــ 01 أفريل 1936:

«... بلغني جوابك الكريم يستحثُّني على المواظبة على الكتابة؛ حسن ظنٍّ منك بهذا العاجز، حقَّقَ اللهُ ظنَّك، ولا أراك منِّي إلاَّ ما يسرُّك، ويُبهج خاطرك، ولقد ختمتَ ذلك المقال المتواضع بذلك التّعليق الخطير الذي ألبس المقال حلَّة قشيبة من الإبداع، تركَها تختال تيهًا وعجبا، وهو في الحقيقة لا يستحقُّ شيئا مـــــــمَّا خلعتَ عليه، لولا ثقتك الكبيرة التي تقيس الأشياء على حسبها،

فتراها كبيرة وهي صغيرة، جليلة وهي حقيرة ».

ويقول من رسالة مؤرَّخة بـــ: 27 محرَّم 1355: «... أرجو إعادة النّظر في الفصل فقد مرَّ عليه الأستاذ مرًّا دون أدنى تأمُّل فيه، فلم يُنقِّح فيه شيئًا.

«... إليك فصل اليوم وعَنْوِنهُ بعنوان لائقٍ لا كسابقه...»

3 ــ سموُّ النّفس وعزّتُها:

من أهمِّ الخلال التي طبعت أخلاق المشايخ، روّاد الحركة الإصلاحية؛ تفانيهم من أجل ما آمنوا به، وتضحيتُهم المستميتة في سبيل رسالتهم الإصلاحيَّة، فقد سخَّروا لها كلَّ ما يملكون من وسائل ماديَّة ومعنويَّة، وبذلوا في سبيلها كلَّ نفس ونفيس، وعلى الرّغم من تعدُّد جبهات الخصوم ضدَّهم؛ من حُكم عسكريٍّ غاشم، وتزمُّت فكري متخلِّف، وعامَّة جاهلة مقلِّدة، فإنَّ ذلك كلُّه لم يفت في عضدهم، ولم يثبِّط من عزمهم.

ومن أمثلة التّفاني والتّضحية النّادرة المخلصة شخصية الشّيخ عدوُّن الذي ظلَّ ذلك الجندي المجهول المجاهد، الصّابر طوال عمره الطّويل، كان في بعض مراحله جنديًّا في الصّفوف الأماميَّة، وأصبح في مراحل أخرى قائدًا مبرّزًا يحمل الرّاية ويحتضن الأمانة.

هذه الرّوح المتوثِّبة إيـــــمانًا وثباتًا، هي التي تطالعنا من خلال رسائله إلى أستاذه أبي اليقظان، الذي طالما اعتبره نموذجا فذًّا في الجهاد والمصابرة، فكان لا يحلو له إلاَّ أن يُطلق عليه في كلِّ رسائله "**أستاذي الجليل المجاهد الكبير**". وما من شكٍّ في أنَّ الشّيخ أبا اليقظان كان يبادل تلميذه الإعجابَ؛

فكان ينوِّه بهذه الخِلاَل المتميِّزة في تلميذه الشّيخ عدُّون؛ فكان كثير الإشادة بهذه الخلال في شخصيَّة تلميذه وزميله وصديقه الحميم. وهو ما أوضحه وركَّز عليه في ترجمته للشّيخ عدُّون في كتابه (**مُلحق السِّيَر**) حيث يقول عنه: «أوتي حظًّا موفورًا من الخُلُق الكريم؛ من تواضع، وصبر، وثقة بالله واتِّكال عليه، وتقوى له، وإيمان كامل به، وعزَّة نفس، وهمَّة عاليه، ولين عريكة، وحسن نيَّة، وصفاء قلب، وصدقٍ وإخلاصٍ، ووَرَعٍ، وزُهدٍ، ومحافظة على سمت السّلف الصّالح، وحزم، وعزم، واقتدار على إدارة ما يُناط به من المهام بأمانة، وجدٍّ، لا يَعرِفُ كللاً ولا سأمًا، ولا تزعزعا في مبدئه...» [1].

ومِمَّا يدلُّ على سموِّ نفس الشّيخ عدُّون وثباتِه على المبادئ التي آمن بها موقفُه المشرِّف من أستاذه أبي اليقظان، حيث نشر الشّيخ مقالاً في جريدة «الثّبات»([2]) ردًّا على أحد الطّاعنين، وأمضاه باسم الشّيخ عدُّون[3] دون أن يستأذن منه ذلك، ويبدو أنَّ الشّيخ بعد صدور المقال، أراد أن يعتذر من الشّيخ عدُّون عن تصرُّفِهِ هذا دون أخد رأيه أوَّلا. فما كان من الشّيخ عدُّون إلاَّ التّأكيد لأستاذه على رضاه الكامل بتصرُّفه الذي شرَّفه به، بل اعتبر ذلك تقديرًا من أستاذه له؛ حيث يقول:

«... يظهرُ لي كأنَّك أردتَ أن تعتذر أو تتنصَّل من إمضاء المقالة

---

1 ــ ملحق السّير (الجزء الثّالث) ص: 445 (مخطوط).

2 - صدر منها خمسون عددًا ما بين 1934 و 1935م. مزيدًا من التّفاصيل عنها ينظر كتاب الصّحف العربية الجزائرية، ص: 201 – 206. (م.ن.ب)

3 ــ لم نهتد إلى هذا المقال المنشور في جريدة «الثّبات».

باسمي، فهل كان يخطرُ ببالك أن يقع لي في نفسي منه شيء، أم تظنُّ أنَّني أكره شيئًا، أو أرهب من أمرٍ ينالني في سبيل أمرٍ يعود علينا بالنّفع؟ لقد تلقَّيتُ ذلك بكلِّ فرح، واستبشار، وافتخار، ومرحبًا بمثل هذه المَبرَّات التي تجيءُ عفوًا بدون أدنى حركة، وإنَّني مستعدٌّ لأمثالها دائمًا، ولِمَا ينتجُ عنها من بلاء وشقاء...

مَرْحَبًا بِالخَطْبِ يَبْلُونِي إِذَا
كَانَتِ العَلْيَا فِيهِ السَّبَبَا»[1]

وكان من منطلق هذه الأخلاق العالية، والخِلاَل الكريمة يترفَّع عن مخاطبة الجاهلين بأسلوبهم المقذع، ويرى السّكوتَ عنهم أحيانًا هو الموقف الحكيم والردَّ المُسكِت، وكان ذلك موقفُه من إحدى الجرائد التي ظهرت في بداية الثّلاثينيات، مُنتَهِجَةً منهج السّباب والشّتم والنّيل من الأعراض، وأبدى رأيه المندِّد بأسلوبها وطريقتها حيث يقول:

«... أمَّا الورقة الزّرقاء[2] فقد أدخلت علينا كدرًا لا مزيد عليه، فهي فكرةٌ فاسدةٌ، ورأيٌ خطل، وإنَّنا نتوقَّع فسادًا عظيمًا تجرُّه لنا، نحن في غنى عنه، فما لنا وللشّخصيات ونَبْزِها، وتَتَبُّع العورات وكشْفِهَا للملإ، ففي الانتقاد النّزيه الصّريح مجالٌ ومُتَّسع...».

وقد يكون مثل هذا الموقف المتسامي المتسامح منه، يخالف به شخصًا يُكنُّ

---

1 ــ رسالة مؤرَّخة بـ : 25 أبريل 1935.

2 ــ لم نهتد إلى ما يقصد بالورقة الزّرقاء.

له التّقدير والاحترام الدّائمين، ويقف معه في صفٍّ واحد لمواجهة الخصوم؛ مثل أستاذه الشيخ بيُّوض، وذلك ما نقرأه له في رسالة إلى الشّيخ أبي اليقظان، في معرض الحديث عن ردود الشّيخ بيُّوض على بعض معارضيه حيث يقول:

«... ولقد ابتُلي الأستاذ بهذه الكلاب العاوية فاضطرَّ ــ عفا الله عنه ــ لمحاراة بعضهم، ولو كنتُ مكانه ما أَرَقْتُ في سبيلهم قطرة مداد.

بَــلاءٌ لَــيسَ يُشبهُهُ بَــــلاَءُ

عداوة غيرِ ذِي حَسَبٍ ودِينِ

يُبيحُكَ منه عِرضًا لَمْ يَصُنْهُ

وَيَرتَعُ مِنكَ في عِرضٍ مَصُونِ»[1]

4 ــ التّحمُّس للإصلاح:

يُعتبَرُ الشّيخ عدُّون أحد الرّكائز الأساسيَّة للإصلاح بوادي ميزاب، شارك في إعلاء بُنيانه بجهده، وفكره، وكتاباته، ومرابطته الطّويلة المستمرّة في واجهة التّعليم والثّقافة، وإنَّنا لا نُعَدُّ مبالغين إن زعمنا أنَّ التّعليم ــ ولاسيّما بالقرارة، وكثيرٍ من مدن التّل ــ ما كان ليبلغ ما بلغ لولا جهود الشّيخ عدُّون الشّخصيَّة، مِمَّا يستدعي دراسة جادَّة معمَّقة لهذا الجانب من شخصيته.

وأحسب الشّيخ عدُّون شاهد عصره، والدّليل عليه لأنَّه مِمَّن أطال الله عمره في هذا الجهاد وبارك فيه، وقد تبيَّن لنا من خلال رسائله في الثّلاثينيات

---

1 ــ رسالة مؤرَّخة بِــ: 21 محرَّم 1355 هــ / أفريل 1936م

تحمُّسُه الشّديد للإصلاح، وموقفُه الحازم من قضاياه، ونصرتُه الدّائمة لزعيمه وشيخه الشّيخ بيُّوض، ومن ثـــــمَّ نعتبر هذه الرّسائل وثائق مهمَّة لا يمكن الاستغناء عنها، لمن أراد الدقَّة والتّفصيل في معالجة موضوع الحركة الإصلاحيَّة.

ومن حماسته تلك هذه المتابعة المستمرَّة الدّائمة لكلِّ قضايا الحركة إبَّان صراعها المرير ضدَّ خصومها داخلا وخارجا، سواء أكانوا من المعارضين بوادي ميزاب، أو من المتسلّطين من الحكّام العسكريّين والقيَّاد المحلِّيّين.

وقد اتَّخذ هذا التحمُّس عند الشّيخ عدُّون مظاهر شتَّى، تبيَّنت من خلاله مواقفه من بعض القضايا الحسَّاسة التّاريخيَّة، التي تعدُّ من أهمِّ القضايا الفكريَّة والدينيَّة التي ميَّزت حركة إصلاح الشّيخ بيُّوض وأنصاره. وعلى رأس هذه القضايا التي عرفتها السّاحة الفكريَّة في وادي ميزاب ما يُعرف **بقضيَّة الصّوم والفطر بالتّلفون**، ولها علاقة مباشرة برؤية الهلال صومًا وفطرًا، والعمل بهذه الرّؤية عندما يكون مصدرها خبرًا تلفونيًّا، وهل يلزم العمل بها؟ أم لا؟

فإنَّ الشّيخ بيُّوض وأنصاره من الحركة الإصلاحيَّة يعملون بها ويصدِّقون خبرها، أمَّا المعارضون أو المحافظون فإنَّهم يرفضونها ولا يرونها مُلزِمَة للصّوم أو للإفطار؛ عملاً بقول الرّسول ﷺ : «كلُّ بلدٍ ورؤيَته».

ويبدو أنَّ الشّيخ بيُّوض قد ألقى في القضيَّة بمسجد القرارة عدَّة دروس، وضَّح فيها الوجه الشّرعيَّ توضيحًا جيّدا، كما عُقدت من أجل هذه القضيَّة جلسات، وكُتبت رسائل ومقالات من كلا الطّرفين، ولعلَّ أبرزها ما كتبه الشّيخ بيُّوض والشّيخ أبو إسحاق اطفيَّش من الإصلاح، والشّيخ الشّريف

الأزهري والشّيخ محمَّد بن باحمد من المعارضة.

وقد أثَّرت هذه القضيَّة في العلاقات العامّة والخاصَّة بين أهالي وادي ميزاب ما بين المعسكرين، حتَّى قال فيها الشّيخ الثّميني محمَّد بن الحاج صالح في رسالة مؤرَّخة إلى الشّيخ بيُّوض «... ولي كلامٌ طويلٌ أرجأتُه إلى اللّقاء إذا حفظني الله من شرِّ التّلفون لعنها الله، ولا نزال نعاني منها منذ سنوات ما لا يَعزِبُ عنك، ولولا أنَّني من القائلين بوجوب العمل بها، لأعلنت البراءة منها ومن جميع التّلفونيّين، ولكنّ الواجبات أغلال في أعناق الرجال...» من رسالة مؤرَّخة بـــ: 9 أوت 1939.

والذي يبدو أنَّ المسألة ظهرت على واجهة الأحداث بالوادي في شوَّال من سنة 1354 هـــ [الموافق جانفي 1936م]، وذلك ما نستشفُّه من رسالة الشّيخ عدُّون لأستاذه أبي اليقظان مؤرَّخة بـــ 18 شوَّال 1354 هـــ يقول فيها:

« تطوَّرت اجتماعات الوادي حول مسألة التّلفون... مأساة الاجتماع السّابق على المسألة في وادي ميزاب، يكرِّرها نفس أولئك المجتمعين في السّابق، لأجل الغرض السّابق، وبتلك الصّفة والهيئة، ليت شعري هل لهؤلاء عقولٌ تُرشدهم إلى السّبيل الأقوم...».

ومِمَّا يدلُّ على أنَّ القضيَّة شهدت ذروتها في القرارة، على الأقلّ في شهر شوَّال من سنة 1354هـــ ما نقرأه في رسالة مؤرَّخة بـــ 25 شوَّال من سنة 1354، أي بعد أسبوع تقريبا من الرّسالة المشار إليها سابقا:

«... وصل فصلُ الأستاذ[1] فكان على القرارة بردًا وسلامًا، وقد أطفأ في نفوسنا ونفوس أكثر النّاس ما بها من لوعة وظمأ، أمَّا من يكون عليهم قنبلة ونارًا ملتهبة، فلم نسمع لهم حسيسًا، ولم نر أدنى إشارة في شأنه، رغم أنَّه لم يبق أحد له أدنى إلمام بالمسألة، لم يطّلع عليه ولم يقرأه ويستقرِئْه، وقد تهافتوا عليه بكلِّ نَهَم واختطفوه من ساعته، وكثر طلبهم له؛ لو وُجدت عشرات لنفِّدت في ساعتها، أمَّا موقعه في ميزاب فلم نسمع له أثرًا إلى هذه السّاعة...».

ويقول في رسالة مؤرَّخة بـ 9 ذي القعدة 1354هـ معلِّقا على مقال كتبه الشّيخ أبو اليقظان ونشره بجريدة «الأمَّة»:

«... وصل العدد (60) وفيه القنبلة الثّانية، التي لا تقلُّ شدَّة عن سابقتها، أمدَّكم الله ونصركم وردَّ عنكم كيد الكائدين، ولا يحيق المرء السيِّء إلاَّ بأهله، القوم مصرُّون الإصرار الكلِّي على رفض العمل بالتّلفون حتَّى ولو اجتمعوا بالأستاذ وأقنعهم بالعمل بها، وهو من رابع المستحيلات ».

وبعد سنة كاملة شهدت تطوُّرات في هذه المسألة. نقرأ من رسالة مؤرَّخة بـ 17 ربيع الأنور 1355 هـ ما يلي:

«... مسألة التّلفون خمدت أو سكنت تمامًا تقريبا، وأصبح أكثر النّاس

---

1 ــ الإشارة هنا إلى مقال للشيخ بيُّوض صادر بجريدة «الأمَّة» عدد 58 بتاريخ (1936/01/14) عنوانه: «مسألة الصّوم والفطر بالتّلفون، (كتاب مفتوح من بيُّوض إبراهيم إلى الشّيخ محمَّد بن باحمد والشّريف الأزهري)، وانظر الأعداد: 60، 61، 62 من «الأمَّة».

متشوِّقين إلى الرّسالة [الإشارة هنا إلى رسالة للشّيخ بيُّوض في المسألة] فالأعناق مشرئبَّة إليها، بعد أن يئسوا من حلّها من ناحية الاجتماع، وما كان لغير الله انقطع وانفصل. الأستاذ منهمكٌ في خدمة الرّسالة بزيادة فصول ضروريَّة لها، فلا ينصرف عنها إلاَّ للدّروس الضّروريَّة والأشغال التي لا محيد عنها، وقد بلغ منها إلى نحو 90 صفحة، بينما وصل في الأخذ من الأولى 17 صفحة فقط، وبقيت له منها نحو 100 سيتناولها بالتّحرير والزّيادة، والـــمَظْنُونُ أنَّها تتجاوز 300 صفحة، وستكون كتابا لا رسالة (*).

5 ــ ذهنُه المتفتِّح وشغفُه بالمطالعة:

على الرّغم من مشاغله الكثيرة، ومسؤولياته المتعدِّدة ولا سيّما في إطار الحياة الدّينيَّة والاجتماعيَّة والثّقافيَّة، فقد عُرف الشّيخ عدُّون طوال حياته الطّويلة محبًّا للقراءة، شغوفًا بكلِّ جديد في الفكر والثّقافة، متابعًا لكلِّ ما يجدُّ في ميدان الطّباعة من كُتُب ودوريات ومجلاَّت؛ لا يُرى إلاَّ مصاحبًا لكتاب أو مجلَّة أو جريدة. كان يضع ــ كلَّما سمح له وقتُه بذلك ــ للمطالعة برنامجا يوميًّا دقيقًا، ما انفكَّ يحافظ عليه حتَّى في أيَّام مرضه، ولم يغيِّره في كلِّ حالاته وظروفه، سواء أكان مُقيمًا أم مسافرًا، وقد تجلَّى ذلك في مكتبته الضّخمة التي جلب إليها الكتب الكثيرة من مختلف البلاد العربيَّة، والقارئ لرسائله يلمس هذا الشّغف بالجديد في الفكر، من إلحاحه الدّائم على أستاذه أبي اليقظان بأن يرسل إليه ما يسمّيه في رسائله «**تحائف الشّرق**»؛ فقد كان شديد الحرص

(*) – المنشور منها والموجودة الآن عدد صفحاتها.

على قراءة: «**الرّسالة**»، و«**الفتح**»، و«**الشّباب**»، و«**المنار**»، و«**العلم**»، و«**كلُّ شيء**» و«**الدّنيا**»، وغيرها من المجلاّت المشرقيَّة، فكان كثيرًا ما طلب بإلحاح من أستاذه أبي اليقظان أن يوافيه بها، حريصًا على اقتناء كلِّ أعدادها، فكان يتأسَّف أسفا شديدًا إذا ما انقطع أحد أعدادها عنه، أو تخلَّف عنه بانقطاع البريد الأسبوعي لسبب أو لآخر.

«... إنَّني بقيتُ وحيدًا محتاجًا إلى المؤانسة، وإلى من يطرفني بالأشياء، ويشاركني في السرَّاء والضرَّاء، محتاجًا إلى ما عندَكُم من تحائف الشّرق، غير «الرّسالة» أو «كلُّ شيء»، فلا تظن أنَّنا نستغني عنها ونزهد فيها، فإنَّ رغبتنا منها هي هي، ولا يأتينا من تونس غير تينك المجلّتين بالفلوس العزيز... إنَّنا نترقَّب بريد اليوم بفارغ صبر، مساكين نحن مساكين، ومن أولى منَّا بالعطف والرّثاء؟». رسالة مؤرَّخة بـ 25 شوَّال 1354 هـ جانفي 1936.

ومن رسالة أخرى وجَّهها إلى أستاذه أبي اليقظان، وهو في بسكرة قادما إلى القرارة «... نرجو لك رحلة مباركة موفورة النّتائج، ميسَّرة الأسباب، فاملأ وطابك منها فنحن في عزلة تامَّة عن العلم، وجدُّ متعطِّشين إلى ما ينقع غلتنا، وإن عثرتَ في طريقك على بعض تحائف من مجلاّت مصوَّرة وغيرها فلا تضنَّ بها عنَّا». (15 مارس 1940).

وتَفتُّح ذهن الشّيخ عدُّون لا يقف به عند حدود الاطّلاع على مجريات الأحداث من حوله، أكانت أحداثا محليَّة في إطار الوادي وفي الإطار القطري، بل كان يهتمُّ اهتمامًا شديدًا بمجريات الأحداث في العالم الإسلامي والعربي، من منطلق الغيرة على هذا الوطن الواسع الذي كان يعاني منه الاستعمار

الغربي، فكان يمدُّ ببصره إلى ما يجري فيه ويحرص على مشاركة إخوانه هناك.

من رسالة مؤرَّخة بـــ: 20 رجب 1350 يقول:

« قرأنا فصلكم في النّور، وقبل ذلك قرأتُ فصل شكيب في الجامعة، فاستغربتُ كثيرًا من هذا الإجحاف المخلِّ في فصلٍ ألمَّ فيه بجميع أدوار الحركة وأسبابها ونتائجها، فإنَّ مكانة شكيب أرسلان في العالم العربي، وقلمه المعروف لم يمنعاه من أن يقول رأيه في مقاله بكلِّ صراحة فيما رآه استنقاصًا من حقِّ الوطن العربي وحركاته القوميَّة آنئذ ».

ويقول من رسالة مؤرَّخة بـــ: 5 جويليت 1937:

« لقد ابتهجنا من (الفتح) تقريضه للأمَّة[1] لما نشرته في عددها الممتاز...

استحسن أن تعتنوا بتلخيص أخبار العالم الإسلامي، فإنَّ للقرّاء شوقًا إليها كثيرًا وخصوصًا أحوال فلسطين، فقد اشتهرت جريدتُنا دون جرائد الشّمال الإفريقي بالاعتناء بها والعطف عليها، ونالت بذلك سمعة طيِّبة في الشّرق ».

قد دفعته روحه المتفتِّحة الغيور هذه إلى أن يكتب رسالة لأحد الكتَّاب المشارقة « علي محمَّد الجمالي » ردًّا على مقال نشره بالأمَّة، فأرسل إليه رسالة شكر من القرارة، مؤرَّخة بـــ 18 ذي الحجَّة 1355 هـــ [مارس 1937] جاء فيها ما يلي:

---

1 ــ كانت هناك صداقة حميمية بين الشّيخ أبي اليقظان ومحبِّ الدّين الخطيب الدّاعية الإسلامي الشّهير؛ وهو صاحب (الفتح) و(الزّهراء) المشهورتين الصّادرتين بالقاهرة، وكثيرًا ما أعادت (الأمَّة) نشر مقالاتها ولاسيّما فيما يتعلَّق بمحاربة التّنصير.

«... نرحِّب كثيرًا بأمثال هذه الفصول الرّائعة الموافقة لمشرب جريدتنا، التي لم نؤسِّسها إلاَّ لخدمة العرب والمسلمين أينما كانوا، كما نرحِّب بكلِّ ما توافونا به من نفثات قلمكم البليغ، فما أشوقنا وأشوق قرَّاءَنا إلى أخبار تلك الدّيار النّائية، ونستقبل كلَّ ما يأتينا منكم بالبشر والارتياح...».

6 ــ ذائقةٌ أدبيَّة ونقدٌ صريح:

من خلال ما رأيناه سابقًا من شغف الشّيخ عدُّون بمطالعة الكتب والمجلات الأدبيَّة، يتجلَّى ذوقُه الأدبيُّ الرّفيع، الذي ينهل من منابع أمَّهات الكتب، التي كانت من مقرَّرات الدّراسة ومناهجها في تلك الفترة المزدهرة؛ فهو يُشير في إحدى رسائله إلى الشّيخ أبي اليقظان بأنَّ الشّيخ بيُّوض أضاف إلى منهج دراسة الطلاَّب بمعهد الشّباب كتبًا جديدة هي: «المغني اللبيب» لابن هشام، و«الأمالي» لأبي علي القالي، و«دلائل الإعجاز» للجرجاني[1]. إضافة إلى حِرص الشّيخ بيُّوض على قراءة المجلاَّت الثّقافيَّة، بل على إقرائها على طلاَّبه مثل «الرّسالة»، و«الفتح»، و«الشّباب»، وغيرها. وكان الشّيخ عدُّون يحضر هذه المجالس كلِّها مع تلامذته.

ومن يقرأ رسائل الشّيخ عدُّون، لا يفوته الوقوف على عنايته الفائقة بالتّعبير الأدبي الرّفيع، حتَّى في عرضه لبعض الأحداث اليوميَّة، وتناوله للقضايا العاميَّة، فهو قلَّما استخدم مفردات غير فصيحة إلاَّ عندما يكون الأمر متعلِّقا بالأسلوب، أو بما يفرضه المقام؛ كأن يكون في المقام دعابة ساخرة، أو نكتة

1 ــ رسالة مؤرَّخة بـــ: 21 محرَّم 1355 هـــ موافق [أفريل 1936].

اجتماعيَّة، عندها يكون استخدام المفردة ذات الطابع العامِّي توظيفًا مقصودًا، يكمل المنهج الرّفيع الذي ألزم نفسه على اتِّباعه ومراعاته.

يقول من رسالة مؤرَّخة بـ 21 محرَّم 1355 هـ [أفريل 1936]، تعليقًا على رائعة الشّيخ أبي اليقظان «**يا من يحنُّ إليكِ فُؤادي**»[1].

«... لقد شنَّفتَ أسماعَنَا وأطربتنا بذلك النّشيد البديع، معنى ومبنى ولحنًا، فجاء كاملاً من كلِّ جهة، فلا غروَ فقد صاغته قريحة ممتلئة شعورًا فياضةً غيرةً وإحساسًا، فذابت فيه نفسه ذوبانًا، وامتزجت بحروفه امتزاجًا، ولقد وصل من نفوسنا ومجالسنا ومحافلنا محلاًّ لائقا بمكانته السّامية، فلا زالت نبعًا فيَّاضًا للإحساس الوطني، ولا زالت ماءً زلالاً تسقي النّفوسَ القاحلةَ من هذا الإحساس، وتُفعِمُ القلوبَ النّاضبةَ من ماء الغيرة...».

وذائقته الأدبيَّة الرّفيعة لا تقف به عند حدود الإعجاب، الذي قد يكون وليد احترام وتقدير لأستاذه، بل يأتي من خلال قراءة أدبيَّة متعمِّقة، وتذوّق لمكامن القوَّة في القصيدة أو المقال فكرةً وأسلوبًا؛ وذلك ما نلحظه في رسالة بعث بها إلى شيخه أبي اليقظان، مُبديًا رأيه حول قصيدة، كان الشّيخ أبو اليقظان قد شارك بها في مهرجان جمعية العلماء المسلمين، بمناسبة تبرئة الشّيخ الطيِّب العقبي مـــــمَّا اتُّهم به من أعدائه[2]. ولم يمنعه إعجابُه وتقديرُه

---

1 ــ نشر هذا النّشيد لأوَّل مرَّة بجريدة الأمَّة بعنوان: «**هل تشعرين يا بلادي؟**» ع 68 (1936/03/31) بإمضاء (أنا).

2 ــ تُراجَع القصيدة التي أُلقيت بنادي التّرقِّي بهذه المناسبة يوم 12 جويلية 1939. وقد نشرناها بديوان أبي اليقظان، الجزء الثّاني ص 39. تحت عنوان «**الله أكبر حزب الله قد عظما**» نشر =

لأستاذه الشّاعر أن يُبدي رأيه في القصيدة، وقد لاحظ ضعف شاعريَّتها، ولكن بأسلوب مهذَّب راقٍ، يقول:

«... جاء جوابُكم للأستاذ (الشّيخ بيُّوض) وبطيِّه القصيدة، وصادف وجود الأخ عبد الرّحمن (بكلّي)([1]) هنا، وقرأناهما معًا، وقرأنا القصيدة إذ ذاك قراءة عجلى، ثـــــمَّ أعدنا قراءتها في جمعيتنا نحن بإمعان ونظر، فأعجبنا بوقعها الجميل في النّفوس، وبإصابتها المحز، وإلمامها بالموضوع، وإحاطتها بكلِّ ما يقتضيه المقام إحاطة حكيمة، حازمة، أبيَّة، غير أنَّ روح الشّاعريَّة فيها ضعيفة، على خلاف ما نعهد في شاعريَّة أبي اليقظان، فهل تراكمت عليها أصداء الإهمال وعدم التعهُّد بالجلاء والصّقل؟

إن كان كذلك فيجب صقلها بين آن وآخر ببعض الرّوائع؛ حتَّى تظهر أشدَّ مضاءً ونصاعةً، ولقد أحسنتَ الإحسانَ كلَّه، ورفعت رأس الأمَّة عاليًا أمام الأمَّة الجزائريَّة؛ باهتدائك إلى صوغها وإلقائها في ذلك المحفل الحاشد الرّهيب، ففضلُك العظيم علينا لا يُقدَّر، ولا يقابل الوفاء، فبارك الله فيك وفي مواهبك الجليلة...».

وقد كان حريصًا على أن يُبدي رأيه في كلِّ ما ينشر بجرائد الشّيخ أبي

جمعية التّراث 1989.

[1] – الشّيخ عبد الرّحمن بن عمر بكلّي (البكري) (1901 – 1986م) أحد أركان الإصلاح في الجزائر بعامّة ووادي ميزاب بخاصّة، أحد أعضاد الشّيخ بيّوض في جهاده الإصلاحي. والشّيح أبي اليقظان في جهاده الصّحفي. والشّيخ عدّون في جهاده التّربوي. هو فقيه ومؤرّخ وتربوي وشاعر وأديب. (م.ن.ب).

اليقظان، من قصائد ومقالات، فإذا لاحظ ما يستحقُّ التّنويه والإشادة نوَّه وأشاد، وإذا لاحظ فسادًا في المعنى أو ركاكة في الأسلوب انتقد بكلِّ صراحة ونزاهة، يقول معلِّقا على قصيدة لحمُّو بن محمَّد (النّوري)([1]) منوِّها بشاعرية صاحبها، متفرِّسا فيه، شاعرًا موفقًا إن واصل درب التّعليم والكتابة ولم ينقطع عن مسيرته العلميَّة، فِعْلَ الكثير من أبناء الوادي، الذين سرعان ما تلتهمهم الحياة الماديَّة، فتبعدهم عن الميدان الأدبي والعلمي، يقول:

«... أعجبتني قصيدة حمُّو بن محمَّد التي تفيضُ شعورًا[2]، وتُنْبِئ عن شاعرية أصيلة، فبارك الله في أنفاس ناظمها، فليت شعري كيف يكون مستقبلُ هذا الشّاعر الفتيِّ الذي يُرفرف النّبوغُ على رأسه؟ فهل يستمرُّ في الورود من منهل العلم فيتوَّج به، أم يكون نصيبه نصيب من تقدِّمه ممَّن اقتُطِفَ فجًّا، فما انتفع ولا نفع؟!».

وبقدر ما كان يُبديه من إعجاب بالنّبغاء من التّلامذة، كان لا يثنيه مقامُه من أستاذه أن يبدي رأيه فيما تنشره جرائده من نقد صريح، وقد يكون لاذعًا قاسيًا أحيانا، إذا كان يمسُّ اللّغة العربيَّة الفصحى، أو يَزري بمقام الجريدة، وذلك ما نقرأه في إحدى رسائله إلى أستاذه حيث يقول:

---

[1] – الأستاذ حمّو بن محمد عيسى، بالمعروف بالنّوري (ت 1992م) مؤرّخ وشاعر وكاتب. له الفضل في جمع جزء من تاريخ الجزائر في كتاب من عدّة مجلّدات بعنوان: " دور الميزابيّين في تاريخ الجزائر قديمًا وحديثًا الدّينية والسّياسية والعلمية من سنة 1505 إلى 1962م ". (م.ن.ب)

2 ــ نشرت هذه القصيدة بجريدة الأمَّة ع 67، (1936/3/25) تحت عنوان: «الكون وربيع سنة (1936)»، وقد أصبح حمُّو بن محمَّد النّوري شاعرًا ممتازًا، وله ديوان شعري ضخم (مخطوط) يتميَّز برقَّته وحداثته.

«... قد تظهر بعض المقالات تزري بمقام الجريدة كمقالة [فلان]... ركيكة الأسلوب فاسدة التّراكيب، والمعاني والجمل والمفردات، فهذه إمَّا أن تُنقَّح وتُحوِّر، وإمَّا أن تُلقى في سلَّة المهملات، فالجريدة أرفعُ أن يتَّسع صدرُها لمثلها...»[1].

ويقول من رسالة أخرى في الاتِّجاه نفسه:

«... وأستحسن أن تعتنوا بتصحيح كتابة (معروف)[2]، فقد وردت في المقال السّابق كلمات عاميَّة، وتعابير ركيكة، تترفَّع عنها الجريدة ».

رسالة مؤرّخة بِـ 5 جوليت 1937.

وحرصه على المستوى الرّفيع للجريدة هو الذي يجعله يؤكِّد ويلحُّ دومًا على أستاذه بأن يصحِّح له مقالاته، بعد أن يكون قد عرضها على شيخه بيُّوض، كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

7 – روح الدّعابة والتّفكُّه:

على الرّغم من التّقدير العظيم، الذي كان يحمله الشّيخ عدُّون لأستاذه أبي اليقظان، فإنَّ هذا لم يكن يمنعه أن يخرج عن إطار المتزمِّت الوقور إلى إطارٍ من الدّعابة الحييَّة المحتشمة، التي تدخل في إطار الظّرف والتّفكُّه الذي طالما عرفت به مجالس المشايخ، ولا سيّما إذا كانت الجلسة حميميَّة بين الأصدقاء، أو حتَّى بين الأستاذ وطلاَّبه، ولا سيّما لدى الطّبقات الدّراسيَّة العليا. وقد عُرف

---

1 ــ رسالة مؤرَّخة بــ : 9 ذي القعدة 1354 هــ [1936].

2 ــ يراجع الأمَّة ع 126 (1937/6/27).

الشّيخ عدُّون في الأوساط الأدبيَّة والثّقافيَّة بحبّ النّكت الظّريفة، يَطرب لها ويتفاعل معها، ويهوى سماعَها، وأحسب أنَّ ذلك ما يستوجبه الودُّ الصّافي، والمحبَّة التي تكون بين الأب وبنيه في نوع من الإحماض والتظرُّف، الذي يروِّح عن النّفس حتَّى لا تكلَّ ولا تملّ، أكان ذلك في مجالس الدّراسة أو من خلال المخاطبات الكتابيَّة.

وقد يكون محلُّ الدّعابة والتّفكُّه شخصًا أو صديقًا، عُرف لدى الجماعة بروحه المرحة المتبسِّطة؛ مثل السيِّد «تعموت عيسى» رفيق الشّيخ أبي اليقظان، وصديقه الحميم في مسيرته الصّحفيَّة. ومن ثُمَّ تجد أخبار السيِّد تعموت عيسى وأخبار لقمان الحكيم وغيرهما من إخوان الصّفاء ترِد من حين لآخر في هذه الرّسائل. ولنأخذ لهذا مثلا ما جاء في إحدى رسائل الشّيخ عدُّون إلى أستاذه حيث يقول:

«... أمَّا الأخ تعموت الذي يريد أن يُقَرْقِشَ إلينا بدعوى الاستحمام في الرّمل، فإنَّ الرّمال هذه السّنة باردة جدًّا لا تصلح للاستحمام على قلّتها، بحيث لا يمكن الاستحمام بها، فإنَّ الرّياح والزّعازع المتوالية في هذه السّنة جوفيَّة، وألقت الرّمال كلَّها في (تقرت) (ووادي سوف)، فاقترح عليه أن يحجَّ إليها وسيشفيه الله...»[1].

ويقول معتذرًا عن تأخُّره في الكتابة، مقدِّما ذلك في أسلوب ظريف

---

1 ــ رسالة مؤرَّخة هكذا (13 جوليت، دون ذكر السّنة) غير أنِّي أقدر حسب بعض القرائن الواردة بالرّسالة أنَّها تعود إلى بداية الثلاثينيات أي حوالي (1935) وما قبلها.

وطريقة متفكِّهة:

«... سيّدي آسف جدًّا أن أوجِّه إليك هذا المكتوب هزيلاً فارغًا، غير مشفوعٍ بفصل كالعادة، ولقد حرصتُ كثيرًا على إرساله كاملا، وأخَّرته طويلا لأجل ذلك، فأبى لي تساوفي وتثاقلي وفلول إرادتي إلاَّ أن أخيّب في رجائي، فرأيتُ أن أكتب هذا الكتاب الفارغ، إيصالا لما انقطع، وتنبيهًا على أنّني حيٌّ أُرزَق، فهذا خيرٌ من مدِّ حبل التّسويف، والاستمرار على الإعراض والسّكوت المطلق الدّالين على عدم الاكتراث في الظاهر، والعياذ بالله...»(1).

ومِمَّا جاء في إحدى رسائله لأستاذه، وقد بشَّره بقرب مقدمه إلى القرارة بعد طول غياب، يقول: « بلغني جوابك القصير المبشِّر بقدومك، فكان بشارة عظمى طال شوقنا إليها، عجَّل الله تحقيقها... غير أنّه يسرّ أن تجد الغيث مستهلا ليتيسَّر لنا أن نجد معك ليالي ساهرة هانئة، وإن كانت قلقلة [كذا ولعله: قليلة] بالنّسبة إليك، فعجِّل بالقدوم على كلِّ حال ولا تخشَ شيئًا، واطلب حظَّك ونحن نطلب حظَّنا لنرى أيُّهما الغالب...»(2).

8 – الخصائص الفنِّـــــيَّة:

يمكننا إجمال الخصائص الفنِّية، التي تتميَّز بها رسائل الشّيخ عدُّون بما يمكن أن نطلق عليه (التّنوُّع) في رسائل تحتوي على جوانب مختلفة من الأغراض؛ إذ

---

1 ــ رسالة مؤرَّخة بـــ: 25 جمادى الثّانية 1354 هـــ [1936].

2 ــ رسالة مؤرَّخة بـــ: 10 مارس 1940.

تجمع غالبا بين الخبر، والحدث، والتّحقيق الصّحفي، والمطالب والحاجات، ومن ثـــــمَّ يأتي أسلوب كتابتها متَّسما بالإحاطة والشّمول والتّفصيل، وبيان الجزئيات. يُشعرك أسلوبُها وطريقتها برغبة كاتبها في أن يكون مرآة صادقة عاكسة للواقع المعيش، وتلك هي الرّوح السّائدة في رسائل الشّيخ أبي اليقظان إلى الشّيخ عدُّون أيضًا.

وسيلحظ القارئ الكريم هذا التنوُّع من خلال فهرست سنخصِّصه في آخر البحث لأهمِّ الأخبار والأحداث والتّحقيقات، التي سنستخرجها من جملة هذه الرّسائل.[1]

ولعلَّ من تمام الفائدة أن نقدِّم هنا بعض الأمثلة والنّماذج للتنوُّع المشار إليه سابقا:

الوصف الدّقيق أو التّحقيق الصّحفي يتجلَّى في عرضه لبعض الأحداث الكبرى، سواء أكان طابعها دينيًّا أو اجتماعيًّا أو اقتصاديًّا، ولا سيّما إذا كان هذا الحدث درسا من دروس الشّيخ بيُّوض في المسجد، مِمَّا يجعل الشّيخ عدُّون حريصًا على أن يقدِّم خلاصة وافية للدّرس بكلِّ عناصره، حتَّى يجعل أستاذه أبا اليقظان وكأنَّه حاضر في تلك الدّروس.

من ذلك ما جاء في وصفه لدروس قام الشّيخ بيُّوض بإلقائها في رحلة إلى بريان، دامت أسبوعًا، وشهدت أحداثا إصلاحيَّة كبرى حيث يقول:

---

1 ــ انظر الهامش رقم (07)، في الصّفحة الرّابعة من هذا البحث. [لجنة التّحرير]. هذه الإشارة هي في صفحة: 120 من مجلّة الحياة، العدد التّاسع، الهامش رقم: 7. (م.ن.ب).

«... وألقى عليهم الأستاذ درسًا في الاتِّحاد ووجوب التّرابط، وإزاحة كلِّ حاجز يؤثِّر في هذه الوحدة، ومن ذلك وجوب مراعاة ميزاب حوزةً واحدة، والأخذ بقول من يراها وطنًا واحدًا، يجب فيه إتمام الصّلاة، وبَسَطَ الموضوعَ بسطًا وافيا شارحا كلَّ إشكال، وناعيا على الذين أثاروا الضّوضاء من جرَّاء هذه المسألة حسَدًا من عند أنفسهم، فاقتنع القومُ أيّما اقتناع بوجهة نظره، آخذين بقوله، عازمين على تطبيقه، وطلبوا منه بعد ذلك إلقاء بعض الدّروس في الجامع بين صلاتي الظّهرين والعشائين، وشرع في التّنفيذ منذ أوَّل يوم شارحا حديث «بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ»، وكانت الأربعة الدّروس الأولى في الرّكن الأوَّل في التّوحيد، وما يؤثِّر فيه من زيغ في العقيدة من دعاء الأموات، وإشراك غير الله في العبادة وبِدع المقابر، وكان الدّرس الأخير في مسألة القراءة على الأموات، فكان قريبا من درس ليلة عاشوراء [بالقرارة] والقوم يُصغون إليه في جميع دروسه بكلِّ نَهَم وشغف، ويتلقَّونه بالإذعان والقبول، فكان لها وقعٌ عظيم في نفوسهم... فكأنَّهم فتحوا فتحًا جديدًا، أو خرجوا إلى عالم جديد لا عهد لهم به...»[1].

ومن رسالة أخرى يتناول بالأسلوب نفسه هذه الرّحلة، التي كان من جرَّائها تطوُّرات خطيرة أخذت بعدًا سياسيًّا واجتماعيًّا خطيرًا، دفعت بالسّلطة الفرنسيَّة الحاكمة إلى استدعاء الشّيخ بيُّوض إلى غرداية، واستجوابه، والتّضييق عليه، وأمره بالعودة إلى القرارة في أوَّل سيَّارة، بدعوى أنَّه مشوِّش يثير القلاقل والنّزاعات:

---

1 ــ رسالة مؤرَّخة: بريان، ماي 1935م [1354 هـ]

«... تعَّرض الأستاذ في دروسه الأولى في تصحيح العقائد إلى ما يعتقده العامَّة في الأولياء من النّفع والضّرّ، وإلى تمسُّحهم بالقباب والتّقرُّب بها، والذّبح لغير الله، إلى غير ذلك مِمَّا يؤثِّر في العقيدة، وأنكر على من يبني القباب ومن يُجصِّصها مستقبلاً، وما أكثر ذلك في بريَّان، وغضَّ النّظر عمَّا هو موجود منها، وعن بانيها قائلا: تلك أمَّة قد خلت. كما أنكر ما يجعلونه على القبور من حزمات الجريد، والشِّنن البالية والقرع والحجارة، الأمر الذي صيَّر المقبرة مزبلة... وبعد يومين من ذلك أصبحت بضع قباب مهدَّمة، فثارت العامَّة، أو قُل الرّأي العام وهاجت الجماعتان [العزَّابة، والضمَّان] وماجتا، وذهبتا إلى القائد ترعدان وتبرقان، وتطالبان باستعمال كلِّ وسيلة في إظهار هؤلاء المجرمين الظّالمين، الذين فعلوا هذا بآلهتهم...» [1].

ونقرأ في الاتِّجاه نفسه وبالأسلوب عينه رسالة أخرى، يصف فيها تأثير درس عاشوراء على الرّأي العام القراري وفحواه ومغزاه، وما كان له من أثر في نفوس الحاضرين بالمسجد وغير الحاضرين، في موضوع له مساس بالعقيدة وهو: « القراءة بالأجرة على الأموات »:

«... درسُ عاشوراء له صدى كبير، ووقع عظيم في النّفوس، وإنَّه وجد رؤوسا متعطِّشة إلى ارتواء الحقيقة فأرواها، ونقع غُلَّتها، فكان إرشادًا من حيرة،

---

1 ــ رسالة ضافية من خمس صفحات مؤرَّخة بماي 1935م. ومنذ هذه الحوادث اقترح حاكم غرداية العسكري على حاكم الأغواط أن يطلب من الولاية العامَّة بالجزائر بتسجيل اسم (بيُّوض إبراهيم) في دفتر (ب) وهو خاصّ بالمشوِّشين والمضادِّين للحكم الفرنسي في الجزائر. (ينظر كتابنا "الشيخ بيُّوض مصلحا وزعيما (قسم الوثائق).

وهدى من ضلال، أزال كلَّ شكٍّ وأوضح كلَّ شبهة، وجاءت الحجَّة تتبختر اتِّضاحا، أوضح لهم منشأ المسألة ودرس (الشّريف)[1]، وكيف استثمره دعاة الفتنة لبذر الشّقاق، وأن لا رائحة للبراءة المشاعة[*]، هذا كلُّه بعد أن سرد أدلَّة، لا تقبل النّقض في إبطال القراءة بالأجرة من الحديث وكتب الشّيخ اطفيَّش، والشّيخ السّالمي، وشرَحَها شرحًا شافيًا، وقد فهمها جميع النّاس فهما جيِّدا، إلاَّ من طمس الله على بصيرته، ممَّن في قلوبهم مرض من الكاديشونيين[2] ومن لفَّ لفَّهم من بعض قدماء التّلاميذ، الذين يخافون انقطاع (خُبْزتهم) من هذا المورد، وهم في أقليَّة بحيث لا يُسمع لهم همس...»[3].

9 ــ التّفصيل والشّمول:

حرص الشّيخ عدُّون على أن ينقل لمراسله وأستاذه الصّورة بكلِّ جزئياتها وتفاصيلها، وكأنَّه يراها مجسَّدة بعينه، يجعله يتناول تفاصيل الشّيء وأبعاده بكلِّ صغيرة وكبيرة فيه حتَّى أنَّ القارئ يتساءل أحيانا، وما الذي يضيره لو أنَّه غفل عن هذه الجزئيات؟ ولعلَّ جواب ذلك نتلمسّه من خلال أنفسنا، عندما نكون في غُربة، وتأتينا رسالة من الأهل، فإنَّ الواحد منَّا ليتمنَّى أن لا تنتهي الرّسالة من ذكر التّفاصيل والجزئيات، ولا سيّما إذا كان موضوع

---

1 ــ الإشارة هنا إلى زعيم المعارضة.

* ــ الإشارة هنا إلى ما أشيع بأنَّ عزَّابة وادي ميزاب أعلنوا البراءة من الشّيخ بيُّوض لآرائه ومواقفه.

2 ــ لم نفهم ما دلالة هذه الكلمة.

3 ــ رسالة مؤرَّخة بـــ : 25 أبريل 1935م [محرَّم 1354 هـــ].

الوصف أو الحدث أمرًا يتعلّق بمن تحبُّ من الأهل، والولد، والوطن، والصّديق.

من هنا نفهم حرص الشّيخ عدُّون على تناول الأشياء بمثل هذا الأسلوب. وبما أنَّ الأمثلة كثيرة فإنّي أكتفي بمثالين أو ثلاثة.

المثال الأوّل:

يستعرض فيه الشّيخ عدُّون حملة وادي زقرير إلى القرارة، بعد أن مرَّت على القرارة سنوات من القحط القاسي المميت، حتَّى إنَّ النّاس بلغ بهم اليأس مبلغًا عظيما[1]. وبقدر ما كان جزعُ النّاس من القحط أليما، بقدر ما كان فرحهم بالخصب وزيارة وادي زقرير عظيمًا، وهو ما يفسِّر اهتمام الشّيخ عدُّون بذكر التّفاصيل حيث يقول:

«... شرع النّاس في قطع التّمر وكادوا ينتهون. الماء لا يزال على حاله في الغابة لم يظهر من المصارف في (النّوادر) غير نحو بوصتين أو ثلاث. الماء في دكاكين النّاحية الغربيَّة يصل إلى نحو الإبط وأقلّ وأكثر. لا تزال النّاس منهمكة في الحرث داخلا وفي الصّحراء. جاء واد ثالث منذ نحو عشرة أيَّام، فزاد في الغابة نحو 15 سنتيما، وإلى الآن لم يترل إلى الحدّ الذي وصل إليه القديم، وسيضطرُّون إلى إخراجه من الغابة وإلاَّ وخمت، ولكن ما الحيلة

---

1 ــ رسالة مؤرَّخة بـــ: جمادى الأولى 1354م [أوت 1935] يقول فيها وصفا لهذه الحالة: «الأنظار مشرئبَّة إلى زقرير يسقي الأرض القاحلة، والآبار المعطَّلة، والنّفوس الصّادئة، والقلوب الآيسة، وقد بلغت الرّوح التّراقي، وصارت عند الغلصمة...».

و"الشّيحيَّة" الخارجيَّة لا تزال على حالها، ولم تتزل عن مستوى الغابة إلاَّ بشيء قليل. كثرت هذه الأيَّام الأرياح والزّوابع ولم تُحدِث أيَّ ضرر يذكر...»[1].

المثال الثاني:

يتناول فيه الشّيخ عدُّون الحالة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والأمنية أثناء الحرب العالميَّة الأولى، إذ يركِّز على الجانب الاقتصادي والمعيشي اليومي في القرارة حيث يقول:

«... الأحوال عندنا هادئة مطمئنة، ليس عندنا ما يكدِّر، ولم يكن أثر للحرب عندنا إلاَّ ستَّة عشر جنديًّا جاؤوا أخيرًا للاحتياط، وهم مرابطون في دار (البايليك)، وإلا نقصان بعض المواد وفقدانها كالسّكَّر، وما سوى ذلك فالحالة قبل الحرب هي هي اليوم، والذي زاد القلوب اطمئنانًا وسكونًا توارُد القوافل يوميًّا، تحمل عشرات القناطير زرعًا، ويدخل غالبا في السّوق ما لا يقل عن 100 قنطار قمحًا وشعيرًا، ولا يبقى في العشيَّة منه شيء، ويُحجَّر على من يشتري للخارج. سعرُ الشّعير من 9 إلى 11 (للقلبة) والقمح من 29 إلى 33، ولولا أن فتح الله علينا بهذه القوافل التي لم تُعهد منذ عشرات السّنين لكنَّا في ضائقة شديدة، لا يعلمها إلاَّ الله، نظرًا لانسداد أبواب التّلّ، وضغط (التّاكسي). والحمد لله على نعمه...»[2].

---

1 ــ رسالة مؤرَّخة في 30 أوت 1937.

2 ــ رسالة مؤرَّخة بـــ: 23 شعبان 1358 هـــ [1939].

المثال الثّالث:

ويتناول فيه عرضًا دقيقا مفصّلا عن دروس رمضان في المسجد بصفة عامّة، ويركّز على درس ليلة العيد ويومه وأمسيته. وإذا كان في المثالين الأوّلين يعتمد على ما تلتقطه العينان، فإنّه في هذا المثال الأخير يعتمد على ما تلتقطه الأذنان ويستوعبه الفكر والجِنَان، حيث يُلخِّص درس الشّيخ بيُّوض في هذه المناسبة الدينيَّة العظيمة قائلا:

مضى رمضانُ على أحسن ما يرام، من دروس المسجد في تفسير «عبدُه» من «عمَّ» إلى «الغاشية»، مع خلعه الثّغرات في كثير من الأحيان إلى الميدان الذي يبدع الجولان فيه، إلى أن كان اليوم الأخير، فكان ممتازًا بوعظه الممتاز من بارحته إلى مسائه، فمن درس بديع ليلة العيد في تزكية النّفس في قوله تعالى: ﴿قَدْ اَفْلَحَ مَنْ تَزَكّٰى﴾ (الأعلى: 14) فأظهر نتن النّفوس الدّنسة وأطال في الموضوع. ودرس آخر بعد ختمة السَّحَر من صبيحة العيد في عمارة المسجد، وفي الطّلبة الذين لا يعرفون المسجد إلاَّ في رمضان، وفي عدم محافظتهم على القرآن قولاً وعملاً. ودرس في تفسير سورة «الغاشية»، وتسرّب منه إلى من يهجر المسجد حتَّى في يوم العيد، ويأنفون من غشيانه، والوقوف جنبا إلى جنب مع عمَّاره، فهم يسعون إلى مجالسة الفسَّاق والسكِّيرين والقمَّارين، بتزلُّف الحكَّام إلى رؤسائهم، وبتجنّب المسجد وكلِّ ما يتَّصل بالدِّين، وهم يعلمون أنَّ حكَّامهم أنفسهم يُكبرون الأماكن المقدَّسة، ويتباهون بعمارتها الخ الخ... فكان الدّرس قاسيًا على حكَّامنا المساكين، ودرس عشيَّة العيد في وجوب المشاركة في الأعمال الوطنية بكلِّ الوسائل.

وفي اللّيل سهرة ممتعة في دهليز الأستاذ، حضر فيها كلُّ من تتمنَّى أن يحضرها سواك... عوَّض الله لك بخير منها في القريب، وبالمجالس الدّائمة في دار الخلد...»[1].

وبالأسلوب نفسه نقرأ له عدَّة رسائل في موضوعات ذات طابع سياسي، ولا سيّما تلك التي تتناول الصّراع المرير بين الإصلاحيّين والسّلطات المحلية الموالية للاستعمار من قيَّاد، وقضاة، وموظَّفين وغيرهم[2].

10 ــ المشاعر والمطالب:

بحكم العلاقة الحميمة التي ربطت بين الشّيخين أبي اليقظان وعدُّون، فإنَّ رسائلهما المتبادلة لتُلمَسُ فيها هذه المودَّة العميقة بينهما، وإنَّها لترقى إلى أخوَّة أصيلة، وصداقة مستديمة، لم تشملهما وحدهما بل تطوَّرت إلى أن تصبح علاقة أسريَّة ومحبَّة عائليَّة. ومن ثمَّ نلاحظ كيف أنَّ الحواجز (البرتكوليَّة) ــ التي قد تكون أحيانا بين التّلميذ وأستاذه، أو الشّيخ ومريديه ــ لم يعد لها وجود في هذه الرّسائل إطلاقا، على أنَّ مسحة الاحترام والتّقدير بين الرّجلين ظلَّت تغطِّي هذه العلاقة، وتضفي عليها هالات من الوقار والجلال.

وأحسب أنَّ العمل الإصلاحي، والميدان الصّحفي، والمجال التّعليمي والأدبي

---

1 ــ رسالة مؤرَّخة بــ: 03 شوَّال 1358م [1939].

2 ــ تراجع مثلا: رسالة مؤرَّخة بــ: فاتح محرَّم 1354 هــ. عند تنصيب خليفة جديد بالقرارة، وما جرى حول ذلك من صراعات

كان له دور أساسي في هذه الرّابطة المتينة، التي دامت بين الشّيخين إلى أن فرَّق بينهما الموت.

والذي يتتبَّع هذه الرّسائل، ولا سيّما المرسلة من الشّيخ عدُّون إلى الشّيخ أبي اليقظان، يشعر بهذا الدّفء الحميم الذي يربط بينهما، يتجلَّى ذلك واضحا في المشاعر الفيَّاضة التي يحملها الشّيخ عدُّون لأستاذه؛ وفي النّموذج الذي سننشره ملحقًا بهذا البحث غُنية وغَناء لمن أراد الوقوف على أمثلة واقعيَّة.

ومن أمثلة التّعاون الثّقافي بينهما ما جاء في رسالة مؤرَّخة بِـــ: 13 محرَّم 1359 الموافق 23 فيفري 1940م حيث يقول:

« بلغني كتابكم الكريم وبطيِّه مقالة (للشّباب) [1] الممتاز، فكنتم أوَّل من لبَّى دعوتنا، وخير من وفَّى، فالشّباب يشكركم هذه المرَّة، ويُكبر اهتمامكم به ورعايتكم له، ويسجِّل هذا الشّكر على صفحاته، فحيَّاك الله وبَيَّاك من أب رحيم، وأستاذ مخلص ومرشد نصوح. أمَّا الموضوع فهو «الحلقة المفقودة» في المواضيع؛ وكيف لا يكون كذلك ومُبتكرُه، والمعالج له هو من درس أطوار الشّباب، وسبر غوره، وخبر مكامن الضّعف فيه؛ حقَّق الله آمالكم فيه، ووفَّقه للعمل بإرشاداتكم وآراكم الأصيلة».

وقد اتَّسعت دائرة المحبَّة بين الرّجلين لتشمل أسرتيهما كما أشرتُ؛ فإذا حدث ما يستوجب التّهنئة أو التّعزية[2] أو المساعدة لم يبخل أحدهما على

---

1 ــ الإشارة هنا إلى جريدة الشّباب التي كان معهد الشّباب يصدرها، وهي مشهورة معروفة.

2 ــ رسالة تعزية للشّيخ أبي اليقظان مؤثِّرة بعد وفاة أخيه محمَّد مؤرَّخة بـــ: 10 نوفمبر 1940.

=

الآخر بذلك، وقد لمستُ في هذه الرّسائل ذلك التّعاطف والاهتمام. ولأضرب لذلك مثلا؛ فقد حدث يومًا ما عكَّر صفو الشّيخ أبي اليقظان، من تصرُّف قام به ابنه عيسى في حدود المطبعة العربيَّة، وسافر إلى القرارة، وترك عمله في المطبعة مُغضبًا، فما كان من الشّيخ عدُّون والشّيخ بيُّوض ولقمان إلاَّ أن سارعوا إلى رأب الصّدع، والإصلاح بين الوالد وولده، ودلَّت رسالتان من الشّيخ عدُّون على اهتمامه الكبير، اهتمام يُشعرك أنَّ المسألة تهمُّه شخصيًّا.

وعندما رُزق الشّيخ عدُّون بولده «محمَّد» أخبر شيخَه وبشَّره بطلعة الولد الذي ولد في ربيع الأنوار: « في غرَّة الشّهر الميمون بزغ في سماء جلالتي مولودٌ ميمونٌ سمَّيته محمَّدًا، وأرجو من المولى تعالى أن يوفِّقه لانتهاج منهج سميِّه، وأن يجعله قائدًا لجيش العاملين المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله...» (1).

وما كان من الشّيخ أبي اليقظان إلاَّ أن سارع بإرسال هديَّة إلى صديقه بهذه المناسبة. وكان الردُّ جميلاً رائعًا، لا يدلُّ على الصّداقة الوفيَّة وحسب، بل على فراسة الشّيخ عدُّون في ولده وفلذة كبده، وكيف ربط بين الهديَّة والمُهدِي والمُهدَى إليه بأسلوب أخَّاذ وعبارات مؤثِّرة حيث يقول:

«... كانت هذه الكسوةُ طالعَ سعدِهِ، وشارةَ مجدِه، ودليلَ يُمنه، فافخَرْ بها من حظوة حظِيَ بها في مستهلِّ حياته، وأكرِم بها من كرامة واتته منذ حداثته،

وأخرى في وفاة السّيّد الزّيتون عمر بن إبراهيم بالبليدة مؤرَّخة بـــ: 25 ماي 1956م.

1 ــ رسالة مؤرَّخة بـــ: 15 ربيع الأنور 1354 هـــ [جوان 1935].

فسيعرف لها ــ إذا مدَّ الله في عمره ــ شأنها وخطرها ويقدرها حقَّ قدرها، وسيعرف قيمةَ نفسه ومقامها الممتاز، ويتحقَّق أنَّه محلُّ رجاء وأمل عظيمين، إذا عقل وعلم أنَّ أبا اليقظان في جلاله وشرفه وزعامته ومركزه الأسمى من الأمَّة راعى له ذلك، واعتبره وشرَّفه بهذه الكرامة، برهانا على هذا الاعتبار، فبارك الله فيك، وفي إحسانك وإخلاصك، وحقَّق آمالك، وأمدَّ في عمرك حتَّى ترى آمالك في هذا الكوكب البازغ محقَّقة بأقصى حدودها، وأوسع أطرافها...» [1].

أمَّا ما نعنيه بالمطالب فهي هذه الحاجات الضّروريَّة التي تمثِّل تعاونا وثيقًا بين الرّجلين في ميدان التّعليم والصّحافة بصفة خاصّة[*]، فقد كان الشّيخ أبو اليقظان - بحكم وجوده في تلك الفترة بالعاصمة - محطَّ قضاء حاجات المدرسة، والجمعية، والتّلاميذ، وكانت المكتبة، ثمَّ المطبعة محطَّ ركاب الشّيوخ والأساتذة.

---

1 ــ رسالة تاريخها: 23 ربيع الثّاني 1354 هـ. الولد هو الدّكتور محمد بن سعيد شريفي، الخطّاط الكبير. وقد كتب المصحف الشّريف بخطّ يده عدّة مرّات. فقد أقرّ الله عين الشّيخ عدّون بهذا الولد (الرّجل)، كما دعا في رسالته. فتلك بركة الولد.(م.ن.ب).

* ــ مثل جمع اشتراكات الجمعية من أصحابها. ومثل شراء بعض مستلزمات للمدرسة كالكراريس، والطّباشير، والنشّاف، والإتيكات، والمصابيح، والدويهات، وحتَّى كرة القدم، أي والله كرة القدم في هذا الزّمن المتقدِّم!. وكان السّيّد عيسى تعموت هو المكلَّف غالبا بهذه الأشياء.

ولكي نتصوَّر معاناة هؤلاء المشايخ إبَّان الأزمة الاقتصاديَّة، واشتداد خناق الحاجة أمامهم، يذكر الشّيخ عدُّون في إحدى رسائله أنَّ الأزمة آخذة بالخناق إلى حدِّ (الزَّلْط) وأنَّ (التانبر) [هكذا] الذي أرسل به الجواب، إنَّما أخذتُه سَلفًا من أحد الإخوان!؟ [1].

يقول من رسالة في هذا الصّدد:

«...أين مطالبنا فقد مسَّت الحاجة إليها، فالمدرسة في أزمة شديدة من جرَّاء الأضواء، فقد كادت تنشف أعين الأولاد من رداءتها، وكدنا نعطِّل الدّروس من أجل ذلك، ليكن كلُّ ضوء مصحوبًا ببلارة أخرى للاحتياط، فقد تكسَّرت لنا واحدة فلم نجدها هنا ولا في غرداية، فتعطَّل الضّوء، وكذلك بعض المنشورات، لا تنسى اليوميات وبقيَّة المطالب...» [2].

«...إليكم وصولات الجزائر، نرجو من الأخ تعموت أن يتجوَّل بها لقبضها من أصحابها... وقد انعقد المجلس الإداري ورجا منه أن يقوم بالمهمَّة أحسن قيام، وفي أسرع وقت، فلا يخيّب رجاءه، وليبادر بالقبض من اليوم فإنَّ

---

1 ــ رسالة مؤرَّخة بـ: 7 أكتوبر 1937.

2 ــ رسالة مؤرَّخة بـ: 20 ديسمبر 1939م.

الكيس أفرغ من فؤاد أمِّ موسى.. فأنجدونا من عندكم، فقد قدَّمنا طلبا لنحو عشرين طاولة للمدرسة، وليس عندنا شيء نسدُّ به الطّلب، والنّجَّار يطالبنا أن نسبِّق له شيئًا، وسنضطرُّ لتأخير قسم في المدرسة حتَّى تتهيَّأ (الطوابل) وهذه لا تأتي بغير (قَدُّور) فالرجاء الإسراع...»[1].

1 ــ رسالة مؤرَّخة بـ: 23 شعبان 1358 [1939].

النموذج (1):

نموذج من رسائل الشّيخ عدُّون إلى أستاذه الشّيخ أبي اليقظان

بسم الله الرّحمن الرّحيم وصلى الله على سيّدنا محمد.

القرارة 15 صفر 1352هـ = [أوت 1933م].

أستاذي العزيز، المجاهد ا لكبير، العلاَّمة الشّيخ أبا اليقظان، أيَّده الله ورعاه؛ السّلام عليكم ورحمة الله.

سيّدي استلمت مكتوبك الكريم، فإذا هو نفثةُ مصدورٍ، فرأيتُ فيه موقفَك أزاء الأمَّة وموقف الأمَّة أزاءك، وإن كنتُ لأجهله من قبل، رأيتُ ما تُعانيه من أتعاب تشقُّ المرائر، وما تقاسيه من همٍّ ناصب، في ليل بطيء الكواكب، من جرَّاء أمَّة نبهتك فنامت ملء جفونها، غير حاسبة لسهرك عليها حسابًا. وليس – سيّدي- هذا ببدع من أمَّة لا تزال حاسَّةُ الشعور فيها بالواجب ضعيفة أو مفقودة منها بالمرَّة، كما أنّه ليس ببدع أن تبقى إلى اليوم ضعيفةً أو مفقودة، إذ أنّنا حديثو عهدٍ بهذا النّوع من الحياة، وأوَّلُ نافخ في بوقها هو أبو اليقظان بقلمه ولسانه، وبضعُ سنيه التي قضاها في هذه الدّعوة - بقطع النّظر عن مجهوداته السّابقة؛ إذ هي من نوع آخر- غير كافية لتنمية حاسَّة الشّعور فيها إلى الحدِّ المطلوب، وإنَّ الحياة دبَّت في أُمم الشّرق اليوم، قد نفخ روحها جمال الدّين الأفغاني، منذ

أكثر من نصف قرن؛ فأنت ترى أثر نموّ هذه الرّوح، بعد هـــذه المـــدَّة الطّويلة . وهل الأمَّة الميزابية إلاَّ تلميذة في السّنة الابتدائية، أستاذُها (وادي ميزاب) وخلائفُه؛ فكيف تريد منَّا بعد مضيِّ بضع سنين أن نشعر شعورَ من تتلمذ نصف قرن، في مختلف المدارس، وأن نقوم بما يقوم بـــه مـــن واجبات، أو نقاربه أو نناصفه، فإذا وجدتَ من هذه الأمَّة بعد هذه المدَّة القصيرة من يعرف ما هي الجريدة - بقطع النّظر عن العاملين المخلصين - ويقرأها ويقول لك: أحسنتَ، بارك الله فيك[1].. فأبشر بالنّجاح وناهيك من ربح.

إنَّ أبا اليقظان في أمَّة -تداركها الله - كصالحٍ في ثمود، فلا توحشنَّه غربتُه، فهي شعار النبيّين والصّدِّيقين والشّهداء والصّالحين، وطوبى للغرباء.

إنَّ أبا اليقظان خُلق جنديًّا، وحييَ، وسيحيا إلى ما شاء الله جنديًّا وسيموت جنديًّا، وسيبعث لا جنديًّا، ولكن قائدًا يجرُّ وراءه جنوده من أمَّته، حاملاً راية الجهاد أمامهم.

تساءل أبو اليقظان مع من؟ ولأجل من يعمل؟ نعم هذه الأمَّة النّائمة الغافلة الناكرة للجميل، المستهينة بعظمائها، فإنَّ مثل هذه الأمَّة في ضعفها وجهلها وغفلتها هي التي تحتاج إلى مثل أبي اليقظان في عمله وصبره،

---

(1) ــ يشير هنا إلى مقال صدر بجريدة «البستان» عنوانه: «أي بارك الله فيك» «سخرية ممن يكتفي بالشّكر دون المساعدة الفعلية».

وقوَّة إيمانه وجهاده وغرابته (وغربته)، لو لم تكن أنت إياك وهي إياها لاستغنَت عنكَ، ولتَبَدَّل موقفاكُمَا، وإنَّ من يعلم أنه خُلق ليشقى لتسعَدَ أمَّته، ويُهَان لتعِزَّ، ويبأس لتنعم، ويفتقر لتغنَى، ويتغرّب لتتمدّن، فلا يطمع في راحة أو نعيم، ولا يقول: «ولكن إلى متى؟!» فليدأب، وليصبر، وليرابط، حتَّى يأتي نصر الله ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا ياتِكُمْ مَثَلُ الذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأساءُ والضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حتَّى يَقُولُ الرّسولُ والذينَ معهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ألاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَريبٌ ﴾ (البقرة: 214).

اخْلِقْ بِذِي الصَّبرِ أَن يحْظَى بِحَاجَتِهِ ومُدْمِنِ القَرْعِ لِلأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا

إن من قال عن صدق ويقين، وأثرُ المداد لا يزال رطبًا:

أنتِ يا أزمةُ عُــودِي فَهُنَــــا نفسٌ قويه

تَستَمِدُّ العَونَ والتـــو فِيقَ بالــذَّات العليَّه

لجديرٌ بأن يتحمَّل كل بأساء وضرّاء، وبأن يتحمَّل أعباء الزّعامة، ولا يسأم تكاليفها الشاقَّة، التي تنوء بالعصبة أولي القوّة، وإنَّ نفسًا قوية تستمدُّ العونَ والتّوفيق من الله يستحيل أن يدعها الله تسقطُ في ميدان الشّرف تنشحط بدمها، وإذا فرضنا المستحيل، وإذا أراد الله أن ينتقم من هذه الأمَّة بإسقاط قائدها لا قدَّر الله، فمن واجب هذا القائد أن لا يضع

السّلاح من يديه، وينفضهما آيِسًا من صلاح هذه الأمَّة، إلاَّ إذا بقي وحيدًا في الميدان وانفضَّ من حوله كلُّ ساعد وكل مواسٍ، وإلاَّ إذا انسدَّت أمامه أبواب الرّجاء بعد أن يُعييه طرقُها، وأبو اليقظان القويّ النّفس، المتين الإيمان لم يبلغ هذه الغاية ولا قاربَها والحمد لله، فإنَّ أبواب الرّجاء مفتَّحة على مصاريعها، وإنَّ نصر الله قريب، وحوله مساعدين أقوياء، وعاملين مخلصين، ووراءه جنودًا مطيعة، والله من ورائهم يمدُّهم بقوَّته، ويلحظهم بعنايته.

قوةُ اللهِ إن تَوَلَّت ضَعيفًا تَعِبَت في مِرَاسهِ الأقوياءُ

ولا بأس بالاستراحة، والتربُّص، مدَّة شهر أوشهرين ريثما يصفو الجوّ، وبعد ذلك فلا غنى لنا عن "نبراس"[1] نستضيءُ به في حوالك الخطوب، ونهتدي به إلى سبيل الرّشاد، على أنَّ هذه الاستراحة اعتبارية، وإلاَّ فليس هناك استراحة، وإنَّما انتقال من ثَغرٍ إلى ثغر، ومن سِرجٍ إلى سِرجٍ، إن لم نقل أنَّ أتعاب هذا الأخير من حيث التّحرير أشقُّ من الأوّل؛ ففيه إبداعٌ وأي إبداعٍ، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنَّ أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وكلاهما في المعالي مفرق، وكلاهما ضروريٌّ، فلا الأوَّل يسدُّ مسدَّ الثّاني، ولا الثّاني يسدُّ مسدَّ الأوَّل...

---

(1) ــ الإشارة هنا إلى جريدة «النّبراس» التي كانت تصدر أثناء كتابة هذه الرّسالة خلفًا لجريدة «البستان» ذات الطابع الفكاهي، وقد صدر منها عشرة أعداد.

النّموذج (2):

خلاصة وافية لدرس من دروس الشّيخ بيُّوض في المولد النّبوي لسنة **1354**هـ

...كانت ليلة المولد عندنا الفريدة الزّهراء في سلك الليالي، فقد احتفلنا فيها بالمولد كالعادة، وامتازت حفلتُها عن باقي الحفلات بدرس الأستاذ، بعد أن تَلَونا بعض القصائد، وقام إلى محلِّ الوعظ من سطح الجامع، فتلاَ قصَّة المولد بصوت بهيجٍ، واتبَعَها بدرس استغرق ساعةً ونصفًا، افتتحه بالتّعريف باللّيلة وحكمة احتفالنا بها وشيء ممّا أنعم الله به علينا فيها برسالة خير الخلق، وشيء من معجزاته وفي مقدّمتها القرآن، وبوجوب التّأسِّي به والتزام سنَّته، وهجر كلّ ما ابتدع في الدّين ممّا ليس منه، وتمرين النّفس على قبول الحقّ وردّ الباطل، ثم ذكر شيئا من صفاته ﷺ البارزة ومن صفة الرّجولة، وإنّنا خلوٌّ منها تماما، بحيث لا نجدها في حالة من أحوالنا كلّها، ومن هنا تسرَّب إلى الدّاء الدويِّ، الذي أُصِبْنَا به، وهو الخوفُ والجزعُ والجبنُ أمام صدمات الباطل، والتّقاعد عن إظهار الحقّ. وأعطى في الموضوع بسطة طويلة، ونزل على رؤوس الذين يستمعون لإرجاف المرجفين؛ فيخافون ويهلعون لأدنى إشاعة تلقى إليهم، بينما العاملون لا يأبهون لذلك، مُقدِمُون في مهمّتهم، لا يثنيهم شيءٌ من ذلك؛ لا وعيد من سجن أو

غرامة أو موت، إذ أنّ ذلك طريقة الرّسول وصحابته، وأنزل الصّواعقَ المحرقة على الوشاة السّاعين بالمصلحين في إفساد إصلاحاتهم ومشروعاتهم، يعملون بكلّ وسيلة لإطفاء نور الله؛ بإغلاق المدارس وحرمان الأولاد من التّعلُّم وتصوير المصلحين لدى الدّوائر بصورة أعداء للدّولة مشوّشين إلخ..وأنّ وشاياتهم ومساعيهم لا يزدادون بها إلاَّ حقارة ومهانة، ولا ينالون بها إلاَّ الخزيَ والعار، وإنَّ المصلحين يزدادون بذلك مضاءً وإقداماً وشجاعة، وشواهد التّاريخ معلنة بذلك. ولم يترك ناحيةً حول الموضوع إلاَّ جاس خلالها، فكان يُلقي درسه في حماسٍ وشدَّة، والصّحن مكتظٌّ رجالاً وأطفالا ونساء، فصوَّر الخونة في صورة كلابٍ أرجاسٍ في جلودٍ محشوَّة خبثًا ورذيلة، ثم عرَّج على الشبَّان العاطلين المتخنّثين المشتغلين باللّهو والبطالة، وإتحاف الهندام وتصفيف الطّرر وقص اللِّحى، وبسَطَ في الموضوع بسطةً طويلة، فكان لهذا الدّرس صدىً كبيرٌ في جميع الطّبقات، فكانت ليلة زهراء، ورحمة في قلوب المؤمنين الصّادقين، وليلة سوداء وعذابًا في قلوب المنافقين...».

الجزائر في 26 رجب 1426هـ

الشّيخ عدّون الأستاذ المربّي ([67])

الدّكتور محمد بن صالح ناصر

ينقسم الأساتذة ــ فيما أحسب ــ إلى أربعة أقسام؛ قسم يربِّي ويعلِّم، وقسم يربِّي ولا يعلِّم، وقسم يعلِّم ولا يربِّي، وقسم لا يربِّي ولا يعلِّم. وقد نجد في المؤسّسة التّعليمية الواحدة ــ ولا سيّما في الثّانويات والجامعات ــ هذه الأقسام كلَّها.

وقد عرفت مؤسّساتنا التّعليمية في الجزائر هذه الأنواع كلَّها، ولا سيّما بعد الاستقلال، حين غدت تلك المؤسّسات حقلاً للتّجارب، ومشتلة للأيديولوجيات الشّرقية والأفكار الحزبية، والتّجاذبات الفكرية؛ ما بين إسلاميّة وعلمانيّة، ولست بهذا المقال لأحلّل تلك الأوضاع، فليس هنا مجال ذلك، ولست أهلا له، ولكنّي أحببت أن أتّخذ هذه الأسطر مدخلاً للتّحدث عن أبينا الرّوحي وأستاذنا المربّي الشّيخ عدّون (رحمه الله)، الذي لم أر من العناوين ما يليق بشخصيته بصدقٍ وحقّ مثل القول عنه: إنَّه «الأستاذ المربّي».

---

[67] – مجلّة الحياة، (معهد الحياة)، العدد العاشر، ص: 189 – 204. إنّ بعض ما ورد في هدا المقال، كان مقدّمة وضعها الدّكتور محمد ناصر لكتاب فضيلة الشّيخ عدّون " معهد الحياة نشأته وتطوّره"، ط1، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1989م. ينظر ص: 5 – 12.(م.ن.ب).

لقد كان الشّيخ عدّون من السّابقين لإصلاح نظام التّعليم بوادي ميزاب عمومًا والقرارة خصوصًا، وقد استفدت من رسائله للشّيخ أبي اليقظان وأجوبة الشّيخ أبي اليقظان له، كيف كانوا يفكّرون في طرق ذلك الإصلاح، منذ بداية العشرينيات، ويتململون في تحسّس الطّرق المؤدّية إليه، لما يجدونه من معارضة عامّة وخاصّة، ولا أحسب أحدًا من عارفي الشّيخ عدون عمومًا وطلاّبه خصوصًا، يجادلني القول فيما ذهبت إليه.

وسأحاول هنا أن أوضّح ما ذهبت إليه، من خلال علاقتي به طالبًا بمعهد الحياة مدَّة ستّ سنوات (1954 ــ 1959م)، وأستاذًا خمس سنوات (1966ــ 1971م)، وسأدلّل على خصائص هذه الأستاذية عند شيخنا من خلال مواقفه وآرائه.

إنَّ الذين تخرَّجوا في معهد الحياة ــ هذه المؤسسة العلمية العظيمة من لدن تأسيسها سنة 1925 حتى يومنا هذا ــ يعترفون ولا شكَّ بالآثار الرّوحية والمعنوية التي تركتها في أعماق نفوسهم شخصية أستاذنا الشّيخ عدّون المهيبة إخلاصًا وورعًا، وتفانيا وتضحية، وحبًّا وغرامًا بلغة القرآن الكريم، وهدي الدّين الإسلامي الحنيف؛ لقد كان المبدأ الذي ما فتئ الشّيخ عدّون يغرسه في أبنائه الطّلاب منذ يومهم الأوّل من التحاقهم بهذه المؤسّسة، وهم يجلسون أمامه في (درس الأخلاق العام) حتى حفلة تخرُّجهم، هو: أنَّ طلب العلم ينبغي أن يكون الهدف الأسمى منه رضى الله

سبحانه وتعالى أوّلاً، ونفع المجتمع الإسلامي، والنّهوض به ثانيًا. وما كان الشّيخ في حاجة إلى تأكيد ذلك بلسان فصيح، أو أدب بليغ، أو شعارات تعلَّق في الرّدهات والجدران، لأنّه كان يعظ الطّلاب بسلوكه وأخلاقه، قبل أقواله ومواعظه.

لقد تجسَّد في شخصيته بحقّ ذلك الشّعار، الذي كان يُحفِّظه للطلاَّب ويروضهم عليه في جمعياتهم الأدبيّة والتربويّة وهو : «**الأخلاق قبل الثقافة، ومصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد**»، وهما الشّعاران اللّذان يهدفان أساسًا إلى غرس الفضائل الإسلامية في نفوس النّشء الصّاعد؛ حتّى يتوجَّه في كلِّ أعماله إلى العبادة والعمارة، إذ الشّعار الأوّل يدعوه إلى إصلاح نفسه قبل إصلاح غيره، ليكون القدوة والمثل، كما يدعوه الشّعار الثّاني إلى التّعالي عن الأخلاق الفردية الأنانية، وليكون بعلمه وثقافته نافعًا لأمته ومجتمعه، قبل أن يكون الغرض من ذلك نفع نفسه.

إنَّ من أهمّ عوامل نجاح هذه المؤسّسة التّعليمية، التي تجاوزت في عمرها الثّمانين سنة حافلةً بالمآثر والمفاخر، أن يكون فضيلة المرحوم الشّيخ عدّون مديرًا لها، ثمّ مشرفًا عليها حتّى آخر أيّام حياته، فإنَّ الخصال التي تحلَّى بها بوَّأته ليكون ــ بحقّ ــ المعلِّم القدوة، والأستاذ المربّي؛ إخلاصًا وانضباطًا، حزمًا ونظامًا، جدًّا واجتهادًا، تسييرًا وتطويرًا، فقد أعطى لها كلَّ ما يملك من نفسٍ ونفيس، حتى غدت جزءاً من نفسه،

وكائنًا حيًّا، اسمُ الشّيخ عدُّون أحدُ أسمائها، ومَعْلَمًا إسلاميا حضاريًّا (شريفي سعيد) في مقدِّمة بُناته.

وما زلت أتذكّر ــ وكلّ إخواني الأساتذة يتذكّرون ــ ذلك اليوم من سنة 1995 حين استنفرنا للنّظر والبحث في النّهوض بمعهد الحياة؛ مناهج وبرامج، وقال لنا بالحرف الواحد: «لو أموت والمعهد على هذه الحال فإني أموت بغصَّة».

ومن هنا كان طلاَّب المعهد يرون فيه الأب الحاني حبًّا وإخلاصًا، والمدير الحازم انضباطًا ونظامًا، والمربّي النّاجح سلوكًا وأخلاقًا، فما هي خصائص هذا المربّي العظيم؟

أولا: **الإخـــــلاص:**

لو يُسألُ آلاف المتخرّجين من الطّلاب، أو من النّاس الذين يعرفون الشّيخ عدُّون، وقد أفضى إلى ربّه، بعد عمر حافل جاوز المائة سنة، لو يُسألون عن أبرز خصال الشّيخ عدّون لما اختلفوا ــ على كثرتهم ــ حول القول بداهة: إنَّه الإخلاص.

إنَّ هذه الصّفة في حدِّ ذاتها هي مفتاح شخصيته، ونواة نفسه، وحبّة قلبه، عليها تدور كلُّ صفاته المتجلية الأخرى، ومنها تستمدّ إشعاع الورع والتّقوى، فتضيء كلّ جوانب نفسه، وتشيع هالات نورانية من حوله،

فتحببه إلى قلوب النّاس من معاشريه وعارفيه وإخوانه وأبنائه.

إنَّ الإخلاص، وصفاء القلب، وعفَّة الضّمير، وسلامة المقصد، جعلت الشّيخ عدُّون يحتلّ من القلوب شغافها، ومن النّفوس أعماقها، حتّى قال فيه المرحوم شيخنا بكلِّي عبد الرّحمن قولته الحكيمة: «إنّه الإخلاص يمشي على رجلين».

كنَّا ندرك ونحن طلاَّب صغار خصلة نكران الذّات التي تميَّز بها الشّيخ عدُّون، ونحن نسمع ونرى تلك الشّهرة الواسعة التي اكتسبها أستاذنا الإمام الشّيخ بيّوض (رحمه الله) في مجال الحركة الإصلاحية، إنَّ النّاس داخل ميزاب وخارجه منبهرون بشخصية الزّعيم القائد الإمام الشّيخ بيّوض، ولكنّ القليل منهم فقط هم الذين يعرفون الجندي المجهول الشّيخ عدُّون، الذي رابط معه طوال حياته في الصّف الأمامي، يجود بدمه وأنفاسه، ويسخو بمهجته وحشاشة قلبه، ويُزجي الكتائب واحدة تلو الأخرى في هذه المؤسّسة، ويصل ليله بنهاره في سبيل متطلّباتها المادية والمعنوية، ويقطع من أجلها المسافات من شرق إلى غرب، ومن شمال إلى جنوب، وهو حين يسلك هذا المسلك الإنساني الإسلامي الرّائع يقدِّم أمام أعيُننا - نحن الطلاَّبَ - مثلاً ناصعًا لما يجب أن يكون عليه الطّالب من أستاذه؛ تبجيلاً وتقديرًا، إخلاصًا ووفاءً.

كنَّا صغارًا، ولكنّنا كنّا ندرك بعمق هذه المكانة التي يحتلها الشّيخ

عدّون من المجتمع الإسلامي الجزائري عمومًا، والحركة الإصلاحية خصوصًا، فيزداد في نفوسنا إجلالا وحبًّا، ويكبر في أعيننا احترامًا وتشريفًا.

ثانيًا: **الاستقامة:**

الاستاذ المربّي المسلم النّاجح هو الذي يجسد بسلوكه مصداقية الآية الكريمة: ﴿ لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يرْجُو اللهَ واليَوْمَ الآخِرَوَذَكَرَ اللهَ كَثيرًا ﴾ (الأحزاب: 21)، أي هو الذي يُصلح نفسه أوّلاً ثم يُصلح غيره، فقد دلّت تجارب المربّين على أنَّ التّربية النّاجحة هي التّربية بالقدوة، وذلك هو السّرّ الذي جعل الرّسول الكريم ﷺ وصحابَتَهُ الأبرار يؤثِّرون في النّاس، ويبنون حضارة أصيلة شعَّت بأنوارها على بقاع العالم.

ولقد كان شيخنا (رحمة الله عليه) حريصًا كلّ الحرص على أن يجسّد الاستقامة بسلوكه العملي، قبل أن يدعو إليها بدروسه ومواعظه، ومن ثمَّ كانت لدروسه فعل السّحر لدى تلامذته، على أنَّه لم يكن ــ مقارنة بغيره ــ يملك أسلوبًا وعظيا راقيا، أو فصاحة آسرة، أو بيانًا عاليا.

ولقد عُرف الشّيخ عدُّون واشتهر بهذه الاستقامة، التي بوّأته تلك المترلة الرّفيعة في المجتمع، ولا أدلَّ ولا أصدق من شهادة من عاشره وخَبَرَهُ سنين طويلة عن قرب، واحتكَّ به على بصيرة في الميادين العلمية والعملية معًا، من أمثال الشّيخ أبي اليقظان، حيث يعرِّفه قائلا:

« أوتي حظًّا موفورًا من الخلق الكريم؛ من تواضع، وصبر، وثقة بالله واتِّكال عليه وتقوى له، وإيمان كامل به، وعزَّة نفس، وهمَّة عالية، ولين عريكة، وحسن نية، وصفاء قلب، وصدق وإخلاص، وورع وزهد، ومحافظة على سمت السّلف الصالح، وحزم وعزم واقتدار على إدارة ما يناط به من المهام بأمانة وجدّ، لا يعرف كللا ولا سأمًا، ولا تزعزعًا في مبدئه»[68].

ومن الأمثلة الحيّة الواقعية على هذه الخصوصية عند الشّيخ عدُّون دعوته المستمرّة إلى المحافظة على صلاة الجماعة؛ ما ينفكُّ يدعو إليها في دروسه العامّة والخاصّة، ولا يتردَّد في اتِّخاذ طرق عملية تنفيذية لمن لا يستجيب لهذه الدّعوة ولا يقيم لها وزنًا. فكلّ تلامذته يتذكّرون كيف كان يعاقب بالضرب المتخلِّفين عن صلاة الجماعة، ولا سيّما صلاة الفجر، ولكن الشّيخ عدّون كان قبل هذا وذاك مثلاً حيًّا لهذه المحافظة، وهذا الدّأب المستمرّ على أن يكون في الصّفّ الأمامي دومًا في كلّ الصّلوات. والعجيب في الأمر أنّه قد يسهر حتّى الثّانية صباحًا، ولكنّه لا يتخلَّف عن صلاة الفجر في المسجد أبدًا، وما زال منظره ـــ وهو يخفُّ سريعًا في شارعهم صعدًا إلى المسجد ـــ محفورًا في ذاكرتنا، كنّا نراه كذلك بردائه الأبيض الزّاهي ونحن صغار حيث نصادفه ذاهبين أو آتين

68- ملحق السّير، ج3، مخطوط، ص: 445.

إلى مدرسة الحياة.

ومن مظاهر استقامته، التزامُه بالسّمت الإسلامي سلوكًا وأخلاقًا، فهو طالما وقف مواقف صارمة حازمة ضدّ بعض المنحرفين من الطّلبة، وقد كان يتَّخذ لمعاقبتهم ــ إن لم ينفع معهم التّذكير والنّصح، ولا سيّما إذا كان الانحراف كبيرةً من الكبائر ــ قلت كان يتَّخذ للمعاقبة مناسبة خاصَّة، يجمع فيها كلَّ الطّلبة من كلِّ السّنوات في قاعة المعهد الكبرى (قاعة إيروان) ([69]) كما كانت تُسمَّى، ليكون الطّالب المُعاقب عبرة للطلاَّب الآخرين. وعلى الرّغم من أنَّ هذه المواقف كانت معدودة على الأصابع، إلاَّ أنّها ــ فيما أحسب ــ كانت تترك أثرًا بالغًا في نفوس الطّلبة قبل المُعاقَب نفسه.

ومن مظاهر استقامته عزَّة نفسه، وعفَّة يده، لأنّ الاستقامة تتجلَّى عند الفرد المؤمن في عدم انصياعه للرّغبات الدّنيوية المغرية، جاهًا أو نفوذًا أو مالا، وكلّ من درس حياة الشّيخ عدُّون، ولا سيّما في العشرينيات والثّلاثينيات

---

69 – تسمّى دار إيروان أو دار التّلاميذ, مقرّ هيئة، تكون بِجوار المسجد، يجتمع فيها من استظهر القرآن الكريم، كانت في القديم تقام فيها حلقات العلم، ولّما بنيت مدارس نظامية، انعدمت منها هذه الحلقات، إلاّ قليلاً. ولكنّ النّظام ما يزال قائمًا، من انضمام مستظهري القرآن إلى هذه الهيئة، ويكون ذلك تشريفًا وتقديرًا واحترامًا للقرآن الكريم. ولإِيروان دور كبير في عمارة المسجد ومجالس الذّكر والتّلاوة, وإعانة العزّابة في أداء مهامّها، والقيام ببعض المسؤوليات. (م.ن.ب)

والأربعينيات، يدرك كيف كان يواجه قلّة ذات اليد بعزّة وورع وتقوى. ويكفي أن نعلم أنه درَّس ثلاث عشرة سنة دون أن يتقاضى أجرًا على ذلك!.

فقد حدَّثني في آخر جلسة معه في بيته بالقرارة عن هذه النّقطة بالذّات، حيث قال: « لقد مررت في حياتي بمراحل صعبة مواجهًا شظف العيش[70] بصبرٍ وإيمان، ولكنّ الله فتح عليَّ أبواب رزقه منذ بداية الخمسينيات إلى اليوم، وإنَّني والله لأخشى أن يحاسبني الله على هذه النّعم التي تترى عليَّ من كلِّ جانب ».

قلت له: إنّي أتذكّر كلمتك في عرس ابنك بكير، التي قلت فيها: «إنّي أخاف أن ألقى الله فيقول لي: ﴿...**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا**... ﴾(الأحقاف: 20)؛ وها أنت تكرّر نفس التّوجُّس يا شيخ، اطمئنَّ بالاً واهدأ خاطرًا، فإنَّك المثل الذي نحتذيه، استقامة سلوكٍ، ورجاحة إيمانٍ، لأنّك مِمّن استطاع أن يجمع بين العمل الدّنيوي والأخروي، ولا أحسب إلاَّ أنّ جزاءك عند الله سيكون جنّة الفردوس بحول الله، فإنَّ ألسنة الخلق أقلام البارئ..

70- يمكن الرّجوع إلى بعض رسائله إلى الشّيخ أبي اليقظان؛ حيث يذكر فيها أنّه لا يملك حقَّ طابع البريد، وإنَّما استعاره من أحد أصدقائه. انظر مجلّة الحياة، نشر جمعية التّراث، العدد: 9، رمضان 1426هـ/ نوفمبر 2005، ص: 141.

ثالثًا: **الأبوّة الحانية:**

من أهمّ الخصائص التي تميَّز بها الشّيخ عدُّون المربّي، أبوَّته الحانية التي أكسبته محبَّة أبنائه الطّلبة، وأزعم لو أنَّك سألت المئات من الذين تخرّجوا على يديه ما اختلف واحد منهم في الاعتراف بهذا الفضل، وخصّيصته هذه هي التي جعلت أولئك التّلاميذ يتعلَّقون به ويقدِّرون فضله، ويسبغون عليه آيات الاحترام والتّبجيل، فقد كان (رحمه الله) لأبنائه الطّلبة أبا حقيقيًّا، بكلّ ما تحمل كلمة الأبوّة من معان، وكنَّا حريصين على أن ندعوه «الأب الرّوحي»، وكان هو حريصًا على أن يخاطبنا بـــ« أبنائي الأعزّاء »، ولقد كان ذلك تعبيرًا عن هذه العاطفة الجيّاشة، حيث يضفي على كلِّ أبنائه الطّلبة من حنانه الفيّاض، ويعطف عليهم باهتمام شديد ومتابعة دائمة، سواء كانوا متمدرسين بالمعهد أو مشايخ وأساتذة في ميدان الحياة العلمية والعملية بعد تخرُّجهم.

ويتجلَّى هذا الحنوّ الأبوي من خلال مراسلاته التي كانت بينه وبين أبنائه الطّلبة وهي تفيض عواطف ومحبّة وتوجيهات ونصائح.

لقد كان دومًا الأب الحاني الذي يلجأ إليه الطلاَّب على مختلف السّنوات والأعمار ليحلّ مشاكلهم التّربوية والعائلية، متعاليا على الخلافات والنّزاعات العشائرية في سبيل هدف نبيل وغاية مثلى.

ومن مظاهر هذا الارتباط الرّوحي بينه وبين أبنائه الطّلبة حرصه على

حضور أفراحهم وأعراسهم، ومناقشات أطروحاتهم، وهو حتّى إذا حال بينه وبين تلك المناقشات ــ التي غالبًا ما كانت في شمال الوطن ــ حائل فإنّه لم يكن ليفوِّت فرحة التّهنئة برسالة أو مكالمة هاتفية، وغالبًا ما تكون هذه المحطّات فرصة للتّذكير بمبادئ المعهد عقيدة وسلوكًا وأخلاقًا، والتّأكيد على الرّوابط الاجتماعية والعلاقات الحميمية.

ومن مظاهر أبوّته الحانية حضوره الدّائم في ندوات أبنائه الطّلبة، التي يقيمونها هنا وهناك، فيكون ذلك الحضور دليلا على تواضعه، وعلامة على تشجيعه، ورافدًا لأولئك الأبناء ليستمرّوا في عطائهم العلمي، ويواصلوا مسيرتهم الثّقافية قدمًا إلى الأمام.

وما كان يغفل عند تلقِّي ما يهديه له أبناؤه من مؤلّفاتهم ليصمت، فلا يردُّ التّحية بأحسن منها، كما يغفل الكثير، بل كان يغتنم هذه الفرص ليؤكّد على الرّابطة الأبوية القوية بينه وبينهم، ويذكّر بالقيم والمبادئ التي نشَّأهم عليها معهدهم، التي ربّما يغفل عنها بعض الأبناء في زحمة المناصب والمراتب الدّنيوية، والشّهرة الآنية، سياسية كانت أم اجتماعية.

يقول في رسالة بعث بها إلى أحد أبنائه بعد مناقشة أطروحة الدّكتوراه:

« نهنِّئك مبتهجين مستبشرين بهذا النّصر العزيز، الذي حباك الله بعد جهود مصنية بذلتها في سبيل خدمة العلم، وجهاد كبير ينوء بالعصبة أولي القوّة،

قمت بها تشريفًا وتكريمًا للعاملين المخلصين، ورفعا لشأن قومك وأمّتك على مستوى العالم العربي والإسلامي، وتضحيات جسام، قدَّمتها في البحث والتّنقيب بدون كلل أو ملل، ولقد زادك وزادنا عزًّا وشرفًا أن تتولَّى الجامعة طبع الأطروحة والإشراف عليها، مـــمَّا يزيد في قيمتها، ويرفع من مكانتها، وإنَّنا نترقّب بكلّ شغف وبفارغ صبر صدورها في القريب العاجل.

رعاك الله وحفظك ومدَّ في أنفاسك وزادك عزًّا وعلما وشرفا وتوفيقًا وسدادًا، وإنّا لنرجو فوق ذلك مظهرًا، ودمت عزيزًا مشرِّفا لإخوانك الأساتذة الأوفياء، ولعزيزك الكاتب شريفي سعيد »[71].

رابعًا: **الحلم والتّسامح:**

ويرتبط بهذه الأبوّة الحانية ما يتّصف به من حلم وتسامح، ومرونة وكياسة، لا تراه يحمل حقدًا، ولا يبيت على ضغينة لشخص، ولا يَزْوَرُّ عن أبنائه الطّلاَّب، حتّى ولو عصوا أو تمرَّدوا، حرصا منه على أن يُبقِيَ شعرة

71- الرّسالة مؤرخة بـــ أكتوبر 1983 في حوزة الباحث. لا أحسبها إلاّ الرّسالة التي أرسلها الشّيخ عدّون إلى أستاذنا الدّكتور محمد بن صالح ناصر؛ فقد نوقشت أطروحته الموسومة بـــ: " الشّعر الجزائري الحديث اتّجاهاته وخصائصه الفنيّة " في شهر أكتوبر 1983م، وقيل عنها ما أورده الشّيخ عدّون في رسالته. هذا التّواضع من الابن محمد ناصر، هو إحدى ثمرات تربية الأب الشّيخ عدّون، فهنيئًا للاثنين معًا. (م.ن.ب).

معاوية بيده يجذبها متى شاء، ويرخيها كما شاء. ولقد أفلحت كياسته ومرونته هذه، فجمع القلوب على حبّه، وكان السّبب في أن يؤوب كثيرون ممن نأوا عن الجماعة، أو شذُّوا عنها، وهذا لا يعني أبدا أنّه لم يكن يتَّخذ من المجاهرين بالتّمرد أو العصيان مواقف حازمة حاسمة، وهو يختار لها الوقت المناسب والمكان المناسب.

وقد رأينا كيف كان يحافظ على تلك الشّعرة التي تربطه بأبنائه، ولا سيّما في الأوقات العصيبة والظّروف المتأزّمة التي تفعل فيها السّياسة والأغراض الشّخصية فعلها.

على أنَّ بعض المشايخ ــ الذين كانوا إلى القطيعة وقطع حبال الودِّ أسرع ــ قد ينتقدون على الشّيخ عدُّون مرونته تلك، ويحسبها بعض المتسرّعين من قبيل سياسة الكيل بمكيالين، والسّكوت عن هذا والتّنديد بذاك.

ولكنّهم بعد مرور الأيّام يُسَلِّمون له بما رأى ويوافقونه على ما ذهب إليه؛ لأنَّ الشّيخ (رحمه الله) كان يضع مصلحة الأمّة والجماعة قبل مصلحة الأفراد، ويتَّقي فتنة التفرُّق والتّحزُّب، بغضِّ النّظر عن بعض الأخطاء والهفوات التي ترتكب، والكمال لله وحده.

وكان لهذه السّياسة الرّشيدة التي يتّبعها في التّعامل مع بعض المتمرّدينّ والنّاكثين الفضل في أن يعود كثير منهم إلى جادة الصّواب، وينضووا تحت

حمى الجماعة من جديد، بعد أن بان زيف التّقلّبات السّياسية، وبهرجة الكراسي الوظيفية[72].

أتذكَّر أنّنا كنّا أساتذة معهد الحياة ذات عشيّة في آخر السّنة الدّراسية، لمتابعة المقرَّرات استعدادًا للسّنة الموالية، ودار نقاش حاد بين الأساتذة حول إنقاص حصَّة بعض المواد، وكان رأي الأغلبية ومنهم الشّيخ عدُّون مع إجراء ذلك التّعديل الذي طال مادة أحد الأساتذة. وقال الشّيخ: إنَّ ساعتين لتلك المادة تكفيان ولا حاجة لأربع ساعات، فما كان من أستاذ تلك المادة إلاّ أن قهقه ضاحكًا بصوت عالٍ، لفت إليه أنظار كلّ الحاضرين، وسأله الشّيخ عدُّون عمَّا يُضحكه؟ فأجاب: «إنّي أضحك على من يقول: إنَّ ساعتين لهذه المادة تكفيان»، هنا تغيَّر وجه الشّيخ عدُّون وتهدَّج صوته، وقال بتأثُّر شديد: «عوض أن تضحك عليَّ يا فلان وأنا ذو شيبة، فإنَّ الأولى بك أن تُقنعني أو تقتنع برأي الجماعة».

ووالله ما زلت أتذكّر تلك اللّحظة الحرجة، التي أصابت الجميع بالوجوم والخرس تأثُّرًا بهذا الموقف، فما نبس أحدٌ ببنت شفة، ولا علَّق بحرف، هيبةً من الشّيخ عدُّون. ورُفعت الجلسة على هذا النّحو المؤثّر، حتّ

72- لست بحاجة لذكر أمثلة حتى لا نُحرج من لا يزالون أحياء.

إذا كانت عشية الغد لاستئناف الأعمال كان أوّل من تكلّم هو ذلك الأستاذ نفسه، مقدِّمًا عذره إلى الشّيخ عدُّون عمَّا بدر منه أمس.. وإذا بالشّيخ يجيب قائلا: «إنَّ ما مضى في جلسة أمس طويته معها، هاتوا أعمال اليوم...»!.

وكان هذا الموقف من الشّيخ مِمَّا زاد له في نفوسنا تعظيمًا وتبجيلاً، ورفعة وتقديرًا، ولم أدر أكان إعجابنا لحكمته أم لتسامحه، غير أنّي أدركت شخصيًّا سببًا آخر من أسباب محبة أبنائه له، ومهابتهم لشخصه، واعترافهم بفضله، وتقديرهم لسجاياه وأخلاقه.

خامسًا: **التّواضع:**

عادة ما يكون التّواضع صفة مرتبطة بالإخلاص، لأنَّ التّكبّر الذي هو مضاد للتّواضع مرض نفسي، يعاني منه مرضى القلوب فقط، ومن ثم فإنَّه مـــمَّا يلفت النّظر في خلال الشّيخ عدُّون تواضعه المذهل أمام أبنائه وتلامذته، دون افتعال أو تكلُّف؛ لأنَّ تصرّفاته معهم تنمُّ عمَّا يحمله في قلبه الأبيض النّقيّ الصّافي، من حبٍّ وودّ لكلّ مسلم، ولأنّه يصدر في ذلك عن أخلاق إسلامية عالية، وإذا كان هذا ديدنه مع تلامذته، فأولى أن يكون ذلك مع أساتذته وزملائه، كما يدلُّنا ذلك من خلال رسائله إلى الشّيخين

بيُّوض، وأبي اليقظان[73].

ومن تواضعه باعتباره أستاذًا مربّيًا أنّه كان في اجتماعاته لا يرفض رأيًا، أو يتشبّث بقرار إلاَّ بعد أن يستمع إلى آراء كلّ الحاضرين، رأينا ذلك منه وعرفناه في إدارة معهد الحياة، وقدماء التّلاميذ، وجمعية التّراث، وحلقة العزّابة ([74])، وغيرها من المجالس. والأعجب في الأمر أنه كان لا يتمسَّك برأيه إذا رأى الأغلبيةَ لا توافقه، بل كان يقول صراحة: أنا مع الجماعة فيما ترى ولو خالفت رأيي الشّخصي، ومن ثمَّ نفهم نقده الشّديد وتوبيخه المتكرّر لبعض أبنائه الطّلبة والأساتذة، الذين يتمسَّكون بآرائهم الشّخصية، أو يستنكفون عن الخضوع لرأي الأغلبية، أو يعجبون بمواقفهم الانفرادية.

ومن مظاهر تواضعه أنّه كان كثيرًا ما يعرض ما يكتب من مقالات أو رسائل على تلامذته، ويستمع بكلّ اهتمام لما يبدون من ملاحظات، بل إنّه كثيرًا ما كلّف أبناءه الطّلاب للرّدّ على بعض مراسليه، مفوّضا لهم الأمر في الرّدّ بما يرون، ثقةً منه في أبنائه، وتواضعًا صار جِبلَّة في أحنائه.

73- يراجع، الباحث: من رسائل الشّيخ عدّون إلى الشّيخ أبي اليقظان، مجلَّة الحياة، العدد9، (مصدر سابق)، ص: 122.

74 – العزّابة هي الهيئة المشرفة على الشّؤون الدّينية والاجتماعية – بخاصّة – في المجتمع الميزابي. ونظام العزّابة أو حلقة العزّابة هو نظام خاصّ بإباضية المغرب الإسلامي، أسّسه أبو عبد الله محمّد بن بكر الفرسطّائي النّفوسي اللّيبي سنة 408 هـ أو 409هـ. (م.ن.ب).

أتذكّر جيدًا يوم دعاني إلى مترله بالقرارة، ليضع بين يديّ مخطوطة عن نشأة الحركة التّعليمية بوادي ميزاب، وطلب منيّ أن أطّلع على المخطوط وأجري عليه ما يجعله جاهزًا للطّباعة. وقال لي: « اعتبر هذا المؤلّف ــ إن جاز التّعبير ــ من تأليفك، وإنّي فوّضتك أن تُصلحه على النّحو الذي تراه إضافة أو حذفًا، أو تقديمًا أو تأخيرًا، وحبَّذا لو تكتب له تقديمًا». سمعت ذلك من شيخي وأستاذي وشعرت بشعورين مختلفين؛ خجلي من مسؤولية ما حُمِّلت، وإعجابي الشّديد من تواضع شيخ أمام تلميذه. وزاد خجلي أكثر يوم أنهيت العمل وعرضته عليه على النّحو الذي طلبه منيّ، فقال متهلّلا بعد الاطّلاع عليه: « إنَّ قيمة التّقديم في نظري أحسن من محتويات الكتاب نفسه، وأراك قد بالغت في تقديرك لهذا العبد الضّعيف»! قلتُ: «سبحان الله لهذا التّواضع المخجل!، وما كنت أحسب أنَّ من التّواضع ما يُخجِل»!.([75])

سادسًا: **الحزم والانضباط:**

من أهمّ خصائص المربّي النّاجح أن يكون حازمًا في أوامره، منضبطًا في أموره، وإلاَّ ساد المؤسّسة التي يقودها الفوضى والتّسيُّب، فنحن نرى اليوم أنَّ من أسباب ضعف المردود الثّقافي، والتّحصيل العلمي في مؤسّسات

---

[75] – الكتاب هو: " معهد الحياة نشأته وتطوّره " طبع سنة 1989م، في المطبعة العربية بغرداية، الجزائر. (م.ن.ب)

التّعليم في الجزائر، بل إنَّ التّذبذب الاقتصادي والانحراف الاجتماعي، يعود إلى عدم أخذ ولاة الأمور بزمام مؤسّساتهم بالحزم والانضباط، لا لشيء إلاَّ لأنّهم يفقدون هذه الخصائص في أنفسهم.

وقد نلحظ وجود نوعين من الأساتذة في المؤسّسة الواحدة، هذا ناجح وهذا فاشل، وعندما نبحث عن الأسباب نجدها في الأغلب الأعمّ تعود إلى وجود هذه الخصّيصة أو فقدانها، أمّا إذا كانت الإدارة لا تتحلَّى بها فإنَّ المؤسّسة غالبًا ما تكون مجالاً للاَّمبالاة، أساتذةً وطلاّبًا، مـــمَّا يؤثّر سلبا على نتائجها العلمية والأخلاقية.

وفي معهد الحياة طالما لاحظنا وجود هذين النّوعين من الأساتذة في وقت واحد، مـــمَّا يجعل الحازم المنضبط مثار الإعجاب والتّقدير للطّلاب، ويكون الثّاني مثار السّخرية والنّكتة، ولولا أن بعض هؤلاء قد أفضَوا إلى ربّهم لضربت لذلك الأمثال، وهي على كلٍّ حال محفورة في ذاكرتنا نحن الطّلبة إلى يوم النّاس هذا.

وكان شيخنا عدُّون يستحوذ على إعجابنا لاتّصافه بالحزم والانضباط.

فهو في الفصل عند بداية الحصّة لا يتأخّر دقيقة عن موعد الدّرس، كما كان لا يتخلَّف عن دروسه إلاَّ لضرورة قصوى، وهو قلَّما يفعل ذلك.

وكنَّا نعجب كيف يحضر إلى المعهد للتّدريس وقد عاد من سفره توًّا ! ودع عنك انضباطه في التّوقيت بداية ونهاية، فهو أوّل من يحضر إلى المعهد

وآخر من يغادره. وما كان من عادته أن يتخلَّف عن درس من أجل سفر أو حضور عرس هنا أو هناك، كما يفعل بعضهم، وحرصه هذا على قدسية التّدريس هو الذي جعله لا يسمح للطّلبة أن يُقيموا أنشطتهم الثّقافية إلاَّ خارج أوقات الدّراسة، فإنَّ الجمعيات الأدبية، ما كانت تقام إلاَّ ليلا، والأنشطة الرّياضية والكشفية إلاَّ أيّام العطلة الأسبوعية.

وهذه الخصّيصة فيما أحسب، من أهمّ ما أكسب المعهد في ذلك العهد الاحترام والتّقدير في الأوساط الاجتماعية، بل وأعان المؤسّسة على أن تحققّ النّتائج العلمية والثّقافية والأخلاقية الباهرة، وما زلنا نحن المتخرِّجين في الجامعات نحمل الامتنان لتلك الجمعيات، ونتذكَّر أيّامها باعتزاز وفخر.

سابعًا: **الدّعابة والظّرف:**

من سمات الأستاذ المربّي أن يكون اجتماعيًّا، متفتِّحا على الآخر، ميَّالاً للتّظرُّف والتّفكُّه والمباسطة، وتلك صفات كان شيخنا متَّصفًا بها، معروفًا بالارتياح لها، والحقَّ إنَّ أغلب مشايخنا من ذلك الجيل النّقيّ الصّفيّ كانوا كذلك، لا ترى في مجالسهم إلاَّ أسارير متهلِّلة، ووجوهًا مشرقة، ولا تسمع إلاَّ نكتا أدبية طريفة، أو مداعبات حميمة أنيسة، يحب بعضهم بعضًا، ويخفضون جوانحهم للأخوّة الإسلامية التي تربط علاقاتهم، يتفقَّدون أُسرهم، ويزورون مرضاهم.

ومن منَّا لا يتذكّر مجالس الشّيخ بيُّوض والشّيخ أبي اليقظان ولقمان وتاعموت عيسى والشّيخ عبد الرحمن بأدبها الرّفيع وأسلوبها العالي؟ ومن منَّا ينسى مجالس الظّرف والفكاهة مع الشّيخ القرادي والشّيخ حمو فخّار والشّيخ بوحجام عيسى والشّيخ محمد علي دبوز وإخوان الصّفا ([76]) من معلمين في دائرة مدرسة الحياة ومعهد الحياة؟.

وقد عرفنا شيخنا في مجالسه كيف كان يمازح بعض أبنائه الطّلبة، الذين عُرفوا بالمفاكهة والدّعابة وخفَّة الرّوح، من أمثال المرحوم تاعموت إبراهيم، وطيِّب الذِّكر باجو صالح، فقد كانت تلك الممازحات تُضفي على الجلسات الجدية غلالة لطيفة من الانبساط، وتلقي على المجلس رذاذًا لطيفًا من الألفة والمحبّة.

وما زلنا نتذكّر كيف كان أستاذنا يعقد جلسات خاصة ليروِّح عن نفسه مع من يأنس فيهم هذه الروح، وربّما عقد لذلك رحلة خلوية في

---

76 - إخوان الصّفا جماعة من طلبة معهد الحياة تكوّنت بينهم صداقة راسخة، فكوّنوا جمعيّة سمّوها باسم إخوان الصّفا؛ اقتداء بجماعة: " إخوان الصّفا وخلاّن الوفا " المعروفة في التّاريخ الإسلامي. وكان من أبرز أعضائها الشّيخ محمّد عليّ دبّوز (1919 – 1981م) أحد طلبة معهد الحياة، وأحد أساتذته، يقول عن هذه الجماعة: "... كنّا جماعة في عشرة أشخاص، كلّهم من القرارة، إلاّ أنا فمن بريّان، ربط بيننا الحبّ في الله، ومزجت بيننا الميول الواحدة والفطرة السّليمة، والحبّ الشّديد للعلم والطّموح فيه، وتعشّق الأدب والاشتغال به. فأصبحنا إخوان الصّفا حقًّا، يشعر كلّ واحد منّا بالآخر أنّه هو..." ينظر نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، ص: 61، 62. (م.ن.ب).

مراح صحراوي أو روضة بهيجة بين أحضان الطّبيعة. ومن منَّا لا يتذكر جلساته مع المرحوم أحمد فرصوص، ومداعبته للحاج محمد الخياط، وارتياحه لمطارحات الدّكتور صالح الخرفي (رحمهم الله جميعًا).

وهكذا فإنَّه عندما يكون الشّخص اجتماعيًّا متوازنا ترى من سماته انطلاقة أساريره، وبشاشة وجهه، يحبه النّاس ولا يملُّون مجالسته، وغالبًا ما يكون هذا الشّخص ميَّالاً إلى المداعبة والملاطفة مع معاشريه وجلسائه، يحبُّ النّكتة ويطرب لها، ويضحك لها من أعماقه، كما يفعل الأطفال البريئون.

ذلك لأنَّ هذا الشّخص عادة لا يضيق قلبه بالحسد والظّنّ السّيّء، إذا علم الله من مؤمن صفاء الطّوية ألقى محبّته في القلوب فأنست لمعاشرته ومالت إلى مجالسته.

وما كان شيخنا في هذا إلاَّ مقتديا برسول الله ﷺ، الذي تروي عنه كتب الحديث والسّيرة أنَّه كان يمازح الصّحابة، ويبسم للطّرفة، ولا يقول إلاَّ حقًّا.

ثامنًا: **حبّ القراءة والتّفتّح على الآخر:**

لم أر فيمن عرفت من المشايخ أستاذًا محبًّا للكتاب، مدمنا على القراءة بعد ــ الشّيخ محمّد علي دبّوز ــ مثل الشّيخ عدُّون؛ فقد كان له غرام

بالمطالعة شديدٌ، كنَّا لا نراه خارج حصص التّدريس إلاَّ منكبًّا على كتاب أو مجلَّة، وحرصه هذا كان خصّيصة من خصائصه، وحصّة مقدَّسة في برنامجه اليوميّ لا يصدُّها عنه إلاَّ ضرورة قصوى، وظلَّ مداومًا عليها طوال حياته المباركة، ونلحظ في مراسلاته للشّيخ أبي اليقظان كيف كان حريصًا على أن يطلب منه أن يرسل إليه الجديد الصّادر من المشرق: كتبًا ومجلاّت ودوريات، ويعتبر نفسه بحكم وجوده الأغلب في القرارة محرومًا من هذه النّعمة، التي يسمِّيها «**تُحَف المشرق**»[77].

وقد أدركنا نحن الطّلبة هذا الحرص منه، إذ كان يسأل دوما عن الجديد في عالم الفكر والثّقافة كلّما عاد أحدنا من سفر، وكان يبتهج أيّما ابتهاج حين تكون الهدية المقدّمة إليه كتابًا جديدًا أو مجلَّة ذات قيمة علمية.

وأتذكّر كلَّما زرته بعد سفر، كان أوّل سؤال يبادرني به: « ما الجديد من تأليفك؟»، بل ويسألني أحيانًا عمَّا أنوي التّأليف فيه، حبًّا منه للاستزادة المعرفية، وتشجيعًا على متابعة التّأليف والبحث، وأشهد أنّ ذلك منه كان لي زادًا معنويا ونفسيًّا كبيرًا. إنَّ حرصه على متابعة ما يجِدُّ في عالم الفكر والثّقافة يدفعنا إلى ذكر حقيقة، قد يجهلها الكثير، وهو ما

77- يراجع مجلة الحياة، العدد التّاسع (مرجع سابق)، ص: 129.

يتميّز به شيخنا من تفتُّح على كلِّ جديد مفيد، وكرهه للتحجّر والتّزمُّت، لقد كان يملك من الخصال ما ساعده على السّير قدما بمعهد الحياة في طريق التّطوير والتّجديد، والمتتبّع البصير يدرك بجلاء كيف كان الشّيخ عدُّون يقف أبدًا وراء ذلك التّطوّر المستمرّ؛ بما يملكه من ذهنية متفتّحة، ونفس مرنة، ورغبة ملحاح في أن يكون المعهد أبدًا في مصاف الثّانويات النّاجحة التّربوية تثقيفًا، لا على مستوى القطر وحسب، بل على صعيد العالم الإسلامي، لِيؤدّي رسالته المنوطة به.

وهو على الرّغم من تقدُّمه في السّنّ ظلَّ محافظًا على تلك العادة الشّريفة، وكأنَّ الله حين علِم منه صدق النّيّة وثبات العزيمة حباه نظرًا قويًّا وبصرًا حديدًا، يساعدانه على القراءة والمطالعة بدون نظّارة، وقد تجاوز المائة من عمره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء!.

وحرصه هذا يتجلّى في إدراجه مادَّة (المطالعة) الحرَّة والمقيَّدة في برنامج الدّراسة بالمعهد، وتُعدُّ من أوليات المواد في الامتحانات لجميع السّنوات.

فكان يحاسبنا نحن الطّلبة على أنشطتنا تلك، من خلال ما نستعيره من كتب من مكتبة المعهد، التي كان يشرف على شراء كتبها بنفسه، وهو ما أضفى على مكتبة معهد الحياة قيمة علمية وثقافية كبيرة، كما كان يحاسبنا محاسبة شديدة على الأخطاء النّحوية واللّغوية أثناء امتحاناتنا

في هذه المادة، وكان لا يتسامح إطلاقًا، فكلُّ خطأ بنقطة، فإن كانت الأخطاء عشرًا جاءت الحصيلة صفرًا.

تلك هي أهمّ خصائص الأستاذ المربّي القدير، الأب الرّوحي الشّيخ عدُّون (رحمه الله) ولا أحسبني أتيت عليها أو فيها بالشّمول والتّفصيل، وحسبي أن أقول بكلّ تواضع: لقد خبرت أستاذي الشّيخ عدُّون وأنا طالب بمعهد الحياة ستّ سنوات، واقتربت منه أكثر وأنا أستاذٌ به خمسًا أخرى، فما عرفت منه طوال هذه المدَّة إلاَّ أنّه المشجِّع الأقوى لكلّ المبادرات السّاعية إلى الرّفع من مستوى المعهد، ماديًّا ومعنويًّا، مناهج وبرامج، لا يتحجَّر على طريقة تقليدية متّبعة، ولا يجمد على مقرّر معيَّن، ولا يتصلَّب لرأيه ونظريته، بل كان يشجّع بكلّ حماسة كلّ المبادرات الرّصينة التي يتقدّم بها الطّلاب والأساتذة، واقفا أبدًا إلى صفِّ المجدِّدين ضدَّ كلِّ متعنّت معاند، عاملا دومًا بالمثل القائل: «**دع الزّهور تتفتّح**»، ولكنّ بقدر تفتّحه ذاك على التّطوّر والمعاصرة، بقدر ثباته أمام كلّ ما يُشتمُّ منه ريح المساس بالمقوّمات الإسلامية الأصيلة، لغةً ودينًا، رافضًا كلَّ فتنة تؤدّي إلى تمزيق وحدة الصّفّ الوطني، يصحبه دومًا إيمان قويّ بالقيم والثّوابت، ورأس شامخ أمام العواصف السّياسية التي كثيرًا ما هبَّت من هنا وهناك.

وبهذه الخصال العالية، وبهذه النّفس المسلمة الكريمة، نجح في

تخريج آلاف الطّلبة في مدرسة محمّد ﷺ، وبثّهم في نواحي القطر الجزائري، بل والعالم الإسلامي، يبلّغون الأمانة، ويجاهدون في سبيل الدّعوة إلى الله على بصيرة.

وقد سلّم الأمانة كاملة إلى أبنائه الشّباب ليتحمّلوا المسؤولية من بعده، ويرفعوا الرّاية خفّاقة في مسيرته، وتلك أمانة ثقيلة تلقى اليوم على عاتق المعهد الجديد في مشروعه الجديد (بحول الله)، فهل يعيها المسؤولون إدارة وأساتذة، ويقدروها حقّ قدرها، ذلك هو السّؤال الذي لا يجيب عنه إلاّ المخلصون الأوفياء، الصّابرون الأمناء، بأعمالهم العلمية والثّقافية والسّلوكية في الميدان، وليست كلُّها في الهياكل والجدران، والتّعالي في البنيان.

نسأل الله التّوفيق والسّداد للخلف الصّالحين، والرّحمة والرّضوان للسّلف المرحومين.

بلغ العشرين خمس مرّات ([78])

الأستاذ محمد الهادي الحسني

هناك أشخاص لم يتجاوزوا أربعين سنة،ولكنّك إذا رأيتهم يمشون،أو سمعتهم يتحدّثون حسبتهم " من عهد عاد "، لما في مشيتهم من تمايل، ولما في أصواتهم من ذبول، ظنًّا منهم أنّ ذلك علامة على الوقار، وأمارة على التّديّن، والجميع يعرف قولة عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - لمثل هؤلاء وهي: " أمتُّم علينا ديننا أماتكم الله "، وهناك أناس تجاوزوا الثّمانين، ولكنّك إذا رأيتهم يمشون، أو سمعتهم يتكلّمون ظننتهم أيفاعًا، لما في سيرهم من نشاط - بالنِّسبة إلى أعمارهم -، ولما في أصواتهم من قوّة.

إنّ الشّباب ليس - فقط - مرحلة زمنية محصورة في سنوات محدودة، ولو كانت كذلك لقيل لكلّ من تجاوز الثّلاثين حولا: " ودّع هريرة "، ولكنّ الشّباب هو شعور نفسي، يتجلّى في القلب الحيّ، والعقل اليقظ، والفكر النّشط، والعمل الدّائب، والمتابعة الواعية ما يجري، والمشاركة الإيجابيّة فيما يجري. فمن توافر فيه هذه الصّفات اعتبر شابًّا ولو بلغ من الكبر عتيّا، واشتعل رأسه شيبا، ووهن عظمه، واحدودب ظهره، وتخدّد وجهه، وتعزّزت رجلاه بثالثة.

كان الشّيخ أحمد توفيق المدني (1899_ 1983م) - رحمه الله -

---

[78] - جريدة الشّروق اليومي، الجزائر، العدد: 872، الخميس 14 من رجب 1424هـ/ 11 من سبتمبر 2003م.

يزورنا في الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، لمتابعة طبع كتبه، وكنّا نلاحظ حيويّته المتدفّقة، ونشاطه المتّقد، فنعجب من ذلك، ونتجرّأ عليه فنسأله عن عمره، فيبتسم ضاحكًا، ويقول: " أنا شاب، بلغت العشرين أربع مرّات "، أي ثمانين سنة.

تذكّرت جواب الشّيخ أحمد توفيق المدني، وأنا أحتفل في صائفة السّنة الماضية، مع الشّيوخ الأجلاّء، والأساتذة الأفاضل، والإخوة الكرام، والأبناء البررة بمدينة القرارة ببلوغ فضيلة الشّيخ سعيد بن بالحاج شريفي (الشّيخ عدّون) القرن.

كانت مفاجأة سارّة، عندما تناول الكلمة الأخ الفاضل الدّكتور محمد صالح ناصر يوم الجمعة 12/7/ 2002، في احتفال ضخم بمدرسة الحياة، وأعلن أنّ فضيلة الشّيخ عدّون قد بلغ القرن، ثمّ شنف أسماع الحاضرين وأمتعهم بقصيدة رائعة، خلّد بها هذه المناسبة السّعيدة.

والشّيخ عدّون يزن – ماديًّا- عدّة كيلو غرامات، ولكنّه – معنويًّا – يزن جبلاً: فضلاً، وقولاً، وعملاً، وأملاً، يبهرك نور وجهه، وتأسرك ابتسامته البريئة المشرقة، وتستحوذ عليك دماثة خلقه، تراه وسط إخوانه الشّيوخ وأبنائه الأساتذة، فتخاله شمسًا ساطعة، تحيط به أقمار متلألئة، بالرّغم من عدم تميّزه عنهم ملبسًا ومجلسًا. وهو يمتاز بالحزم اللّطيف، والصّرامة اللّينة، والعزّة المتواضعة، والتّواضع العزيز، لذلك لا تجد شخصًا يتأفّف من توجيهاته، أو يتضايق من إرشاداته، أو يتحرّج من ملاحظاته، أو يستنكف من نصائحه، وقد قدّر لي – عدّة مرّات – أن ألاحظ ذلك. واحدة منها في يوم 2نوفمبر

1984، عندما فاض وادي زقرير ([79])، وطمّ مزارع القرارة، فألقى الشّيخ عدّون كلمة في المسجد عقب صلاة العشاء، حمد فيها الله – سبحانه – على نعمة الغيث، وطلب من النّاس أن يصبحوا في الحقول، لصرف المياه عن البقول، فلمّا أسفر الصُّبح، خرج النّاس أفواجًا أفواجاً لتنفيذ ما أمر به الشّيخ، فقلت في نفسي: ما أحوج الجزائر إلى هذا القائد المطاع، وإلى هؤلاء الجنود الطّائعين.

إنّ الشّيخ عدّون – لمن لا يعرفه – ليس بركة نائمة، بل هو بركة قائمة، وحركة دائمة، فهو رئيس " مجلس عمّي سعيد " أعلى هيئة شرعية واجتماعية عند إخواننا الميزابيّين([80]) ، يأمرهم – المجلس – بالمعروف فيأتمرون، وينهاهم عن المنكر فينتهون، ولا يجدون في أنفسهم حرجًا ممّا قضى، ويسلّمون تسليمًا؛ لأنّه يحكّم فيهم شريعة الله، فيقولون – شأن المِؤمنين – :" سمعنا وأطعنا "، لهذا فهو يحلّ في جلسة واحدة قضايا تعجز عن حلّها محاكمنا – الفرنسية الرّوح والإجراءات – في عدّة سنوات.

والشّيخ عدّون هو – أيضًا – رئيس" جمعية الحياة " ،الّتي جمعت النّاس – في القرارة – على الخير، وأحيتهم بالحبّ والتّكافل، وهو رئيس " معهد الحياة " المعمور، الذي أنار القرارة، وأضاء الجزائر، بِما خرّج من علماء، وأدباء،

---

[79] – وادٍ يسقي مدينة القرارة. (م.ن.ب).

[80] – مجلس عمّي سعيد هو الهيئة العليا لمساجد وادي ميزاب ووارجلان، نسبةً إلى الشّيخ عمّي سعيد الجربي، الذي أحيا العلم بميزاب في القرن الثّامن الهجري. ويشرف على الشّؤون الدّينية العامّة. ينظر كتاب نهضة الجزائر الحديثة...ج1، ص: 241 – 244. (م.ن.ب).

وهو ينافس أرقى المؤسّسات علمًا وتنظيمًا، ويفوقها تديُّنًا سليمًا، وخلقًا كريمًا، فلا تسمع في رحابه مكاء ولا تصدية.

وقد أضاف إلى الشّيخ الجليل أبناؤه أثقالاً مع أثقاله، فحمّلوه رئاسة " مجلة الحياة " الجميلة الإخراج، الرّاقية الأسلوب، القيّمة الأفكار، المعتدلة التّوجه، النّبيلة الأهداف، فحمل الأمانة ولم يكن ظلومًا ولا جهولا، وقد يظنّ غير العارف أنّ فضيلة الشّيخ لا يقدم لهذه المؤسّسات شيئًا عمليًّا، مكتفيًّا في ذلك بالرّئاسة الشّرفيّة، ومباركة القائمين عليها، ولكنّ العارف يعلم أنّه يشرف على ذلك - بقدر ما تسمح به ظروفه الصّحيّة والاجتماعيّة - من غير استبداد بالرّأي، أو انفراد بالقرار، أو عرقلة لسير الأعمال. مثله مثل قائد خبير، يشرك مساعديه في التّفكير والتّدبير، ويراقب التّنفيذ والتّسيير، مستعينًا بحكمة الكبير، وحيوية الصّغير، وما منهم إلاّ له مقام معلوم في ميدانه.

لقد قضى شيخنا عدّون أكثر من سبعين سنة في جهاد متواصل، وسعي دائب متكامل، في سبيل الإسلام والعربيّة والجزائر، فقد كان يشدّ عضد الإمام إبراهيم بيّوض في أعماله المتعدّدة، وكان يؤازر المجاهد العنيد أبا اليقظان في جهاده الصّحفي، ولا يزال - حفظه الله - يدلّ على الخير ويفعله، ويأمر بالبر ولا ينسى نفسه، يحذّر من الفتنة وينبّه إلى أخطارها، ويقف بالمرصاد في وجه دعاتها، وكلمّا أوقدوا نارها، سارع إلى إطفائها، لا يفرّق بين أحد من الجزائريّين، ويحثّهم على الوحدة الوطنيّة، الّتي " لا يضمنها ويوثق عراها - كما يقول - إلاّ الإسلام واللّغة العربيّة "، ويعتبر من قصّر في حقّ هذين العاملين، أو كاد لهما، ناقص الإيمان والوطنيّة.

وليعلم الذين شابوا قبل المشيب، أنّ الشّيخ عدّون قارئ دائم، فهو يتابع الصّحف والمجلاّت، ويطالع الكتب قديمها وحديثها، ودليل على ما أقول هو تشجيعه لي، ولأمثالي على ما " نخربشه " (بلغة أستاذنا مولود قاسم رحمه الله) وتعليقه على ما يكتبه غيرنا من الأساتذة، وقد خطّ بيمينه – منذ فترة قصيرة – رسالة إلى الأخ الدّكتور عبد الرّزاق قسّوم – الّذي أطلعني عليها – شكره فيها على الافتتاحية الّتي، كتبها للعدد السّادس من " مجلة الحياة "، فوجدتها تحفة أدبية،: لفظًا وغاية.

ونفيد الذين يحسبون التّدين عبوس وجه، وتصعير خد، وتقطيب جبين، وعقد حاجبين، وشزر عينين، وزمّ شفتين، وحدّة لسان، وغلظة جنان، نفيدهم بأنّ الشّيخ عدّون – على الرّغم من علوّ سنّه – وسموّ مقامه، وجلاء وقاره، وظهور ورعه..يحب النّكتة البريئة، ويستلطف الملحة النّظيفة، ويستظرف الطّرفة اللّطيفة، ويهتز للكلمة الجميلة، فيزنها بميزان الذّهب، لا بميزان الحطب.

أعرف أنّ الشّيخ الجليل سيضيق صدره بما كتبت؛ لأنّه لا يحب المدح، ولكنّني أعلم أنّه يعلم أنّني لست من المادحين، وإنّما أنا من الشّاهدين، المأمورين بأن لا يكتموا الشّهادة، وأن لا يبخسوا النّاس أشياءهم، ولذلك فأنا – فيما كتبت – لم أتصوّر، وإنّما صوّرت، مع اعترافي بالتّقصير في التّصوير، والقصور في التّعبير.

حفظ الله شيخنا الفاضل، وأطال عمره، ومتّعه بسمعه وبصره ما أحياه، ونفع به البلاد والعباد ما أبقاه (وسنة حلوة يا..)

دروس وعبر في حياة الشّيخ عدّون ([81])

الدّكتور محمد ين قاسم ناصر بوحجام

في حياة العظماء والكبراء دروس وعبر، واختزال للتّجارب والمحاولات، ومجال للإفادة من النّصائح والتّوجيهات. لأنّ هؤلاء مارسوا الحياة بكثير من التّجارب، وواجهوا الواقع بكثير من الصّبر والتّحدّي، وواكبوا الأحداث بكثير من الوعي وتحمّل المسؤوليّة، وساروا في هذا الكون سيرة ملؤها المفاجآت والطّوارئ، وعايشوا أنواعا من المفارقات والمتوافقات والمتناقضات، التي أوقفتهم على كثير من الحقائق التي يحتاج إلَى معرفتها من يريد أن يدرج في هذه الحياة بخطى ثابتة : من ناشئة وحديثي الصّلة بالعمل الاجتماعي والإصلاحي، وجديدي العلاقة بالمجال التّربوي، ومن هو في الطّريق في الصّعيد السّياسي، والذي لم يحذق بعد أسلوب التّعامل مع الفئات المختلفة من المجتمع : دينيّا واجتماعيّا وثقافيّا وتربويّا... فالحياة ذات أعباء ومفاجآت، وهي ذات تكليفات ومسؤوليات، وهي خاضعة دوما للتّجدّد والتّغيّر، والمرء فيها في حاجة دائما إلى من يأخذ بيده ليعلّمه كيف يتخطّى هذه الحياة بقوّة شديدة، وبثقة تامّة، وعدّة كبيرة...

هذه الدّروس والعبر والعظات والتّوجيهات نأخذها من حياتكم يا أبانا وشيخنا وأستاذنا عدّون بن بالحاج شريفي – حفظكم الله وأبقاكم –

---

[81]– نشر المقال في مجلّة النّهضة (سلطنة عمان)، عدد: 1101، 24 من ذي الحجّة 1423هـ/ 25 من فبراير 2003م.

بقيّة السّلف الصّالح، وقدوة الرّجال العاملين، وذخر الشّباب النّاهض، وفخر الأمة، وعنوان الدّاب والعمل والإخلاص والتّفاني والتّضحيّة.

اسمحوا لنا شيخنا الفاضل أن نستلهم من مسيرتكم الإصلاحيّة، ما يعين شبابنا على معرفة واجبه في هذه الحياة، ووعي رسالته في الوجود، وشقِّ طريقه الصّحيح في المسيرة الشّاقة والصّعبة التي تنتظره، وسط المتغيّرات التي قلبت الموازين، وغيّرت المفاهيم، وحرّفت المقاييس، فأبعدت النّشء عن الأهداف، وصدّت الأجيال عن المبادئ... ما أحوجنا جميعا إلى استلهام مسيرتكم، واستمداد عناصر الثّبات والاعتزاز والعمل من حياتكم عسانا؛ نفوز بما فزتم به من الفضل والأجر، وعسانا نفلح في تصحيح مسارنا، وإصلاح أخطائنا، وما أكثرها.

شيخنا الكريم سمعنا عنكم، وقرأنا لكم، وحُدِّثنا عن حياتكم. وعاشرناكم عن قرب، وشاركناكم في بعض الأعمال، وعرفنا كثيرا من أعمالكم، وخبرنا كثيرا من أخلاقكم... فلم نجد فيكم إلاّ جماع الأخلاق والفضائل.

سمعت المشايخ والأساتذة يثنون عليكم كثيرا، ويعلون من أخلاقكم، ويذكرون أفضالكم على الأمّة، فازددنا تعلّقا وإعجابا بكم. أثنى عليكم شيخنا فضيلة الإمام الشّيخ بيّوض، وكان يقول لنا: إنّ الشّيخ عدّون إخلاص يمشي على رجلين. وهذه لعمري درجة العاملين المتفانين في خدمة الغير بنكران ذواتهم. وقد سمعت الشّيخ بيّوض يقول عنكم في عرس ابنكم الدّكتور يوسف سنة 1971م : كلّ الأعمال التي تنسب إليّ هي من إنجاز

هذا الرّجل الجالس بجانبي، وكان يعنيكم أنتم. لقد وجد فيكم فضيلة الشّيخ بيّوض السّند والنّصير في حركته الإصلاحيّة، وفي نشاطه بعامّة. بل كان لكم الدّور الكبير المتميّز في كثير من إنجازات الحركة الإصلاحيّة. على رأس هذه المنجزات تأسيس معهد الحياة. فقد كان لكم دور أساس في نشأته، كان لروح التّجديد التي تتمتّعون بها، ولخلّة الإخلاص التي تتّصفون بها فضل في إقامة هذا الصّرح العتيد. فقد ألححتم على شيخنا القيام بإصلاح التّعليم الذي كان يشكو عقما وجمودا، وكانت النّتيجة التي جاءت بعد مطالبات متكرّرة جادّة منكم، ومساندة من زملائكم أن تأسّس معهد الشّباب، مقابل معهد كان يشكو الشّيخوخة والهرم، وتعليمٍ كان يعاني من العلل والسّقم. وبذلك نبّهتم إلى حقيقة وهي أنّ التّطوّر والتّجديد ضروريّان لضمان البقاء والاستمرار، وكلّ من أصمّ أذنيه عنها، وصادم هذه الطّريقة عرّض المجتمع لعاقبة وخيمة. وقد كان أن يحدث ما لا يسرّنا لو لم يستجب الشّيخ بيّوض لما دعوتم إليه، فالإنسان النّاجح في حياته هو الذي يكون وفيّا لعصره ، من دون أن يمسّ الأصول والمبادئ.

تعزّزت مكانتكم عند فضيلة شيخنا الإمام بيّوض، بما أظهرتموه من كفاية في تسيير المؤسّسة التّعليميّة والتّربويّة، وما أبديتموه من إخلاص في النّهوض بها تدريسا وتطويرا، فأسند إليكم مهمّة القيام بمعهد الحياة بصفة كليّة، وتخلّى الشّيخ عن المؤسّسة نهائيّا، وبقي هو رئيسا شرفيّا لها، وذلك حين كثرت أشغاله، وتوسّعت مجالات نشاطه. هذه الثّقة وهذه المسؤوليّة لم تأت من فراغ.

لقد شهدت صحيفة " الشّباب " على فضلكم في تنشيط الجوّ الأدبي في معهد الحياة، بِما كنتم تكتبونه من مقالات، وما كنتم تسدونه من نصائح لطلبتكم في مجال الكتابة، أخذا بأيديهم إلى مواطن التّكوّن، وتوجيههم إلى أساليب الكتابة والنّظم. بل كنتم أنتم تقومون - أحيانا - بِجمع الأعمال من تلاميذكم ونسخها في مجلّد صحيفة الشّباب، لتقرؤوها عليهم في جلسة تعقد أسبوعيّا لهذا الغرض. فأعطيتم المثال للحرص، واحتضان المواهب، وتوجيه الطّاقات، والتّواضع مع أبنائكم؛ بمشاركتكم لهم فيما هم الأولى بالقيام به، فلم تجدوا غضاضة في ذلك. وقد ذكرتم لِي مرّة أنّكم تقصدون الطّلبة في بيوتهم بعد ظهر يوم الخميس – أحيانًا - وتجمعون منهم الأعمال الأدبيّة، ثمّ تعكفون على نسخها في الدّفتر العام المعدّ لذلك؛ لتكون جاهزة للقراءة بعد العصر. أيّ تفانٍ هذا؟ وأيّ إخلاص هذا؟ وأيّ تواضع هذا الذي نقرؤه في نشاطكم؟ فطوبى لكم وهنيئا، وطوبى لمن يسلك مسلكم ويسير في طريقكم، ويتحلّى بأخلاقكم.

شيخنا لقد كنتم المصدر الأوّل في نقل معظم خطب شيخنا فضيلة الإمام بيّوض، التي كان يرتجلها في المناسبات المختلفة، وكنتم ببراعتكم وسرعتكم في الكتابة، وحرصكم على إفادة الأجيال بهذا التّاريخ وهذا التّراث، تتحمّلون مسؤوليّة القيام بهذا العبء الثّقيل، وهذه الأمانة التّاريخيّة. فأصبحت لنا هذه الخطبُ وهذه التّسجيلات والذّخائر معينا، نأخذ منه التّاريخ والدّروس. أذكر أنّني لمّا أردت أن أكتب شيئا عن شرح الشّيخ بيّوض لكتاب" فتح الباري شرح صحيح البخاري " لم يكن مصدري سوى

كلمتكم التي ألقيتموها في الحفل الذي أقيم في شهر فيفري سنة 1946م ؛ احتفالا بختم الشّيخ بيّوض شرح الكتاب.

وشيخنا المرحوم إبراهيم أبو اليقظان بدوره وجد فيكم الرّجل، الذي يعوّل عليه في نشاطه الصّحفي، فكنتم ممّن أسهم إسهاما كبيرا في تسويد صحائفه بالمقالات الرّائعة في مختلف الموضوعات، وكان يعوّل عليكم كثيرا في إفادته بالتّقارير الضّافية عن نشاط رجال الحركة الإصلاحيّة، فكنتم في مترلة المراسل للصّحيفة، تتّخذه وسيلة لنقل الأخبار وتقديم التّحاليل عن الأحداث، وأصبحت هذه التّقارير مصادر موثوقة ومهمّة للأحداث والواقعات التي حدثت في ذلك الوقت. وهي لنا اليوم وثائق تاريخيّة مهمّة. بل إنّ الشّيخ أبا اليقظان قد أوكل إليكم مهمّة إعداد افتتاحيّات بعض أعداد صحائفه حين غاب عن العاصمة (الجزائر)، وغادرها، لّما أحسّ بجدّية الاستعمار في القضاء عليه أو على الأقلّ التّنكيل به، أليست هذه نهاية الثّقة التي يضعها الرّجل العامل المخلص المناضل في شخص يراه صالحا أن يحقّق ما يهدف إلى تحقيقه؟ فلقد أغنيتم صحائف أبي اليقظان بأكثر من خمسين ومائة مقالة (150) وقصيدتين شعريتين.

قال عنكم أستاذنا الشّيخ محمد عليّ الدّبوز : " من جزاء الله للشّيخ بيّوض على حسن نيّته، وعمله لوجهه الكريم أن وهب الله له الشّيخ عدّون بن بالحاج، فكان من الطّلبة الأوّلين في معهده. وهو ممّن سعى في إنشاء معهد الحياة، وألحّ على الشّيخ بيّوض في إنشائه. وقد وجد فيه الشّيخ بيّوض كل الصّفات العقليّة والخلقية التي يريدها في تلميذه. كان مثالا في الذّكاء وقوّة

الحافظة، وفي الصّفاء وحسن النّيّة، وعذوبة الرّوح وظرف النّفس، ومثالا في الحزم وقوّة الإرادة والغرام بالعلم والجدّ فيه. فكوّن بهذا في معهد الشّيخ بيّوض جوًّا حيّا أنيسا، أثّر في التّلاميذ، وكان قدوتهم في الجدّ وحبّ العلم. ووجد فيه الشّيخ بيّوض كلّ ما أراد في الطّالب النّاجح، فازداد نشاطه. وكان لا يفتح دروسه إلاّ إذا حضر, ولا يجد نشاطه كلّه إلاّ إذا كان في درسه. وكان الشّيخ بيّوض يحبّه حبّا جمّا لصفاته العظيمة التي ذكرنا. ويحبّ الشّيخ عدّون أستاذه الشّيخ بيّوض حبّا عظيما، وهو مثال البرّ به، والاحترام والإكبار له إلى يومنا هذا، وهو في شيخوخته، وعلم من أعلام الإصلاح الممتازين في الجنوب " (أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2، ص : 202)

وشيخنا الأستاذ حمّو بن عمر فخّار خرّيج معهد الحياة، رئيس جمعيّة الإصلاح في غرداية، الذي يدين لمشايخه بالفضل عليه، أمثال الشّيخ بيّوض والشّيخ عدّون... كان يقول لنا: كلّما حدّثتني نفسي، وأظهرت لِي أنّني بدأت أتعب، ومن الأفضل أن أستريح، ورأيت شيخي وأستاذي الشّيخ عدّون ما يزال في الميدان يتحرّك، قهرت نفسي، وتشجّعت واستمددت الطّاقة لمزيد من العمل الدّؤوب والجهاد المتواصل. أليس في هذا الشّعور، وهذا الاسترفاد بركة وخير ونعمة وفضل؟

شيخي الفاضل اسمحوا لي أن أتحدّث عن نفسي وعلاقتي بكم، التي كانت كلّها بركة وخيرا وفضلا علينا، توّجت بشهادة تقدير من عندكم،

شهادة عليا([82])، ودعائكم لنا بالتّوفيق في أعمالنا ومشروعاتنا، التي تتابعونها عن كثب؛ رغم قلّتها، شهادة لا ينافسها سوى شهادة الوالدين.

التقيت بكم في معهد الحياة طالبا، فنهلت من علمكم وأخلاقكم ما نرجو أن يكون لنا زادا نافعا في حياتنا، وقد كان كذلك والحمد لله. ولا أنسى أبدا ذلك الموقف الجليل، الذي أبديتموه نحوي في شهر جوان (يونيو) سنة 1971م يوم أعلنت نتائج الامتحانات النّهائيّة، وكنت قد حصلت على المرتبة الثّانية. كنت غائبا عن المعهد مدّة تقرب من الشّهرين، وكنت قد أدخلت خطأ في الثّكنة العسكريّة لأداء واجب الخدمة الوطنيّة. عدت إلى المعهد، بعد أن سلّمت عليكم قلتم لي: غدا تدخل الامتحان مع زملائك, استجبت للأمر. ولّما أعلنت النّتائج, نوّهتم بي أمام الملأ. فكان هذا لي درسًا في الحزم تعلّمته منكم، وكان لي موعظة في الاستجابة لنداء المخلص الذي يدعوك إلى طريق الخير. وكان لي مثالا للمربّي الذي يعرف كيف يأخذ بأيدي النّشء ولو بالكلمة الطيّبة والتّشجيع بالقول.

ازدادت علاقتي بكم حين كنت مدرّسا في مدرسة الهداية بالعاصمة (الجزائر) في المرحلة الابتدائيّة، وكنتم المفتّش (الموجّه)، فعرفت فيكم الرّجل المخلص المجرّب في مجال التّربية، وقد كانت توجيهاتكم لنا نبراسا في مسيرة التّعليم. في هذه الفترة عرفت مكانتي عندكم (التي اعتزّ بها)؛ حينما طلبتم منّي سنة 1978م الالتحاق بمعهد الحياة للتّدريس، حينها اعتذرت لكم هذه

---

[82] – الشّهادة عبارة عن رسالة أرسلها إليّ شيخي الفاضل، وأنا أحتفظ بها من أغلى الكنوز والهدايا، التي لا تقدّر بثمن.

السّنة، على أن بكون ذلك في السّنة القادمة. ولّما حضرتم للتّفتيش في السّنة الموالية(1979م)، أعدتم عليّ الطّلب، وذكّرتموني بالوعد السّابق، فما كان لي إلاّ أن أستجيب لهذا. وقد عددت هذا رفعا من قدري، أن يطلبني شيخي، ولا ينساني مدّة سنة كاملة, فازددت ثقة بنفسي، وتعلّقا بوالدي الرّوحي.هذه هي حقيقة الأبوّة الحانيّة والأستاذيّة الحميمة.

عرفتكم في معهد الحياة مدرّسا، وقد اكتشفت فيكم الوالد الحاني، والأستاذ المتواضع، والمدير المرن في الإدارة، والعظيم الذي يرى العظمة في البساطة. والمسؤول الحريص على المحافظة على ما هو تحت مسؤوليته. الوفيّ لمن سبقه في الميدان. الرّجل الذي يقدّر جهود العاملين، الأب الذي يرعى طموح الشّباب، ويتفهّم أفكار النّاشئة، فيحارب كلّ ما يئد الطّموح، وكلّ ما يميت المبادرات، ويقتل المواهب.

عرفتكم في الجلسات جادّا صارما، محاورا لبقا متواضعا، متفتّحا متسامحا، ظريفا مداعبا منكّتا، هذه لعمرك صفات قلّ ما تتوفّر أو تجتمع في شخص واحد، وقد كنتم جامعها، هذا ما يجعلكم قدوة لنا ومثالا يحتذى.

كما لا أنسى عدم موافقتكم لي الانقطاع عن التّدريس في معهد الحياة، بعد أن طلبت منكم ذلك سنة 1986م؛ لأنّكم رأيتم أنّ ذلك يضرّ بالمؤسّسة. وقد عددت ذلك شهادة تقدير أخرى لي؛ لأنّها عزّزت مكانتي عندكم، ثم قبلتم منّي الطلب نفسه سنة 1987م عام حصولي على شهادة الماجستير؛ وقد رأيتم أنّني أفيد في جهة أخرى، بما يعود على المجتمع بالخير. فازددت إعجابا بكم ؛ بسبب مواقفكم التي تدلّ على الأصالة في اتّخاذ

القرار، فقرأت في الموقفين الصّرامة والمحبّة والعطف وتحمّل المسؤولية والمرونة وحسن التّصرّف وحسن تقدير الأمور... فقلت في نفسي هذه دروس أخرى تضاف إلى ما نأخذه من سيرتكم، يضيء لنا السّبل في حياتنا.

عرفتكم في الجلسات التي كنتم تديرونها وتشرفون عليها، سواء في إطار جمعيّة قدماء التّلاميذ أم جمعيّة التّراث أم جمعيّة الحياة، أم في إطار هيئات أخرى، وما أكثر هذه الهيئات التي تتولّون رئاستها وإدارتها. لقد كنتم الرّئيس المحنّك، والمدير المجرّب، والقائد الملهم، تعرفون كيف توجّهون المناقشة، ومتى تنهون الحوار، ولمن تسندون المهمّات، وإلى من تكلون المسؤوليات. وقد تكون بعض الجلسات حامية الوطيس في المناقشات، وتكون بالغة الخطورة في تباين الآراء في بعض القضايا المصيريّة، لكن بإخلاصكم وحسن نيّتكم ولباقة تصرّفكم وكفايتكم، كان الله يوفّقكم إلى إنهاء الجلسات في أحسن ما يرام : نتائج وقرارات، ونبذ ما كان قد ساد هذه الجلسات من توتّر أعصاب أو تناقض في الآراء. وقد حضرنا كثيرا من هذه الجلسات، وتعلّمنا منها الكثير، في مجال معرفة كيفية مواجهة المشاكل، وعلاجها؛ بما يحفظ الودّ، ويرعى الصّداقة، ويبقي الباب مفتوحا للمبادرات.

كيف نستطيع أن نعدّد مواقفكم؟ وكيف نستطيع أن نتتبّع مسيرتكم؟ وكيف نقدر أن نحصي أخلاقكم؟ وكيف لنا أن ندّعي الإحاطة بمكامن العبر في حياتكم، التي يفيد منها كلّ فرد، مهما يكن مستواه ومكانته؟؟ ما نرجوه أن يوفّقنا الله تبارك وتعالى لاستلهام سيرتكم، وقراءة فكركم قراءة متأنية فاحصة، ليكون لنا ذلك صوى ومنارات في حياتنا وحياة

أبنائنا، الذين يعيشون حالات الاستلاب الثّقافي والفراغ الرّوحي، وخطر الانجذاب إلى ثقافات وافدة خطيرة على أصالتنا. ومشكلة الزّهد في فكرنا وعاداتنا وتقاليدنا.

كما نرجو أن يفيد مسؤولونا من أخلاقكم في التّسيير والتّوجيه، والأخذ بأيدي الشّباب، وأن يتمتّعوا بما تتمتّعون به من الأصالة في التّفكير، والمرونة في التّسيير، وفتح المجال للمبادرات، ومنح الفرص للعاملين كي يشاركوا في بناء المجتمع، وفسح الميدان للنّاس الأكفاء كي يشغلوا مكانهم الحقيقي. وهذا ما تعلّمناه من مشوار حياتكم الطّويل، الذي نسأل الله العليّ القدير أن يمدّ فيه؛ حتّى يفيد منه المجتمع والأمّة الإسلاميّة. حفظكم الله ورعاكم وأبقاكم لنا ذخرا وجزاكم خير الجزاء، فما عند الله خير وأبقى.

نزوى يوم : 20 من ذي الحجّة 1423هـ

21 من فبراير 2003م

ابنكم : **محمد بن قاسم ناصر بوحجام**

الشّيخ عدُّون معدن التّجديد والتّطوير ([83])

الدّكتور محمد بن قاسم ناصربوحجام

نبأ عظيم نزل كالصّاعقة على الرّؤوس، وخطب جليل وقع كالصّخرة على النّفوس، هزّ الأركان، وَأزّ الكيان. زعزع القلوب، وزلزل الجُنوب. إنّه نبأ وفاة والدنا وشيخنا وأستاذنا الشّيخ عدّون (سعيد بن بالحاج شريفي) رحمه الله. ففي سحر يوم الثّلاثاء: 19 من رمضان 1425هـ الموافق لـ: 02 نوفمبر 2004م. نعي إلينا انتقال شيخنا إلى مثواه الأخير، ونَهَى إلينا رحيلُه عنّا إلى الرّفيق الأعلى، إلى جنّة المأوى، إلى جوار أولياء الله الصّالحين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، إلى حيث يقال له ﴿**إنّ المتّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ**﴾(الحجر: 45، 46) ﴿**سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ (الرّعد: 24) إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ (الفجر: 27 - 30).

إنّ شيخنا المرحوم كان ركنا ركينا في الحركة الإصلاحيّة، التي

---

[83] - مجلّة الحياة (معهد الحياة)، العدد: العاشر. ص: 255 – 261.

حمل لواءها شيخنا المغفور له الشّيخ إبراهيم بن عمر بيّوض. بل كان نقطة الارتكاز في هذه الحركة، وحجر الزّاوية فيها، وقطب الرّحى في تلك النّهضة، وقد أسهم إسهاما كبيرا وفعّالا في مختلف مجالات الإصلاح: العلميّة والثّقافيّة والاجتماعيّة والسّياسية.. وقد صرّح الشّيخ بيّوض نفسه أنّ كثيرا من الأعمال والإنجازات التي كانت تنسب إليه، هي في الحقيقة من أعمال الشّيخ عدّون، وبعضها كان الأداة الفعّالة الرّئيسة فيها.

يكفي أنّه كان العضد الأيمن للشّيخ بيّوض في كامل مراحل جهاده وكفاحه ونضاله... وأنّ الشّيخ أعطى فيه الثّقة، بعد أن قال عنه: "إنّ الشّيخ عدّون إخلاص يمشي على رجلين"، فسلّم له مقاليد كثير من الأمور، بعد أن كثرت أعماله، واتّسع نطاق نشاطه، وحين دخل معترك السّياسة في الأربعينيّات. وبخاصّة إدارة معهد الحياة, وشؤون التّعليم بعامّة.

يكفي أنّه المسجّل والحافظ الدّقيق الأمين لمسيرة الشّيخ بيّوض الدّعوية والإصلاحية، فقد كان يرافقه في أغلب أسفاره، ويشاركه في معظم أعماله، وكان يرصد نشاطه، ويسجّل ما دقّ وما كبر وما صغر من هذه الأعمال. لقد كان المصدر الوحيد لكثير من الخطب التي كان يلقيها الشّيخ بيّوض في المناسبات المختلفة – وما أكثرها – إنّ الشّيخ

بيّوض كان يرتجل خطبه، والشّيخ عدّون يتابعه بدقّة، ويسجّل كلّ ما يتفوّه به بسرعة فائقة، وبمهارة الصّحفي المحترف المسؤول، الذي يرى نفسه مَعْنِيًّا بنقل الواقعات ورواية ما يُنْطَقُ به بأمانة ودقّة. فمعظم خطب الشّيخ بيّوض التي أثبتها أستاذنا المرحوم الشّيخ محمد عليّ دبوز في كتبه، كانت من تسجيل الشّيخ عدّون بخطّ يده.

إنّ الشّيخ عدّون كان يحمل لواء التّجديد والتّطوير والتّغيير، ويرفع شعار المضيّ بالمسيرة نحو الأحسن، ويسير في العمل بالأفضل من الوسائل، ويختار للنّشاط الأنجع من السّبل. يأخذ بأيدي الشّباب، ويشجع المبادرات الهادفة، ويفسح المجال للمحاولات الجادّة، ويفتح قلبه للنّوايا الطّيّبة، ويبعث الثّقة في أبنائه، ويزرع فيهم المودّة والعطف، ويتلقّاهم بروح الأبوّة الرّحيمة الشّفوقة على البنوّة الضّعيفة الوديعة.

دليل ذلك إسهامه الكبير في تأسيس معهد الشّباب (معهد الحياة)، فقد حصل ذلك نتيجة ملازمته أستاذه الشّيخ بيّوض، ومطالبته بالتّجديد في أساليب التّعليم، بعد أن ضاق ذرعا بالطّرق العقيمة المتّبعة في التّدريس في المعهد الذي كان يتعلّم فيه مع بقيّة زملائه، وبخاصّة وقد آنس من جانب شيخه القدرة على التّطوير، لكنّه كان يتلكّأ لدواع وأسباب، لم تقنع الفتى الطّموح، ولم تكبح رغبة النَّهِم الجموح. فطالبه بكلّ إلحاح، وصل إلى حدّ التّلويح بالانفراد بالمبادرة، التي قد

يندم الشّيخ بيّوض بعدها على عدم الاستجابة للمطلب الشّرعي والطّبيعي للطّالب الألمعي والفتى اللّوذعي. فقام الشّيخ فلبّى رغبة تلميذه، فأسّس المعهد في شوّال 1343هـ/ ماي 1925م.

يقف شاهدا على ما أشرنا إليه ترؤسّه لجمعيات الشّباب، التي كانت تضمّ طلبة معهد الشّباب في جلسات أسبوعيّة، يلتقون فيها للتّباري والتّدريب على الخطابة والنّقد وقرض الشّعر، والمناظرات الأدبيّة والعلميّة... فكان يترأسّ ويوجّه ويصوّب وينقد ويشجّع... كما كان يتولّى رئاسة تحرير جريدة الشّباب المخصّصة لنشر المقالات والقصائد الشّعريّة والفصول النّقديّة والمسرحيّات والقصص والمناظرات الأدبيّة والعلميّة... وقد كان دور الشّيخ بارزا في توجيه الطّلبة، والأخذ بأيديهم نحو التّكوّن. وقد تخرّج في هذه الجريدة أدبيّا مجموعة من الأدباء الذين أصبحوا أعلاما متميّزة في سماء الأدب، وأقلاما بارزة في فضاء الكتابة. أمثال الأدباء والمشايخ: عليّ يحى معمر، محمد علي دبّوز، حمّو بن عمر فخار، محمد بن سعيد كعباش، محمد الحاج النّاصر، إبراهيم بن يحي الحاج أيّوب (قرادي) صالح بن صالح الخرفي، الأخضر السّائحي...

ويسند عرضنا هذا تشجُّع كثير من أصحاب المبادرات في المضيّ قدما في مبادراتهم، بفضل تشجيع الشّيخ عدّون لهم وتوجيههم،

ومباركة خطواتهم، بل محاسبتهم -أحيانا - على تقصيرهم فيما بادروا به، وما تبنّوه من مشروعات وأساليب ووسائل... وكان يدافع عن المبادرات وعن المحاولات، ويردّ عنها جَهْلَ النّاس بها وبأهمّيتها وأهدافها، وتَنَكُّر آخرين لفضلها ودورها، ووقوف بعضهم حجر عثرة في سبيل تحقيقها... الأمثلة على ذلك كثيرة، نجدها في قيام الجمعيّات الأدبيّة والثّقافيّة والاجتماعيّة وأداء عملها: كجمعيّة الحياة وجمعيّة قدماء التّلاميذ وجمعيّة التّراث وأنغام الحياة... ونقف عليها في سير معهد الحياة ومدرسة الحياة، إذ نجد الشّيخ عدّون واقفا -دائما- بجانب الدّاعين إلى التّطوير والتّجديد والتّغيير، يردّ عنهم دعاوي المعارضين لذلك، ويصدّ عنهم هجومهم ووأدهم لطموحهم. فإذا تفوّه أحدهم - حين يدعى إلى اتّباع أساليب جديدة في التّدريس، ومتابعة العصر في تطوّره - بقوله: «تلك مشية لا أعرفها» يكون الرّدّ عمليّا بلسان حال الشّيخ عدّون -رحمه الله -: «تأكّد أنّك ستألفها والزّمن طويل».

ونعثر على الدّليل والبيان في الإسهامات الفرديّة والجماعيّة، التي تعتمد التّغيير نحو الأحسن، والبحث عن الأفضل، والتي تتّجه نحو البديل عن الموجود العقيم، والقائم السّقيم، وما يفيد الحصول على الخير العميم. فقد كان الشّيخ عدّون يرعى هذه المحاولات ويهتمّ بها،

ويساير سيرورتها، ويتابع مسيرتها، ويرقب نتائجها، ويحاسب على التّقصير فيها؛ إيمانا منه أنّ كلّ فرد أو جماعة معنيّة بالعمل والحركة والقيام بالواجب، وأنّ كلّ من يملك طاقة من حقّه أن يستثمرها في سبيل الخير والعمل للرّفع من المستوى، والخروج من التّخلّف. متيقّنا أنّ المسؤولية منوطة بالجميع، لا تخصّ سنّا معيّنة، ولا ترتبط بفئة خاصّة، ولا توكل بشريحة متعيّنة، كلّ يشارك بما يمليه الواجب، ويقتضيه المقام، ويفرضه الواقع، وتدفع إليه الكفاية، وتدعو إليه المصلحة، ويسوق إليه الطّبع...

لقد سمح هذا التّوجّه ببروز كفايات، والكشف عن مؤهّلات، واستثمار طاقات، واحتضان مبادرات، وتوزيع مسؤوليات، واحترام تخصّصات، واحتواء محاولات... وكان نتيجة كلّ ذلك ارتياح السّراة والأعيان والمشايخ واطمئنانهم على استمرارية النّهضة ومواصلة المسيرة، وضمان الوفاء للمبادئ والأصول؛ لأنّ الشّيخ عدّون وأمثاله ساروا بهذا المنهج، وكافحوا بهذه الطّريقة، وقادوا العمل بهذه النّظرة، ومن بقي بعيدا لم يسلك هذا الدّرب، ولم يقتفِ هذا الضّرب، وجد نفسه بحلّق في غير هذا السّرب.

ممّا يسجّل للشّيخ عدّون استماتته في الدّفاع عن الإصلاح، إصلاح الدّين، إصلاح النّفوس، إصلاح المناهج، إصلاح التّربيّة والتّعليم،

إصلاح العادات والتّقاليد، إصلاح العلاقات، إصلاح الفكر،إصلاح طرق التّعامل مع الحياة المتجدّدة المتغيّرة... لذا كان مسهما ومرابطا – بخاصّة – في الحركة الإصلاحيّة التي قادها الشّيخان إبراهيم بن عمر بيّوض وإبراهيم بن عيسى أبو اليقظان ـــ رحمهم الله ـــ. وكان منافحا ومدافعا عنها بكلّ ما أوتي من قوّة، وكان حريصا على رصدها، وإطلاع الأجيال المتلاحقة على تفاصيلها: منطلقا وهدفا وسيرورة وصيرورة، وقوّة وضعفا، وعراقيل ومطبّات، ومنجزات وآفاقا وأعلاما ورجالا عاملين. لا يفوّت أيّة فرصة تتاح له فيقدّم للشّباب نبذا من هذه المسيرة، تبعث فيهم روح التّضحيّة والعمل، وتنهض بهم من الخمول والخمود والهمود والجمود.

ممّا يشهد له به في هذا السّياق حرصه الشّديد على تطبيق شرع الله، بداية من أسرته و تربية أبنائه، مرورا بمعهد الحياة والمدارس التي يشرف عليها، وتوجيه تلاميذه ونصح المعلّمين والأساتذة، وإظهار السّخط والغضب على كلّ انحراف يلاحظه في الميدان، في السّلوك أو المنهج, وصولا إلى المجتمع بكلّ شرائحه وطبقاته. فقد كان يوجّه الصّغار، وينصح الكبار, ويذكّر المسؤولين حتّى في المستويات العليا من الحكم، عملا بتوجيه ﷺ: النّصيحة لله ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم.

من هذه المجالات التي أعطى لها نَفْسَه، وأنفق نفيسه، وأطال فيه نَفَسَه، مجال اللّغة العربيّة. فإلى جانب طول المدّة التي قضاها في تدريس اللّغة العربيّة، قواعد ونصوصا أدبيّة، كان الحامي للّغة من العابثين بها، والخاذلين لها، والرّافعين لواء الهجوم عليها والانتقاص منها، وتهميشها في الحياة العامّة. فكان متعصّبا لها؛ حين أبدى زائغو العقيدة، وضعفاء الإيمان، ومهزُوزُو الكيان، احتفاءهم باللّهجات المحليّة، على حساب لغة القرآن، ولغة الدّين، واللّغة الجامعة للقلوب، والحامية للأصالة، والبانية للكيان، والضّامنة للبقاء...حين سار هؤلاء في هذا الدّرب تصدّى لهم بقوّة، بخطبه وتقريعاته ورفضه الإنشاد بغير اللّغة العربية، وكتابة القصائد بغيرها. إنّ ذلك هو شعور المؤمن الصّادق الذي يضع الدّين فوق كلّ اعتبار، ويصرّ على ذلك كلّ الإصرار،مهما يلحقه جرّاءه من أضرار، وهو يعلم أنّه يؤوب بالانتصار وأيّ انتصار. وفي هذا يقول الدّكتور محمد بن صالح ناصر مخاطبا الشّيخ عدّون:

وَقَوَافِلُ الأَجْيَالِ كَمْ وَرَدَتْ بِحَوْضِك تَنْهَلُ الفُصْحَى كُؤُوسًا أَحْمَدِيَّــه

ماذا نقول وماذا نُبقِي في حياة مربّي الأجيال؟ وماذا نبدي وماذا نعيد في مسيرة صانع الرّجال؟ حسبنا تقديم نبذة من ذلك، نبرّ بها

شيخنا، إن كان هذا يشفع لنا ما له علينا من حقّ، ولا أظنّه يشفع. ويكفينا عذرا تحسيس الأبناء بقيمة هذا الرّجل العظيم، وتوجيههم كي يقتفوا أثره، ويتتبّعوا خبره، وينشروا فكره، ويذيعوا ذكره، وما أَحسبُنِي بلغت بهم هذا الهدف، فما يزال الجوهر مكنونا في الصّدف. فما عليهم إلاّ أن يغوصوا في هذا البحر، ففي أحشائه درر وغرر. نختم هذه الخواطر بأبيات لأستاذنا الدّكتور محمد بن صالح ناصر، من قصيدة طويلة قالها في حقّ الشّيخ عدّون بعد أن تجاوز المائة من عمره:

الوَعظُ عِندَكَ لَيسَ قَولاً، إنَّهُ مُثُلٌ تَجَسَّدُ في سُلُوكِكَ سَرمَدِيّـــه
وَالجِدُّ عِندَكَ في التَّعلِيم فِطْرَةٌ مَوصُولَةُ الأَنفَاس صُبْحًا بالعَشِيَّه
عَلَّمْتَنَا أَن لاَ نَرَى غَيرَ السَّمَاء تَدَيُّنًا، وَتَسَامِيًا فَوْقَ الدَّنِيَّـــه
وَتَطَلُّعًا لِلعِلْم لَيسَ بمُنْتَهٍ، مَا لَمْ يُشَوِّهْ مِن أَصَالَتِنَا الغَنِيَّـــه
لَقَّنْتَنَا قِيَمَ الصَّلاةِ، فَحوَّلَتْ مِنَّا النُّفُوسَ مَآذِنًا شَعَّتْ سَنِيَّـــه
عَوَّدْتَنَا فَرْضَ الجَمَاعَةِ، فَانْصَهَرْنَا في الجَمَاعَةِ لاَ نَدِينُ بطَائِفِيَّـــه
فَتَّحْتَ أَعيُنَنَا بنُور الفَجْر، فَانْجَابَتْ دَيَاجي كُلِّ مُشكِلَةٍ عَصِيَّـــه
وَأَضَأْتَ مِن نُور الكِتَاب طَرِيقَنَا، فَتَوَجَّهَتْ نَحْوَ المَعَالِي مَسْجدِيَّـــه
وَتَوَحَّدَتْ خَطَوَاتُنَا نَحوَ الغَدِ البَسَّام، نَمْضِي في طَرِيق سُنْدُسِيَّـــه
الدِّينُ أَرضَعَنَا، فَآخَى بَيْنَنَا، وَالدِّينُ لِلأَفْكَار رَابطَةٌ قَوِيَّـــه

رحمك الله -شيخنا - رجلا أصلح نفسه، ثمّ دعا غيره. ورحمك

شهما عاش أبيّا، وملّك المجتمع أمره، ورحمك مجاهدا عمل مع زعيم الأمّة، وشدّ أزره، ورحمك عظيما أحسن إلى نفسه، وعرف قدره، ورحمك امرأ عمّر طويلا، وأهدى للنّاس خيره، ورحمك أبا عطوفا، رعى محيطه وغيره... ورحمك ورحمك. سلام عليكم في الأوّلين والآخرين، وسلام عليكم في علّيّين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

باتنة يوم الإثنين: 25 من رمضان 1425هـ

08 من نوفمبر 2004م

الشّيخ عدُّون وجمعية قدماء التّـــلاميذ [1]

الأستاذ محمد بن سليمان أبو العلا

للشّيخ عدُّون ــ رحمه الله تعالى ــ دور رئيس في إنشاء جمعية قدماء التّلاميذ وتسييرها وتنشيطها؛ بقيت بصماته فيها خالدة إلى اليوم ــ بعد وفاته ــ وسيبقى أثره ما دام وجود هذه الجمعية.

إنّ هذا الدّور لجدير أن يعرف في لمحة موجزة، عرفانا بصنيع الشّيخ، وتخليدا لمآثره في هذا الحقل الثّقافي والاجتماعي الهام، واعتبارا واقتداء بما فعل مشايخنا.

الشّيخ عدُّون ونشأة الجمعية:

للشّيخ عدُّون الفضل الأول على جمعية قدماء التّلاميذ بدءا بتأسيسها. كيف ذلك؟ وللجواب على هذا لا بدّ من العودة إلى تاريخ نشأة جمعية قدماء التّلاميذ.

لقد ارتبطت بين طلبة معهد الحياة ــ من مختلف قرى ميزاب وغيرها ــ كلّ أواصر المحبّة والإخاء والصّفاء، ودامت عراها موثوقة بينهم، ولو بعد تخرجهم، فهم يفرحون كثيرا بلقاءاتهم في مناسبات واجتماعات في

---

[1] – مجلّة الحياة (معهد الحياة)، العدد العاشر، ص: 262 – 268.

أيّام معيّنة، يتبادلون فيها عواطفهم وآراءهم وانشغالاتهم الدّراسية والاجتماعية العامّة، هذا زمن دراستهم، فكذلك بعد تركهم مقاعد الدّراسة يتوقون إلى مثل تلك الاجتماعات، ويَحِنُّون إلى مهدهم التّربوي والتّعليمي، لما وجدوا فيه من آثار طيّبة في نفوسهم وعقولهم وحياتهم العامّة. ومن جهة أخرى إن الشّيخ بيُّوض ــ رحمه الله تعالى ــ الذي تحمّل أعباء ثقيلة، وخاض معارك كبيرة في جهاده الإصلاحي، هو في حاجة إلى وقوف أبنائه جميعا وراءه صفًّا مرصوصا، وقوّة صامدة يعينونه في جهاده ويحفظونه في معاركه. ما الذي يُحقِّق هذه الغايات؟ إنشاء جمعية موحدة.

هذه كلّه من العوامل التي جعلت بعض قدماء تلاميذ الشّيخ بيُّوض تراودهم فكرة جمع الشّمل وتوحيد العمل، وذلك بعقد اجتماعات عامّة، أو تكوين جمعية تقوم بهذه الواجبات، على رأسهم الشّيخ عدُّون رحمه الله تعالى.

خطرت في ذهن الشّيخ عدُّون فكرة جمع الطّلبة المتخرّجين من معهد الحياة، واستثمار جهودهم وطاقاتهم وأفكارهم، فحانت فرصة ذلك في اجتماع لأعيان وادي ميزاب وقدماء الطّلبة في القرارة، لما أقام الشّيخ عدُّون عرس ابنه البكر بالحاج في شهر ماي سنة 1948، فتداول المجتمعون فكرة إنشاء جمعية لهم، واعتبر هذا الاجتماع قدح

الزّند لتحقيق الرّغبة، عرض الشّيخ عدُّون الفكرة على الشّيخ بيُّوض — كان حينذاك عضوا في المجلس الجزائري — فرحب بها وشجّعه على العمل.

تحمّس الشّيخ عدُّون وسارع إلى تنفيذ المشروع، بتوجيه الدّعوة إلى عدد كبير من قدماء الطّلبة من مختلف المدن لاجتماع عام لأوّل مرّة في يوم 29 رمضان 1367 هـ الموافق لـ 05 أوت 1948م، وتمّ بتوفيق من الله تعالى هذا المؤتمر في دار الشّيخ بيُّوض المقرّ القديم للمعهد، ومقرّ الذّكريات التّلمذية والتّعليمية لهؤلاء المدعوّين.

كان يوما مشهودا قال عنه الشّيخ محمد علي دبوز: «وكان اليوم عيدا عظيما للقرارة التي تستقبل أبناءها الذين أحبّتهم، ولأسرة المعهد من المشايخ والتّلاميذ الذين يجتمعون بأبنائهم وإخوانهم بعد غياب طويل، وعيدا عظيما ترقص به قلوب التّلاميذ القدماء، وهم يدخلون القرارة أمّهم الرّؤوم، ودار المعهد الذي هو أعزّ مكان عندهم في الوجود»[1]. ويواصل الشّيخ محمد علي دبوز وصف حالة المدعوّين المشاركين النّفسية، وبهجتهم بلقائهم:

«والفضل الثّاني للشّيخ عدُّون في هذا المؤتمر بعد فكرة انعقاده هو خطابه الأوّل والقيّم الذي ألقاه بعد افتتاح الجلسة من طرف الشّيخ بيُّوض،

---

(1) محمد علي دبوز:.نهضة الجزائر الحديثة ج3/ ص 189.

وكان خطابا في غاية الأهمية موضوعا، وفي أعلى المراتب بلاغة وبيانا»[2].

قال عنه الشّيخ محمد علي: «... خطبة المدير (أي الشّيخ عدُّون) التي تفجّرت من أعماقه وألقاها بكلّ جوارحه، وكان القدماء يرون معانيها في وجهه وبريق عينيه قبل أن يلفظ بها، فتأثّروا بها تأثّرا بالغا حتى سالت دموع الكثير منهم»[3]، وحكم عليه الشّيخ بيُّوض بأنه «دستور الجمعية».

عاش المؤتمرون ثلاثة أيام يتبادلون الخطب والكلمات، والآراء والمقترحات، توّجت بخطاب هامّ للشّيخ بيُّوض، فإذا قال الشّيخ بيُّوض عن خطاب الشّيخ عدُّون إنّه دستور الجمعية، فإن خطاب الشّيخ بيُّوض كان دستور الأمّة. (يطالع في نهضة الجزائر الحديثة ج3).

أسفَر هذا المؤتمر في الأخير عن تسمية الجمعية باسم جمعية قدماء التّلاميذ، وانتخاب مجلس إداري لها، يرأسه الشّيخ عدُّون ــ بحكم عضوية الشّيخ بيُّوض في المجلس الجزائري ــ ووضع قانونها الأساسي يتضمّن أغراض الجمعية وتشكيلها ولجانها.

وتركّزت أغراض الجمعية في بدايتها على ما يلي:

1. توجيه التّلاميذ المتخرّجين من المدارس إلى صالح الأعمال، وتحقيق

---

(2) ينظر هذا الخطاب الهامّ في آخر هذا البحث.

(3) محمد علي دبوز. نهضة الجزائر الحديثة ج3/ ص 194.

غايتهم من طلب العلم.

2. إرشاد من ظهر منه انحراف عن الصّراط السّويّ اللاّئق بمقام المتعلّمين.

3. معاضدة المشاريع العلمية ببثّ الدعاية إليها، وإعانتها بكلّ ممكن.

4. العمل للإصلاح العلمي والاجتماعي بكلّ الوسائل الممكنة على حسب الاستطاعة.

5. إعانة التّلاميذ الفقراء العاجزين عن إتمام دراستهم.(4)

ولتحقيق هذه الأغراض قُسِّم الأعضاء على ثلاث لجان رئيسية هي: لجنة التّربية والتّعليم، لجنة الاجتماع، اللّجنة الاقتصادية.

وتحصّلت الجمعية على الرّخصة من الحكومة الاستعمارية بعد جهود جهيدة، ومساع عظيمة، قام بها الشّيخ بيُّوض وبعض أعضاء الجمعية.

ثم اتّسعت دائرة عضوية الجمعية من المتخرّجين في المعهد، فعمّت كلّ تلميذ تخرّج من مدرسة نظامية خاصّة أو عامّة، واتّخذت الجمعية مقرّها الرّسمي بالقرارة، وفروعها في مدن وادي ميزاب والجزائر العاصمة، لذلك تشكّلت إدارتها من ممثّلين لمدن الوادي والعاصمة، وعيّنت لجنة دائمة قائمة

---

(4) ينظر كتاب "معهد الحياة نشأته وتطوّره" شريفي سعيد (الشّيخ عدُّون) ص 69.

في المركز (القرارة) تباشر أعمالها، كما احتضنت الجمعية لجنة توحيد التّعليم التي قد أسّست قبل جمعية قدماء التّلاميذ بسنتين، فاندمج فيها مؤتمر المعلمين التّابع للجنة التّوحيد، فكانت جمعية قدماء التّلاميذ مشرفة على التّعليم الابتدائي في مدارس الإصلاح في ميزاب وفي الشّمال، وعيّن الشّيخ عدُّون مفتّشا عامًّا لها يجول عليها سنويًا.

وهنا نجد التّمازج والتّكامل بين مهام جمعية الحياة سابقة التّأسيس في سنة 1937 وجمعية القدماء الحديثة، إذ سارتا جنبا إلى جنب واشتركت مهامهما؛ لأنّ رئيسهما واحد هو الشّيخ عدُّون وأغلبية أعضاء إدارة الجمعيتين مشتركون بين الإدارتين، فلا اختلاف بينهما إلاّ ترسيما ونظاما، ومع ذلك اختصّت جمعية الحياة بشؤون التّعليم الحرّ التّابع لها برمجة وتسييرا وتمويلا، بينما اهتمّت جمعية قدماء التّلاميذ بكلّ أمور وقضايا المجتمع.

استمرّت جمعية قدماء التّلاميذ في نشاط جاهد تحت رئاسة الشّيخ عدُّون، تنفّذ أغراضها التي تأسّست لأجلها وزيادة، ولعبت دورها أثناء الثّورة التّحريرية بكلّ ما في وسعها، تحت مسؤولية الشّيخ بيُّوض وكبار تلامذته؛ توعية ودعاية وتنظيما وتموينا، وهكذا في تقدّم مطّرد وعمل دؤوب، إلى سنة 1963 بعد الاستقلال، حاول بعض أعداء الجمعية وأعداء إصلاح الشّيخ بيُّوض القضاء على نشاطه ومؤسّساته وهياكله، منها

هذه الجمعية وحركتها؛ فأوعزوا إلى السّلطات الحزبية والعسكرية على منع اجتماعها العام المبرمج، وشلّ سيرها، فكان لهم ذلك، ووصلوا بعض هدفهم، غير أنّهم لم يستطيعوا أن يقضوا عليها نهائيا؛ يريدون أن يطفئوا نور الله والله متمُّ نوره...

جدّد تأسيسها وبعث نشاطها، غير أنّها اقتصر تسييرها هذه المرّة على مدينة القرارة، فقامت مقام الأعيان، وشمل نشاطها كلّ انشغالات وتطلّعات المجتمع سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، وتقوم بدور التّنسيق والوحدة بين الهياكل العرفية في البلدة، وجدّد انتخاب أعضاء إدارتها انتخابا، يمثّلون زبدة أبناء البلدة ــ كما يصفهم الشّيخ عدُّون دائما في حديثه ــ واستمرّت رئاسة الشّيخ عدُّون لها كذلك بدون منافس أو منازع طيلة حياته، يفوز بالرّئاسة في كلّ تجديد.

قد يقول قائل: إنّك أطلت الحديث في نشأة الجمعية واستمراريتها ــ وقد كتب الله تعالى لها البقاء ــ ذلك لأنّي في كلّ مرحلة من مراحل حياة الجمعية ألمس أثر الشّيخ عدُّون فيها، وبصماته وفضله واضحة لا ينكرها إلاّ جاحد.

خصائص الشّيخ عدُّون في تسيير الجمعية:

لقد عاشرت ــ شخصيا ــ أستاذي الشّيخ عدُّون في إدارة جمعية

قدماء التّلاميذ سبعة عشر (17) عاما، وهي مدّة متواضعة وقليلة بالنّسبة لغيري من مشايخي وإخواني، واستحضرت من خلال هذه الفترة بعض مزايا الشّيخ عدُّون في إطار هذه الجمعية باختصار وهي قطرة من فيض:

1. الرّيادة والفضل الأوّل في إنشاء هذه الجمعية، كما تقدّم بعض التّفصيل فيه.

2. طول مدّة إدارته لها ورئاسته مع تجديد انتخابه رئيسا في كلّ مدة انتخابية، والتي دامت ستًّا وخمسين 56 سنة، وهي مدّة رئاسية مثالية نادرة.

3. الجدّ والنّشاط المنقطع النّظير في تسيير أعمال الجمعية وإدارتها، دون أن يؤثّر فيه العجز ولو في آخر أيّامه، علما أنّه كان يحضر جلساتها وينشّطها في آخر حياته وعمره تجاوز مائة وخمس سنوات (105).

4. عدم تخلُّفه عن حضور الجلسات مهما كانت الظّروف، إلاّ بعذر السّفر، وهو شديد الغضب على الأعضاء إذا تهاونوا عن الجلسات في غيابه.

5. روح البساطة والتّواضع والمرح التي تسود الجلسة، مما يخفّف على الأعضاء ثقل الجلسات.

6. طول نفسه في استمرارية الأعمال الذي تميَّز به، إذ تدوم الجلسات أحيانا أربع ساعات وأكثر، من بعد العصر إلى العاشرة ليلا صيفا، ومن بعد العشاء إلى الواحدة ليلا شتاء، ومن الخجل جدًّا أن يشكو أحد الأعضاء السّهر والتّعب؛ فيردّ الشّيخ بكلامه الهادئ: إذا شكوتم التّعب وأنتم أصغر منّي؛ فماذا أقول أنا، فما على الشّاكي إلاّ أن يذعن ويصبر ويقتدي.

7. مسؤولية التّنفيذ لكلّ القرارات، التي تخرج بها المداولات ومتابعتها، وقد يشعر غيره بها صعوبة وثقلا، لكنّ حكمة الشّيخ وحرصه يجعلانها عليه سهلة.

8. التّشاور وعدم الاستبداد بالرّأي، فلا يتبنّى أيّ قرار إلاّ بعد النّقاش الحرّ ومعرفة رأي الجماعة، وكثيرًا ما يتنازل عن رأيه الخاصّ إن رأى غيره أغلب وأصوب.

9. مساواته بين الجميع، فكلّ أعضاء إدارة الجمعية سواسية في التّفكير والنّقاش، لا يعلي شأن كبير، ولا يستصغر شأن صغير.

10. تذكيره الأعضاء دون ملل بأنّهم زبدة البلدة، فلا بدّ من حسن السّيرة والمثل، ولا بدّ من التّضحيات في سبيل صالح المجتمع، ويعتبر هذا العمل من أعظم الجهاد.

11. حثّ الكاتب في كلّ جلسة على: ضبط موضوعات المتابعة، وتسجيل الأعمال الجديدة في بداية الجلسة، وضبط حضور وغياب الأعضاء.

12. افتتاحه الجلسة دائما بما تفتتح به مجالس القرآن من الدعاء "استفتحنا بذكر الله وآياته وهو خير الفاتحين..."؛ اعتبارا أنّ كلّ أعمال الجلسة فيما يرضي الله تعالى والدّين ولو كانت دنيوية.

13. متابعة الأخبار والمستجدات وهذا ما يخصّص له بعض الوقت قبل الافتتاح الرّسمي للجلسة؛ مستغلاً وقت تناول الشّاي، وهذا بسبب حرصه وشوقه إلى معرفة أخبار الوطن والبلدة ومسايرة الأحداث.

14. رغبته دائما أن تعقد الجلسات في الدّور الخاصة، أي في محلات الأعضاء الذين تفضل الله عليهم بالخير وسعة المحل، ويرفض اتّخاذ مقرّ مستقرّ للجلسات، وحكمة ذلك هي التّبديل والتّرويح في الأماكن، وإكرام أهل الخير إخوانه الأعضاء بما جاد الله ابتغاء أجر الإكرام، وتبرّك المضيف بحضور إخوانه في محلّه، ولهذا بقي قوله في نهاية كلّ جلسة خالدا مأثورا: أين ومتى؟ أي متى موعد الجلسة القادمة وأين؟

هذه جملة من خصائص، وليست كلّها رأيتها جديرة باطّلاع

القارئ عليها، وهي التي علمتنا ــ كثيرا ــ التّفاني والانضباط والتّحمل، جزاه الله عنا كلّ خير، وأثابه الثّواب الأوفر.

مصادر المقال:

1. «**نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**»: محمد علي دبوز، الجزء الثّالث.

2. «**معهد الحياة نشأته وتطوّره**»: الشّيخ عدُّون سعيد شريفي (رحمه الله تعالى).

3. المعاشرة الشّخصية في جمعية قدماء التّلاميذ.

4. مراجعة الشّيخ الأستاذ شريفي بالحاج بن الشّيخ عدُّون.

نصّ خطاب الشّيخ عدّون

في الاجتماع التّأسيسي لجمعية القدماء [1]

بسم الله الرّحمن الرّحيم، الحمد لله الهادي إلى الحقّ وإلى الصّراط المستقيم، والصّلاة والسّلام على من جاء بالهدى والدّين القويم، وعلى آله وأصحابه الذين آووه ونصروه وجاؤوا بكلّ أمرٍ حكيم.

أمَّا بعد، فإنّنا نشكر الله تعالى على أن يسَّر لنا هذا الاجتماع العظيم، في هذا اليوم الميمون الطّلعة، في هذا المكان المقدَّس، أمام أستاذنا العظيم ومربِّينا الوحيد الشّيخ بيُّوض، وما كان هذا الاجتماع استجابة لغرض دُنيوي، واتّباعا للهوى، وإنَّما هو استجابة لله ورسوله، وخدمة للدّين والأمَّة، وإعلاءً لكلمة الله، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ثمّ نتوجَّه إلى إخواننا الوافدين إلينا بأطيب السّلام، ونحيّيهم تحيَّة مباركةً طيّبة، ونرحِّب بوفادتهم ترحيب الحبيب بالحبيب، ونستبشر بحلولهم في هذا الرّبع المقدّس استبشار الودود بالودود، ونهنّئهم ونهنّئ أنفسنا بهذا الاجتماع النّادر المثال، الذي ضمَّ بين

---

[1] – ينظر نصّ الخطبة كتاب: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، ص: 190 – 194.

أجسام مؤتلفة الأرواح، متَّحدة المنبت والمبدأ، متَّحدة الأجواء والأهواء، متّحدة الآمال والمطامح، ونشكرهم ــ إن صحّ الشّكر في هذا المقام ــ على تلبيتهم لنداء الواجب،واستجابتهم لداعي الحقّ، مُكْبِرين فيهم هذه العاطفة النّبيلة التي حملتهم على هذه الأتعاب التي عانوها، والتّضحيات التي قدّموها في هذا السّبيل، حتى تيسَّر لنا هذا الاجتماع الذي نرجو بعده كلَّ خير.

ونتشرّف جميعا باجتماعنا في هذا المكان المقدّس، في هذا المعهد الشّريف، لتحقيق الغاية الكبرى، التي وجَّهنا إليها أستاذنا ومربّينا الجليل الشّيخ بيُّوض، لمّا زوّدنا بالقوّة العتيدة التي تضمن لنا إدراكها وتحقيقها إن شاء الله.

إنّها ذكريات نبيلة، وعهود جميلة يستعرضها أمامنا هذا المعهد، الذي يروع القلوب ويبعثها حيَّة تسعى، هذا المشهد الحافل الذي يثير الشّهامة والعظمة في النّفس، وينشر عبيرها الفوّاح، هذه الرّوح الطّيّبة التي تغمر الجوّ، ويعيدها أيّاما زاهرات، مجلس أستاذنا العظيم اليوم بيننا كمجلسه أمس، ونحن تلاميذ يُعدِّنا لمثل هذا اليوم، ويخلق منا بالتّهذيب والتّثقيف والتّربية الصّحيحة إخوانا أصفياء، ورجالا أقوياء، وجنودًا أوفياء ومصلحين مبشّرين ومنذرين، وخير أمّة أخرجت للنّاس، فسقيا لتلك الأيّام الخاليات، والعهود الخالدات، بما فيها من طهر وصفاء

وإخلاص ووفاء، وآمال باسمة وسعادة وارفة الظّلال.

إخواني الأعزّاء، نجتمع اليوم في هذا المجلس الحافل أمام أستاذنا، لا كتلاميذ يتلقّون عنه الدّروس والتّهذيب والتّثقيف، ويتولاّهم بالحضانة والتّربية كما كنّا معه في سالف العهود، وإنّما نجتمع ككجنود وضبّاط مدرّبين مزوّدين بالقوّة الكافية للنّزول إلى ميادين الكفاح أمام قائدهم الأعلى، يشرف على أعمالهم عن كثب، ويستعرض برامجهم في الكفاح، ويرسل التّعاليم اللاّزمة، ويتولاّهم بالرّعاية والتّسديد.

نجتمع اليوم بصفة معتبرة لها مركزها ومكانتها، بصفة جمعية قدماء التّلاميذ التي يضمّ إطارُها كلّ تلميذ تلقّى دروسه عن الشيخ بيُّوض، على تفاوت في مدّة هذا التّلقّي، على اختلافٍ في درجاتهم ومواهبهم.

نجتمع اليوم في مؤتمر عامٍّ لهذه الجمعية لننفّذ أغراضها الأساسية، من جمع شتات الأعضاء، والمحافظة على الرّوابط المتينة التي تكوّنت في زمن الدّراسة، وبثّ تعاليم الأستاذ في نفوسهم، وفي المجتمعات التي يتّصلون بها، وخدمة المشاريع العلمية بجميع الوسائل، والمشاركة في الإصلاح العام بقدر الاستطاعة، والنّزول في ميادين الكفاح والجهاد الوطني في نظام وخطط مرسومة، تحقّق الغاية المطلوبة، وتضمن النّتيجة المرغوبة.

ذلك هو الغرض الذي حملنا على عقد هذا المؤتمر العام، ودعَونا إليه من قريب وبعيد كلَّ من يستطيع القيام بمهمّة هذا المؤتمر، ويتحمَّل تكاليفه الشّاقّة.

أيّها الشّباب المنتسب إلى أفلح[1]، كلُّكم تعلمون بطولته في جميع الميادين التي خاضها أو سيخوضها في الجهاد والكفاح، وتعلمون مكانته الممتازة في جميع الأوساط وبين جميع الطّبقات، وتعلمون صيته الذّائع في الآفاق، وكلّكم تلاميذ لهذا البطل الفذّ، وجميع الدّروس التي تلقّيتموها عنه، تغرس في نفس كلّ تلميذ بذور هذه البطولة، وتسقيها وتتعهدها بالتّربية والنّماء، فتجعل منه بطلا، إن لم يكن كأستاذه فقريبا منه، ونحن بهذه النّسبة وبهذه التّلمذة مسؤولون أمام الله والنّاس والتّاريخ عن هذه النّسبة؛ بما نظهره في ميادين الحياة من بطولة كبطولة أستاذنا العظيم، يجب أن تشهد لنا أعمالنا بأنّنا أبناء ذلك البطل، لا أن نكتفي باللّسان وحده بأنّنا أبناؤه وأعمالنا لا تشبه أعماله، إنّ هذا يورّثنا السّبّة والعار.

يجب أن يكون كلٌّ منا بطلا ممتازا، كما كان معلّمنا ومهذّبنا

---

(1) ــ أفلح بن عبد الوهاب: ثالث الأئمّة في الدّولة الرّستمية، اختار اسمه الشّيخ بيُّوض لقبا له يمضي به مقالاته في جريدة وادي ميزاب، وجريدة الأمّة فأصبح لقبا له، يسمّيه به تلاميذه في كتاباتهم.

بطلا ممتازًا، وإذا خرج هذا عن طاقتنا منفردين، ففي استطاعتنا أن نكون ذلك البطل وأمثاله مجتمعين، نملأ ميادين الحياة بالبطولة والكفاح كقائدنا العظيم.

إخواني وأبنائي الأعزّاء، لم يتيسّر لهذه الجمعية قبل اليوم أن تبرز إلى الوجود في إطارها الواسع، لأنّه لم تتفتّح لنا ميادين الأعمال، كما تفتّحت اليوم، ولم تحملنا الظّروف على النّزول إلى الميدان، كما تحملنا اليوم، ولم نأنس من أنفسنا قوّة واستعدادًا على الخوض فيها، كما أنسنا اليوم، إنّه لم يبق لنا عذرٌ للتّقصير، ووقتٌ للانتظار.

إخواني الشّباب، لقد أصبحنا اليوم أمام انقلاب خطير، يقلب الأمّة رأسا على عقب، وتفتّحت لنا ميادين للعمل، لم تفتح من قبل، إنّه انقلاب كبير، يعمُّ جميع نواحي الحياة في الجزائر وميزاب.

إنّ هذا الانقلاب الكبير الذي يقع بعد الحرب العالمية الثّانية في بلادنا، من أسبابه حدوث المجلس الجزائري، وإدخالنا الشّيخ بيُّوض فيه، يجب أن نقدّم لأستاذنا الجليل رجالاً أكفاء من أبنائه البررة، يؤازرونه، ويؤازرون قادة الإصلاح في الجزائر وميزاب، يجب أن نُنشئ رديفًا قويًّا للعاملين اليوم من تلاميذنا، الذين نربّيهم في المدارس فيسدُّون الثّغور بكفاءتهم، ويصلون بنهضتنا غايتها المثلى.

إخواني، لقد برهنتم أنتم وإخوانكم الغائبون في هذه السّنة

بالخصوص، بما قمتم به من أعمال باهرة ـــ استوجبتم بها الثّناء والحمد ـــ عن كفاءة وقوّة، وأنتم أفرادٌ موزّعون، فكيف إذا انتظمت أعمالكم في هيئة منظَّمة كهذه الجمعية، توجّهها قيادة حكيمة، إنّنا لا شكّ ناجحون بإذن الله، ومحقّقون كلّ ما نصبو إليه.

إخواني الأعزّاء، تعلمون أنّ من الأغراض التي تهدف إليها هذه الجمعية خدمة هذا المعهد ببث الدّعاية له، وإرشاد النّاس إليه، ونشر تعاليم أستاذنا ومبادئه الإصلاحية؛ إنّ بثّها في النّاس واجبٌ علينا، ولا ننجح في التّبشير بها إلاّ إذا رأى النّاس إصلاحه في أخلاقنا وسلوكنا، إنه عار الدّهر أن لا نتّصف بالإصلاح ونحن ننتسب إلى إمامه وقائده.

إنَّ السّلوك الدّيني الحميد هو الأساس المتين، والرّكن الرّكين الذي نبني عليه نهضتنا، وهو الضّمان الوحيد الذي يضمن لنا النّجاح في مهمّتنا، ويحقّق لنا الوصول إلى أهدافنا.

هذه كلمة مختصرة تعجّلتُ بها، لأنّ المقام يقتضيها، وهو واجب أكيدٌ عليَّ، فهي الأساس الذي نبني عليه أعمالنا، نسأل الله سبحانه متضرّعين أن يقينا شرَّ أنفسنا وشرَّ القوم الظّالمين، وأن يهيِّئ لنا من أمرنا رشدًا، ويكلأنا وأستاذنا برعايته وحفظه، ويهدينا إلى الصّراط المستقيم، والحمد لله ربّ العالمين،

آخر ما قاله الشيخ عدُّون [1]

الأستاذ عيسى بن محمد الشّيخ بالحاج

أيُّها القارئ الكريم، السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إنَّ الإنسان عندما يقف في أعقاب تاريخٍ حافل، ليقلِّب صفحات مجد آثل، ويرجع البصر في أمجاد مغوارٍ باسل، لَتستوقفُه محطَّات رائعة، وتستفزّه خبايا ناصعة، وتثيره ذكريات ذائعة، عبر حقب من الزّمان، تولَّت من غير نسيان، لتبقى في أذهان النّاشئة خالدةً، خلود مجد صانعها، وتستمرُّ في الآفاق مُشرقة إشراقة مُسرجها؛ تلكُمُ المعالم البهيَّة، والمغانم السنيَّة التي على السّلف حفظُها للخلف، استمرارًا لِسَنَ نور الحياة خالدًا يُنير دروب السّالكين، ودائبًا يُبهج نفوس الخالدين.

وإنَّ المرء ليتمثّل نفسه على شفَا جبل شاهق، يُشرف من عليائه على روض غنَّاء، قد سقاه ماء الغوادي فهو ريَّان، مُزهر بجميل الورود، مونع بجليل الأثمار، يمدُّ فيه بصره ثم يُرجعه فلا يرى فطورًا، ويطير فوق أريجه فلا يشمُّ إلاَّ مسكًا، ويحطُّ على زهوره فلا يجني إلاَّ شهدًا. وقلَّ من يرقى هذا المقام السّامق،

---

[1] – مجلة الحياة، العدد العاشر ص: 205 – 230.

ويعتلي هذا المجد الشّاهق، إلاَّ من كان لربِّه تقيًّا، وعلى دينه وصيًّا، ولأمّته وفيًّا، وما أقلَّهم في هذا الزّمان الذي لانت مضاجعُه، ودانت مطامعُه، وكثُر بُغاثُه، ونَزَر عُقابُه، وقد تغيرّت الدّنيا وكان أهلها يرون متون العيس ألين مضجع. ولعلَّ من أبرز من يجب على الأمّة جمعاء ترسُّم خطاه، والاستنارة بسناه؛ فقيد الإسلام والعربية **فضيلة الشّيخ شريفي سعيد بن بالحاج (الشّيخ عدُّون) رحمه الله**، الذي بصر بالرّاحة الكبرى، فلم يرها تُنَال إلاَّ على جسر من التّعب، فقد عاش سرمدًا لربِّه نجيًّا، لدينه وفيًّا، ولأمته أبيًّا، إلى أن مات بعد أن بلغ من الكبر عِتِيًّا، وخلّف في الآخرين لسان صدق، وفي الخالدين في مقعد صدق.

وأنّى لي في هذه العجالة أن أستوعب هذا العلم في صفحات معدودات، وأن أستجلي العبر من سيرته في نفحات محدودات، فذاك ما ستُبين عنه ضخام المجلَّدات، ممن يُحيُون ذكره في ديوان الخالدات. غير أنِّي وفي مساهمتي هذه، في هذا العدد الممتاز الذي ركَّز على أن يَضُمَّ بين دفَّتيه "ما قاله الشّيخ أو ما قيل عنه"، رأيتني أنحو جانبًا، ربّما قد يَغفل عنه الغافلون، أو يتقحَّمه العاجزون مثلي، فقصدتُ إلى آخر ما قاله

الشّيخ في آخر حياته، في عديد من المحافل والمناسبات -لا كلّها - والتي كان يتبوَّأ صدارتها، ويرصِّع واسطة عقدِها، فاستنسختُها من الأشرطة العديدة، بعد تصحيحها، وإعادة شيءٍ من صياغتها، وحَبْكِ ربطها، لتكون مقالات مقروءة بعد أن كانت كلماتٍ مسموعة، ولم أرد أن أُعمِل فيها فِكري، أو أُدمِع فيها قلمي؛ حتىَّ لا أُفسِد روعتها، أو أُعكِّر نغمتها، أو ألوِّث فِطرتها، كي تفعل في نفوس قارئيها ما فعلت في نفوس سامعيها، كما أردتُها جواهر في أصدافها، وقوالب ذهب في خامها، يصوغُ منها الصائغون الماهرون أسنى الحُلَل، وفق مذاق رفيع، وشكلٍ بديع، وللنّاس فيما يعشقون مذاهب، كذا لآلئ أفكار الشّيخ، أترُكُها نديَّة لمن يملكون أعنَّة البيان، وأزمّة البرهان، ولمن أوتي الحكمة وفصل الخطاب، يطلعون عليها من فوق السّحاب، وينظرون إليها بعين عقاب، ويستنبطون منها خفايا الصواب، إنَّ في ذلك لعبرة لأولي الألباب. ولعلّ فرصةً سانحة أخرى تسمح بقراءة متأنِّية فيما قال، في خطاب أو مقال، إن أنسأ المولى تعالى في الآجال.

وإليك عزيزي القارئ هذه الكلمات مرتَّبة حسب التّرتيب الزّمني، وبالعد التّنازلي، إلى حين الوفاة، فاقرأها بقلبك قبل

لسانك، وتأمَّل فيها ببصيرتك قبل بصرك، واسأل المولى جلّ في علاه أن يُلهمك الرّشد والاعتبار، كما تسأله لمن تقرأ له المثوبة والاستغفار. ولقد أسميتُ هذه الكلمات: «آخر ما قاله الشّيخ عدُّون» وتضمُّ ثماني كلمات:

1- الكلمة التي ألقاها بمناسبة حفل المعايدة في مقرّ البلدية.

2- الكلمة التي ألقاها في حفل مهرجان القرآن.

3- الكلمة التي ألقاها في ندوة الشّيخ عبد الرحمن (رحمه الله).([1])

4- الكلمة التي ألقاها في يوم المعايدة الذي يجمع أعيان ميزاب ووارجلان.

5- الكلمة التي ألقاها في حفل توزيع الجوائز على طلبة معهد الحياة.

6- الكلمة التي ألقاها في لقائه بأساتذة معهد الحياة.

7- الكلمة التي ألقاها في الاجتماع السنويِّ العامِّ مع طلبة معهد الحياة.

---

[1] - الشّيخ عبد الرّحمن بن عمر بكلّي (1901 – 1986م) أحد علماء الجزائر، وأحد أركان الحركة الإصلاحية في وادي ميزاب بخاصّة. كانت له ندوة يقيمها كلّ يوم أربعاء في بيته بمدينة بريان، تسمّى ندوة الأربعاء، يحضرها نخبة من المشائخ وبعض المعلّمين والطّلبة، مخصّصة في الدّرجة الأولى لمدارسة المسائل الفقهية، تفقّهًا واستفتاء ومدارسة ومناقشة. واصلت انعقادها بعد وفاته، وما تزال مستمرّة إلى اليوم والحمد لله. (م.ن.ب).

8- الكلمة التي ألقاها في الاجتماع العام مع طالبات متوسّطة وثانويـــة الحياة.

1) الكلمة التي ألقاها فضيلة الشّيخ عدُّون رحمه الله في حفل المعايدة الذي تقيمه بلدية القرارة كلّ عيد لأعيان البلدة ومسؤوليها في مقرّ البلدية

يوم: 2 شوال 1423هـ / 6 ديسمبر 2002م

أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، بسم الله الرّحمن الرّحيـــــم، الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على رسول الله:

كلمتان أفتتح بهما هذا الحفل المبارك:

أولا: أعتذر أن كنت آخر من يلتحق بالحفل، لأنّ الموعد على حسب الدّعوة كان على الرّابعة والنّصف، وقد كنت جاهزا للمجيء في الوقت، لولا قدوم بعض الأضياف من بعيد لزيارتي، ولكنّني صرفتهم من أجل الحضور إلى الموعد، ثم جاء بعض الإخوان من البلدة لتقديم التّهنئة فتأخّرت هذه المدّة الوجيزة، ولما حضرت وجدت الحفل ينتظر حضور هذا الشّخص الضّعيف، وهذا ما يُلزِم عليّ تقديم الاعتذار.

ثانيا: كان الواجب أن أتتبّع جميع الحاضرين، واحدا واحـــدا بالمصافحة والمعايدة، ولكنّني تعلمون ضعفي، وتُغنيني عن ذلك الكلمة التي سألقيها عليكم مختصرة جدًّا، فأقول في هذا الجمع المبارك:

أيّها الأبناء الأعزّاء، ولا بأس أن أعتبر نفسي أبا الجميع لأنّني أعدّ نفسي أكبركم سنًّا، ومن هذه النّاحية فقط أكبُرُكم، وليست لي ناحية

أخرى أتميّز بها عنكم، إلاّ هذا العمر الطّويل الذي أرجو أن يكون الله تعالى قد بارك فيه، وبارك في عقلي؛ لأنّه من العادة أنّه إذا ضعف الجسد ضعف معه العقل، ولكن والحمد لله العقل كامل وعادي، وهذه نعمة كبرى من نعم الله تعالى، لهذا أعتبر نفسي أبا الجميع كما يعتبرني الكثير أبا لهم.

أبنائي الأعزّاء: حقيقة أنتم أعزّاء وجميع المسلمين، وبخاصّة سكان هذه البلدة، وبخاصّة الحاضرون في هذا الاجتماع من أعيان البلدة، رئيس الدّائرة، رئيس المجلس الشّعبي البلدي، رئيس الدّرك، ورئيس الأمن، وجميع الموظفين، وجميع الإداريّين، والعزّابة، والمشايخ والأساتذة والحاضرين من كلّ الطّوائف التي تمثّل القرارة، فالقرارة اجتمعت كلّها في هذه الوجوه، في هذه العشيّة المباركة للمعايدة، وفي المعايدة تأليف للقلوب.

نحمد الله تعالى على هذا العيد، الذي جاء بعد موسم رمضان المعظّم الذي أنزل فيه القرآن، أعظم كتاب في الدّنيا، وأعظم سعادة نزلت إلى البشر، إنّما نزلت في هذا الشّهر المبارك، فنرجو أن نكون قد قمنا فيه بمختلف أعمال البرّ، من صلوات وصدقات وسبحات خالصة لوجه الله تعالى، وختمناه بهذا الاحتفال بعيد الفطر المبارك أمس. والحمد لله أن كان يوم العيد في أغلب العالم الإسلامي موحّدا يوم الخميس إلاّ قليلا ممّن شذّ. وللعيد مقام محمود عند الله وعند الملائكة، فنرجو أن يكون الله تعالى قد تقبّله منّا قبولا حسنا، وها نحن نجتمع

ليهنئ بعضنا بعضا تهاني قلبية صادقة، فكلّنا مسلمون، وكلّنا يحبّ الخير لأخيه، وكلّنا قلب واحد ويد واحدة تسعى إلى الخير، وتعمل الخير، وتجتمع على كلمة الخير والحمد لله، وهذه نعمة من أعظم النّعم أن تكون القرارة مجتمعة بجميع هيئاتها، وجميع فئاتها في مكان واحد، وكلّهم على قلب رجل واحد، يتوادّون ويتحابّون، ويرحّب بعضهم ببعض، وهذا مكسب عظيم، ومثل هذا المنظر لا يوجد في غير القرارة - فيما أحسب وأظنّ-.

لابدّ أن تكون هناك سلبيات، ونحن جميعا نسعى لإزالتها، وهي شيء طبيعي في البشر، وإنّما قصارى جهدنا شكر الله على هذه النّعم التي أنعم الله بها علينا، ومِن شُكرِها إصلاحُ ما في هذا الوسط من بعض المفاسد والسّلبيات، وأقول بعضا لأنّ الإيجابيات وما يرضي الله تعالى هي السّائدة الغالبة، فالمساجد عامرة، والعشائر عامرة، والمشاريع سائرة في التّعليم العام والحرّ، وهذه نعمة نشكر الله تعالى عليها.

لا أطيل عليكم أكثر، وأرجو أن تكونوا كلُّكم على هذا النّمط، وإنّما أحقّق وأقول إنّ جميع الحاضرين والغائبين على قلب رجل واحد. وبعد هذا أرجو من بعض الإخوان خاصّة الشّيخ النّاصر أن يزيدنا كلمة في الموضوع، وأنتم تعرفونني أنني قاصرٌ جدًّا في الكلام، واعذروني فيما قصَّرت. والحمد لله ربّ العالمين.

2) كلمة الشّيخ عدّون (رحمه الله) في حفل مهرجان القرآن الذي أقيم بعشيرة البلات بالقرارة لمستظهري كتاب الله العزيز يوم الثّلاثاء: 3 ربيع الثّاني 1424هـ الموافق لـ03 جوان 2003م

بسم الله الرّحمن الرّحيم، الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم:

ليس عندي ما أقوله، وكلّ ما زوّرته في نفسي، أو تذكّرته إلاّ وقد سبقني إليه مَن تحدّث قَبلي وأجاد، فلا أجد ما أقول إلاّ أن أقول:

أبنائي الأعزّاء ! السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

خذوا من هذا العجوز الماثل أمامكم ما يجود به من كلمات قصيرة مقتضبة في هذا الوقت الضيّق.

نحن في نعمة كبرى، وحفل عظيم، ويوم مبارك، وما كنّا نتوقّع أن يكون الحفل على هذه الصّورة البديعة، خاصّة ما تمّ من وضع الحجر الأساسي لمشروع الحياة العظيم، الذي نسأل الله تعالى أن يعيننا ويوفّقنا لإتمامه، بصورة تعجب وتسرّ الجميع.

إنّنا نقوم بهذا الاحتفال العظيم، احتفاء بالقرآن الكريم، وبالمستظهرين لكتاب الله، وكلّ كلمة تقال في هذا المجال قليلة، لأنّه احتفال بالقرآن وحفظته، ولا أرى مقارنة بين هذا الاحتفال وغيره من الاحتفالات الأخرى، وإنّه الاحتفال بالكتاب الذي طبّق السّماوات والأرض ذكره، ولا أحد يستطيع أن يصف قيمة الكتاب.

إنّنا في نعمة كبرى لما نراه من مبرّات ومباهج تثلج الصّدور، وتطلق الألسنة بالثّناء والحبور، وإن كنّا في حزن شديد، بسبب الزّلزال الذي ضرب الجزائر يوم 21 ماي، والذي تأثّرت به كلّ قلوب الجزائريّين، وقام النّاس جميعهم للمواساة، ولكن رغم شدّة المحنة، فنحن صبورون، وشأن المؤمن الصّبر والشّكر، وبالصّبر الجميل تنقلب المصيبة نعمة، لذا يثيب الله الصّابر على صبره أجرا بغير حساب، ومن ثمّ عجب الله لشأن المؤمن إذ أمرُه كلّه خير، وليس ذلك إلاّ للمؤمن. إذا أنعم عليه شكر فكان خيرا له، وإذا ابتلي صبر فكان خيرا له، ولنشكر الله تعالى على كلّ حال، ولنعلم أنّه ما من مصيبة إلاّ وهناك مصيبة أعظم منها، وأعظم المصائب أن يصاب المرء في دينه.

وبعد هذا لا بدّ من كلمة أقولها لأبنائي الأعزّاء، المستظهرين لكتاب الله العزيز اليوم أو قبله.

عليكم بالمحافظة على هذا الكتر العظيم، الذي تحصّلتم عليه، داوموا على مدارسته وقراءته، واعلموا أنّ من قرأ القرآن، فله بكلّ حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، فكيف بمن كرّره ويكرّره مرّات ومرّات.

إنّها نعمة عظيمة أنعم الله بها عليكم، فحافظوا عليها حتّى لا تندموا كما نحن نندم على ما ضيّعنا من المحافظة على هذا الكتر، فاعتبروا بنا، فلقد كنّا نحفظ القرآن عن ظهر قلب، حفظا جيّدا، ولكنّا ضيّعناه، فإيّاكم والتّضييع، وإنّ أوّل ما يوصَى به المستظهر، المحافظة على ما حفظ، ولكنّا لم نعمل بالنّصيحة.

لا تقتصروا على الحفظ فقط، فالحفظ يقتضي الفهم، والفهم يقتضي العمل، ولا يتحقّق الفهم إلاّ باكتساب آلاته، بالعربيّة وعلومها، وهذا ما تجدونه في معهد الحياة، ثمّ عليكم بالعمل بمقتضى هذا الفهم، وذلك بالإتيان بالأعمال الصّالحة، والتزوّد للآخرة، وخير الزّاد التّقوى، فنرجو الله تعالى أن ييسّر أمورنا ويحفظنا من كلّ بلاء.

كما نشكر الحاضرين الذين وفدوا إلينا من بعيد، تاركين أهليهم وأشغالهم، وليعذرونا فيما قصّرنا في حقّهم، فهم يستحقّون منّا كلّ حفاوة وإكرام، ولا نستطيع مكافأتهم إلاّ بالدّعاء إلى الله تعالى، أن يجازيهم أحسن الجزاء في الدّنيا والآخرة. والحمد لله ربّ العالمين.

3) كلمة فضيلة الشّيخ عدّون (رحمه الله) في آخر جلسة حضرها في ندوة الشّيخ عبد الرحمن (رحمه الله) وذلك في الجلسة الختامية بدار السّيد الكريم بكلّي صالح بن عبد الرّحمن يوم الأربعاء 04 ربيع الثّاني 1424هـ/ 04 جوان 2003م

بسم الله الرّحمن الرّحيم، الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على رسول الله.

مجمع مبارك وخير إن شاء الله، ومشروع كبير وضروري في هذا الوقت خصوصا.

نترحّم على فضيلة الشّيخ عبد الرحمن، الذي كوّن هذه النّدوة الخيّرة، وأسّس هذا المشروع العلميّ الهام، كما نذكر بالفضل الشّيخ أحمد أوبكة الذي كان أوّل من لازم الشّيخ عبد الرّحمن رفقة الشّيخ بكير أرشوم - رحمه الله - كما أشكر كلّ الذين جاؤوا من بعدهم وانضمّوا إلى ركب النّدوة ورحاب هذه الجلسة.

إنّ هذه النّدوة الشّرعية ضرورة ملحّة، وأعدّها من المؤسّسات الكبرى، وإنّني أدعَمُها بكلّ قواي، وأدعو بعض الغائبين لحضورها، خاصّة من له ثقافة شرعية، فحافظوا على هذه النّدوة، وإيّاكم والتّخلّي عنها في موعدها من كلّ أسبوع، ومن كان لا يرغب في الحضور فليترك مكانه لغيره، وإذا كان في الإمكان أن يحضرها بعض إخواننا المحافظين فليحضروا، توحيدا للصّفّ والفتوى، كما هو الشّأن في مجلس عمّي سعيد ومجلس باعبد الرّحمن الكرثي.

كما نشكر آل بريّان الذين يعود إليهم الفضل في احتضان هذه النّدوة ورعايتها والحفاظ عليها.

أمّا ما يقع في هذه النّدوة من فتاوى، فأرى ضروريّا تسجيلها بعد تلخيصها وتمحيصها، ولو بتعيين موظّف يقوم بها، ولا مانع من طبعها وإصدارها للعالم الإسلامي للاستفادة منها، لأنّ المسائل التي تبحث معيشة في ميدان الواقع، وكلها تستدعي حلولا.

فأوصيكم جميعا بالإخلاص والصّدق، وبالمواظبة وعدم التّفريط في هذه النّدوة، فهي مشروع حياة أو ممات، وليكن مجلسكم هذا مجلسا

إسلاميا خالصا، وإنّنا لنرى ثمار هذا المجلس يانعة.

كما أشكر صاحب المحلّ الابن صالح بكلّي وإخوته جميعا، على استضافة النّدوة الختامية السّنوية في محلّهم، وإنّني لأرى روح والدهم ترفرف علينا في هذه الجلسة الطيّبة، والله تعالى نسأله العون والتّوفيق، والحمد لله ربّ العالمين.

4) كلمة فضيلة الشّيخ عدّون (رحمه الله) في يوم المعايدة الذي يجمع أعيان ميزاب ووارجلان ثالث يوم كلّ عيد فطر أو أضحى بالقرارة

بدار عشيرة أولاد جهلان صبيحة الخميس 03 شوّال 1424هـ / 27 نوفمبر 2003م

أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، بسم الله الرّحمن الرّحيم، الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على رسول الله.

أيّها المشايخ الأفاضل !أبنائي الأعزّاء ! أعيان الوادي ووارجلان، السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، عيد مبارك، وهنيئا لنا هذا العيد السّعيد، في هذا اليوم المبارك.

إنّه حقّا لجمع عظيم، ضمّ هذه النّخبة الممتازة، سعادة كبرى تغمرنا في هذا المقام، وفي هذا اليوم السّعيد، بوجود هذه الوجوه النيّرة التي جاءت للتّهاني والتّزاور والتّناصح والمحبّة، وأوّل ما يجمعنا في هذا المقام، محبّة الله ورسوله، مصداقا لقوله ﷺ: « وجبت محبّتي للمتحابّين

فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتجالسين فيّ ». وإنّني لأرى هذه الخلال كلّها حاضرة وموجودة بأجلى مظهر في هذا المقام.

وددت لو كان لي لسان فصيح، أستطيع أن أعبّر به عمّا يجيش في صدري من الخوالج والشّعور والأحاسيس، وإذن لسمعتم كلاما عجيبا، ولكن اعذروني، فأنتم تعرفون قصوري وتقصيري، وهذا شيء طبيعي فيّ، ويكفيكم هذا التّعبير الصّادر من أعماق القلب، موجّهًا للجميع، وفاء ومحبّة وصدقا، ووفاء لهذه العزائم، وهؤلاء الرّجال الموفّين بالعهود، الذين دأبوا على هذه العادة الطّيّبة، جعلها الله سنّة حميدة.

بارك الله في الجميع، وأثابكم بكلّ خطوة خطوتموها في هذا السّبيل، جنّات الفردوس الأعلى.

لا أستطيع أن أزيد أكثر من هذا، والله تعالى أسأله أن يحفظكم ويجمعنا وإيّاكم في رحمته الواسعة، ويشملنا بالسّعادة والاستقرار في وطننا العزيز الجزائر، وأن يرفع هذا البلاء المسلّط على العالم الإسلاميّ والعالم العربي خصوصا، وبالأخصّ في الجزائر، وأن يعمّنا الله بالهناء والسّرور، ويجعل كلمة الله هي العليا، وينصر المسلمين حيثما كانوا، ويردّ كيد الأعداء والكافرين في نحورهم.

ولنصدق لله الدّعاء، وإنّه متى اجتمعت هذه الدّعوات وارتفعت صادقة، كانت من الله الاستجابة.

إنّ في قلبي شجونا وفنونا، ولكن لا ينطلق بها لساني، فاعذروني ولكم الشّكر، والحمد لله ربّ العالمين.

5) كلمة الشّيخ عدّون (رحمه الله) في حفل توزيع الجـــوائز على طلبة معهد الحياة في حفل الجوائز المقام بصحن المســـجد الكبير بالقرارة مساء الأربعاء 27 ربيع الثّاني 1425هـــ / 16 جوان 2004م

بسم الله الرّحمن الرّحيم،الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه.

أبنائي الأعزّاء ! السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لا أخصّ شيخا بعينه ولا أستاذا ولا معلّما ولا طالبا، وإنّما كلّكم أبنائي الأعزّاء، أقولها مفعمة بصادق الحبّ من أعماق قلبي، وقد اعتبرني كثير من النّاس أبا روحيّا لهم، وإنّني لأشكرهم على هذه العاطفة الطيّبة، وهذا التّقدير الذي لا أستحقّ منه شيئا، ولكنّ النّفوس الكريمة تأبى إلاّ أن تعتبرني أبا لها، أرجو الله تعالى أن يحقّق لهم رجاءهم وأمانيهم.

أريد أن أركّز على كلمة واحدة تخصّ الجميع، وهي نعمة الله تعالى التي أنعمها علينا، والتي لا توجد في الدّنيا أصلا على هذه الطّريقة من التّنظيم والعمل الصّالح، ألا وهي نعمة هذا التّعليم الحرّ، الذي نتمتّع به والحمد لله، رغم النّكبات والعراقيل، ولكنّ الله تعالى معنا، يؤيّدنا بنصره ويمدّنا بعونه وتوفيقه، وإنّها لعمري لمن أعظم النّعم، فهي أكبر من أيّ نعمة بعد نعمة الإيمان والحياة.

ولذلك يجب علينا شكر الله تعالى على هذه النّعمة، وذلك

بالمواظبة على العمل والإخلاص لله تعالى، فلله الشّكر الجزيل في الدّنيا والآخرة.

أمدّكم الله بعونه وتوفيقه، وزادكم إيمانا على إيمان، وإخلاصا على إخلاص، هذا ما أستطيعه، واعذروني فيما قصّرت من الكلام في هذا المقام، لما أعانيه من التّعب والضّعف. والحمد لله ربّ العالمين.

6) كلمة الشّيخ عدّون (رحمه الله)في لقائه بأساتذة معهد الحياة بالقاعة السُّفلية من عشيرة أولاد جهلان مساء السّبت 11 شعبان 1425هـ / 25 سبتمبر 2004م

بسم الله الرّحمن الرّحيم، الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على رسول الله.

أبنائي الأعزّاء، السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إنّني جدّ مسرور بالاجتماع إليكم، في أوّل افتتاح السّنة الدّراسية، هذا الاجتماع الذي يجمع أساتذة المعهد، من أجل تقويم ما تقدّم والنّظر والتّفاؤل في المستقبل الذي يتقدّم.

إنّها لمبرّة كبرى، أن يعقد اجتماع للمعلّمين بمناسبة افتتاح السّنة الدّراسية في هذه المؤسّسة العتيدة.

و إنّها لنعمة كبرى أنعمها الله تعالى بها على القرارة، وعلى المسلمين أن يوجد في هذه البلدة مثل هذه المؤسّسة ومثل هذا المشروع. وهل يوجد في العالم مثل هذا المجتمع، ومثل هذه المؤسّسة

التي تعمل من أجل السّعادة الأخروية والدّنيوية بالرّوح، التي تلقّن للدّارسين في المعهد، ونراها مجسّدة بالمحسوس في كلّ منتمٍ إلى هذا المعهد.

وإنّه لمن أكبر المنن والنّعم أن نكون هداة مبشّرين ومنذرين، متحمّلين لرسالة الأنبياء والرّسل، وإنّه لتشريف لنا في الحياة الدّنيا؛ رجاء التّشريف الأعظم في الحياة الأخرى.

إنّني أعتبر جلسة افتتاح المعهد كأنّها باب الجنّة فتح لنا، فلندخل الجنّة بقلوب ملؤها المودّة والمحبّة، وليست سمعة المعهد مقتصرة على ما كان يتمتّع به بالأمس فقط، بل هو يزداد في كلّ يوم سمعة وانتشارًا في جميع المؤسّسات العالمية، فصار يفتخر به العالم الإسلاميّ بأسره، وأعظم بها نعمة تتميّز بها القرارة.

وهذه النّعمة الكبرى تستحقّ منّا كلّ الشّكر، والشّكر الحقيقيّ إنّما يكون بالعمل والاجتهاد والنّصيحة والتّضحية، ونحن نريد أن نعمل أكثر ونجتهد أكثر ونضحّي بكلّ شيء في هذا السّبيل حتّى يتضاعف عدد النّاجحين.

إنّ عملنا لا يقوم على أساس اعتبار النّجاح في الشّهادة فقط، فالشّهادة جوهرة في الطّريق.

ولو كانت لنا إمكانيات ووسائل لكان عدد الطّلبة في المعهد آلافا وملايين، ولكن في وسع هذه الكوكبة من أبناء المعهد أن تكون ذلك

العدد: الواحد كألف، فعوّلوا على أنفسكم، فالأنظار متّجهة إليكم، فالنّجاح في الشّهادة نجاح ظاهريّ، إنّنا نريد الوصول إلى ما هو أكبر وأسمى من ذلك، إلى مرضاة الله تعالى، فهنالك مسافات كبرى علينا أن نقطعها.

إنّنا لا نحقّق آمالنا إلاّ بالتّضحية الكاملة والعمل الخالص لله، ومن لم تكن له روح التّضحية والعمل في سبيل الله فليترك المجال، وليغادر إلى حيث الكسب المادّي الدّنيوي.

نحن مسرورون جدّا بالنّتيجة التي حقّقها المعهد في شهادة البكالوريا هذا العام، إذ بلغت نسبة النجاح 64 %، وتحصّل على المرتبة الأولى على مستوى ثانويات الولاية، وهي أوّل نتيجة يحصل عليها منذ تأسيسه، وإذا كان هذا النّجاح يخصّ التّلاميذ النّجباء والأذكياء، فإنّ المعهد في استطاعته إنجاح كلّ تلاميذه من ناحية الرّوح والدّين والأخلاق والتّربية، وهذا هو الأساس والأصل في رسالة المعهد، ولا يتأتّى ذلك إلاّ بإصلاح أنفسنا أوّلا، ثمّ إصلاح تلاميذنا ثانيا، ولتكن لنا عزيمة صادقة وإرادة قويّة وتضحية خالصة في كلّ مسلك وسبيل، بالنّفس والمال والأفكار.

إنّكم أيّها الأساتذة جئتم لتدرّسوا لوجه الله لا لأجل المال، كما كان الحال بالنّسبة لمشايخنا الذين تقدّموا، إذ لم يكن أحدهم يأخذ راتبا، ومن بينهم الشّيخ الحاج عمر بن يحيى، الذي كان يلقي حوالي عشرين درسا في اليوم ولا يأخذ أجرًا، وهناك من يوفّر له شيئا من ضروراته

وحاجياته، ولذلك بارك الله في علمه فخلّف رجالات الأمَّة الأفذاذ الشّيخ بيّوض والشّيخ أبا اليقظان وغيرهم.

والرّجال الذين أسّسوا معهد الشّيخ الحاج عمر بن يحيى لم يكن لهم علم كثير، لكن كان لهم إخلاص كبير وإيمان راسخ، وما معهد الحياة إلا امتداد لمعهد الحاج عمر.

ولقد أدركت الشّيخ الحاج عمر سنة واحدة، وكان عمله تعليميًا واجتماعيًا، وحّد البلدة وأصلح ما فيها من فساد وذابت العشائرية والجهوية، وكانت هناك أفكار مغرضة مفرّقة قُضِيَ عليها بفضل إخلاص المشايخ.

وإنّنا في هذا الوقت لفي نعمة كبرى، ولا يدرك عظمتها إلاّ المخضرم الذي عاش الزّمانين مثلي، وإنّ الفرق بين العهدين لكبير.

أرونا الفخر في الدّنيا والآخرة، وليكن عزّنا الفخر في الآخرة وهذه غاية المنى، ولنستمرّ في هذه الطّريق ولا نرتب، ولنـــزد لله شكرا وذكرا، ولنجاهد أنفسنا ونحملها على ما تكره، ولنسلّط عليها قوّة العقل الفطريّ الرّشيد الذي يقودها إلى الطّريق القويم.

وإنهَّ لمن النّعم الكبرى أن نعمل في أمَّة مثل هذه، أمَّة خيِّرة مطواعة وأنا منذ سنة 1939م أجول لجمع الاشتراكات والتّبرّعات للجمعية، وإنّني أشعر والحمد لله بالزّيادة عاما فعاما، رغم اشتداد الأزمة المالية والاقتصادية في السّنوات الأخيرة، ولكنّ تضحيات المحسنين كانت

الأقوى والأغلب، ولقد تخلّفت عن الجولة هذا العام بسبب المرض والعجز، وكنت أخشى أن تتأخّر الجولة أو يبخل النّاس بعدم وجودي، ولكن والحمد لله لم يزدد النّاس إلاّ نشاطا وتضحية؛ لأنّهم إنّما ينفقون في سبيل الله وابتغاء مرضاته لا من أجل فلان أو فلان.

ومشروع الحياة العظيم الذي يشمل المعهد والدّاخلية مشروع لا تقوى عليه إلاّ الدّول، ولكنّ الأمّة تقوم به، وسيقوم بإذن الله، وبفضل سخاء المحسنين من الأمّة، وإنّها لنعمة كبرى ولنقابلها نحن الأساتذة بشكر أعظم، بالتّضحية ببعض أوقاتنا، والجنديّ المثاليّ هو الذي يقوم بواجبه أحسن قيام في الميدان.

إنّها كلمات صادقة أنحتها لكم من صميم الفؤاد، وأقولها لكم خالصة من أعماق قلبي، وربّما لا ألقاكم بعد لقائي هذا، وهي ذكرى أذكّركم بها والذّكرى تنفع المؤمنين.

نرجو الله تعالى أن يوفّقنا إلى كلّ خير، وييسّر لنا كلّ أمر عسير، وأن نكون نحن الأساتذة وأبناؤنا التّلاميذ مباركين في كلّ أعمالنا، ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرّياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتّقين إماما.

7) كلمة الشّيخ عدّون (رحمه الله)في الاجتماع السّنويّ العام مع طلبة معهد الحياة وذلك بالنّاحية الشّرقية من المسجد الكبيرصبيحة الإربعاء 06 رمضان 1425هـ / 20 أكتوبر 2004م

أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم، بسم الله الرّحمن الرّحيم،الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على رسول الله.

أبنائي الأعزّاء: إنّني دائما أخاطبكم بهذه الكلمة العزيزة عليّ، وإذا قلت لكم أبنائي الأعزّاء فأنتم أعزّاء لديّ، لأنّكم تحملون أمانة الله العظمى التي عرضها على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها. إنّني أحبّكم لوجه الله تعالى خالصا كما قال الشّاعر:

والله يعلم أنّي لا أحبّكم إلاّ لوجهه دون العمِّ والخال

أحبّكم حبّا عقليّا لا حبّا عاطفيّا، لأنّكم القائمون بأمانة الله، وأحبّكم لأنّكم القائمون خير قيام بمشروع قلّ مثله في العالم، وأنا أبذل كلّ جهد أستطيعه في سبيله.

إنّها لنعمة كبرى لا تقدّر بعد نعمة الإيمان بالله ورسله وكتبه وما يجب الإيمان به، إنّها نعمة العلم وخدمة العلم، لا العلم التّقني المادّي المعروف في العالم، وإنّما العلم الحقيقي الأوّل والأولى، إنّه علم الله، ومن بعده العلوم الأخرى التي تأتي عرضا امتثالا لقوله تعالى: ﴿...وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...﴾ (القصص: 77).

فالعلم الذي نزاوله في المعهد هو العلم الذي قال الله تعالى في أصحابه: ﴿...قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذِينَ يَعْلَمُونَ وَالذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ...﴾ (الزّمّر: 9)، وقال فيهم: ﴿...يَرْفَعِ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...﴾ (المجادلة: 11)، هذا العلم الذي يرفع به الله الإنسان إلى درجة الملائكة، العلم الذي يجعل أصحابه شهداء على الله بالقسط. ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: 18)، هذا هو العلم الذي نشأ عليه سلفنا الصّالح ونشأنا عليه، فمن منكم جاء إلى هذا المعهد طالبا لغير هذا العلم فليخل السّبيل لغيره.

إنّه العلم الذي يوصل إلى الجنّة، إنّه الطّريق المحفورة إلى الرّكبة نسلكها، لا نحيد عنها لنصل الجنّة.

وعلى كلّ طالب جاء إلى المعهد أن يعتقد عقيدة راسخة، أنّه إنّما جاء ليعرف الله حقّ المعرفة، ويؤمن به حقّ الإيمان، ويعمل من أجله كلّ عمل صالح، إنّه علم زاخر وبحر لا ساحل له، ويا سعادة من رزق هذا العلم، ويا سعادة من رزق هذا السّبيل، لنكون بعد ذلك خالدين مخلّدين في جنان الفردوس.

هذه غايتنا الأولى والمثلى والقصوى من هذا العلم، معرفة الله والعمل بما يأمر، القرآن وحفظه وفهمه والعمل به، السّنة المطهّرة فهمها والعمل بمقتضاها، وإنّني أكرّر وأؤكّد هذه الحقيقة والكلام في هذه النّقطة يستحقّ الإطالة أكثر.

ألا فلتعلموا جميعا أيّها الطّلبة، وخصوصا الذين التحقوا بالمعهد جُدُدًا، أنّكم إنّما جئتم لطلب هذه الغاية، لا لنيل الشّهادات، وإنّما الشّهادات جواهر في الطّريق المرسوم، نتوصّل بها إلى الحياة العليا في الدّنيا- إن كانت في الدّنيا حياة عليا - وعلينا أن نبذل كلّ الجهد في هذا العام بالفوز بنجاح أكبر في الشّهادات، ولكنّ الجهد الأكبر إنّما نبذله في العلم الذي يوصلنا إلى الجنّة وإلى مرضاة الله، في العلم الذي يزيدنا إيمانا بعد إيمان، ويزيدنا حبّا لله ﴿...وَالذِينَ ءَامَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...﴾ (البقرة: 165)، فلنكن ممّن يحبّ الله، وحبّ الله يتجسّد بتقواه والعمل بما يحبّ، ومن اتّقى الله حقّ تقاته فقد أحبّ الله وأحبّ رسوله ولنحمل نفوسنا على هذا السّبيل.

إنّ للطّلبة لشرفًا كبيرا بالتحاقهم بهذا المعهد، وللأساتذة الذين بذلوا كل جهد لترقية المعهد، وإنّنا لنقدّر مجهوداتهم ولا ننكر فضلهم أبدا، وقد تكون منهم بعض زلّات تعدّ في حقّهم صغائر، وهي لا ينجو منها أحد، وهي الصّغائر التي تمحى بالحسنات، ولعلّه من كمال الإنسان أن يلمّ ببعض الصّغائر، ثمّ يتوب منها﴿...إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...﴾(هود: 114).

على الطّلبة أن يعلموا أنّهم يطلبون نفيسا لا يوجد في غير هذا المعهد، وأقولها جازما، قد يوجد مثل هذا في بعض النّفوس الطيّبة، أو في بعض الكتب القيّمة، ولكن أن يوجد مثل هذا المجتمع، ومثل هذه المشاريع العلمية، والكفاءات المهنيّة، والنّوايا الصّادقة فهذا ما لا أظنُّ وجوده.

أيّها الميزابيّون ويا أيّها القائمون على هذه المشاريع العلمية، إنّنا لا نفرّق بين مزابي وغيره، ولا بين إباضي وسواه، فالمعهد للجميع، وهو يعلّم الجميع الإسلام الصّحيح الخالي من كلّ غثّ، إنّه الإسلام الذي نطبّقه وندعو إليه.

هذا هو المعهد الذي جئتم لتتزوّدوا منه خير زادٍ ﴿...فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ...﴾ (البقرة: 197). ولتعلموا أنّه سواء كان مجيئكم برغبة منكم أو برغبة أوليائكم فأنتم سعداء، لأنّكم — من اليوم — في بحبوحة الجنّة؛ بطلبكم هذا العلم، فأعظم بها من نعمة سابغة عليكم وعلى أوليائكم.

للأساتذة الفضل الكبير في تحمّل هذا الثّقل العظيم، وهذه الأمانة العظمى، فبارك الله فيهم وفي صحّتهم وعائلاتهم وأولادهم، إداريين وغير إداريين، قدماء وجددا.

أمّا هذا العاجز الماثل أمامكم فإن هو إلاّ واحد منهم، تحمّل ما تحمّل ولا يزال، أرجو أن يكون من الذين كان يصفهم، وأرجو أن يكون قد قام بواجبه أحسن قيام.

كنت أرجو أن تكون جلسة أخرى معكم، أجد فيها نشاطا أكبر، ومجالا للكلام أوسع، ولكنّ حالتي الصّحية لا تسمح بذلك، وأنا أرى الاهتمام بمثل هذه الجلسات واللّقاءات من أعظم الواجبات والضّروريات، ومن أفضل القربات التي أتقرّب بها إلى الله تعالى، أرجو أن يتقبّلها منّي.

والمشاريع العلمية والاجتماعية بقدر ما هي قائمة على الأساتذة والطّلبة، ولكنّها قائمة كذلك على مجهودات المحسنين المساهمين بأموالهم، والذين يضمنون سير الجمعية ومؤسّساتها مثل المعهد والمدرسة، والدّاخلية والنّادي...

إنّها حقّا لَلحياةُ السّعيدة التي دعا الله تعالى إليها ورسوله، ﴿يَآ أَيـُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ (الأنفال: 24)، فاللّهمّ إنّنا نستجيب لما دعوتنا ولما يحيينا، فتقبّل منّا هذا العمل واجعله في ميزان حسناتنا، ويا سعادتنا إن تقبّل منّا هذه الأعمال الصّالحة، التي نعدّها من أعظم القربات.

وإنّ أعظم عمل نتقرّب به إلى الله تعالى تلقين أبنائنا معرفة الله، وهي قربة تحتاج إلى تديّن وفقه وإخلاص محض، نرجو أن نحيا جميعا هذه الحياة لتصفو القلوب من الأدران، والأعمال من الرّياء وحبّ المحمدة وحبّ التّقدّم بغير حقّ وسبب، وغير ذلك من المثالب التي تذهب بالمشاريع وتقضي عليها.

ما أكثر المشاريع التي كانت قائمة وظاهرة، قضى عليها الرّياء وحبّ المحمدة وحبّ الزّلفى، وما قام مشروع وسقط إلاّ وسببه الرّياء وعدم الإخلاص لله، إذ لو كان الإخلاص قائمًا لما وقع شنآن، ولولا الآفة الماحقة للحسنات لكنّا في سعادة وهناء، ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ...﴾ (الزّمّر: 3)، والدّينُ غير الخالص هو الذي يشاركه الرّياء وحبّ المحمدة، وهما السّوس الذي يأكل المخزن، كما قال ذلك

العابد في حال الاحتضار، وقد قال له من كان معه: لقد فعلتَ الخيرات وقدّمتَ أعمالاً فلا تخش، فقال: أخاف من المخزن أن يأكله السّوس، وسوسةٌ واحدةٌ كافية للإتيان على المخزن.

هذه مبادئي أرجو أن أركّز عليها، أيّها القاصدون المعهد، وفي النّفس كلام طويل ونقاط أخرى ولكنّ بعضها حضر وبعضها لم يحضر، وقد ابتليت بآفة النّسيان وما أنسانيها إلاّ الشّيطان لعنه الله.

أيّها الطّلبة الأعزّاء، إنّنا في حاجة ماسّة إلى التّزوّد من العلم، والتّفاني في تحصيله، وبذل كلّ جهد عملي وبدني، فاحرصوا واجتهدوا وإلاّ فما ينفع الأساتذة إذا لم تحسنوا التّلقّي عنهم، وتحسنوا السّؤال وتحفظوا الجواب، فعلى التّلميذ إذا أشكل عليه أمر أن يسأل، وفي سؤاله فائدة لنفسه ولزملائه ولأستاذه، والعلم إنّما يحصل بالمناقشة بين الطّرفين، والحقيقة بنت البحث، وما فائدة الطالب جالسا جامدا في القسم كالصّنم لا يسأل ولا يعي، وجوده ضرر ومضايقة لغيره.

أحسنوا المراجعة والمطالعة، طالعوا الكتب التي تدرسونها وغيرها، خاصّة كتب اللّغة العربية التي تحتاج إلى إحياء وبعث من جديد، وقد كانت العربية في المعهد قوية، وإنّني لأرى لها اليوم ضعفا، ويجب أن يعود إليها مجدها من أساتذة أكفاء يتقنونها، فنّا وإلقاء، وكلّما ازداد الأستاذ بحثا كلّما أتقن درسه واستفاد التّلميذ.

ولقد اشتهر المعهد بالأدب واللّغة العربية، وأرى هذه الشّهرة بدأت تضمحلّ وتتقهقر، وعلى المعهد أن ينهض ويتقدّم بالتّركيز على

كتب الأدب والنّحو ودواوين الشّعر، ولو سئل تلميذ في مستوى البكالوريا عن بعض الشّعراء لتلعثم، وهذا ضعف كبير.

لقد فتحنا القسم العلميّ في المعهد، وهذا أمر حسن، ولكن علينا أن نركّز في المعهد على رسالته الأولى، على العقيدة والعربية أوّلا.

علينا أن لا نغترّ بالنّسبة المرتفعة التي حصل عليها المعهد، إذ الشّهادة وسيلة لا غاية، وإنّما الغاية معرفة الله حقّ المعرفة - وعلى المرء كلّما ازداد علما أن يزداد إيمانا — ولعلّ نجاح هذا العام كان فلتة من فلتات الزّمان، أن تبلغ 64%.

إنّنا نريد أن يزداد المعهد نجاحا واشتهارا، ولكن لتلقين مبادئ المعهد الأساسية، وهي معرفة الله حقّ المعرفة والإيمان به.

ولقد كثر الدّكاترة وحاملو الشّهادات الذين يتربّعون على مناصب عليا، وكلّ ذلك إنّما هي وسيلة لا غاية. فعلينا ببذل جهدٍ أكبر، للوصول إلى مصاف الرقيّ والتّقدّم، فأرونا منكم إرادةً وعزيمةً ونجاحًا في سبيل الله أكبر.

يبدو في هذا كفاية، أرجو أن يكون لهذه الكلمة أثر في الظّاهر والباطن، إنّها كلمة صدرت من القلب، وستقع في القلب، وتنشّطها الجوارح، وفي ذلك سعادتنا الدّنيوية والأخروية، ويا سعادتنا لو اتّبعنا هذه المبادئ.

إنّني لا أظنّكم تشعرون بما أشعر به من الغبطة والبهجة، وإنّني

لآسف كلّ الأسف أن أفارق هذا المشروع، وأرجو أن أكون قد أخذت حظًّا من الحياة، وأدعو الله تعالى أن يتقبّل عملي، إن كان هناك عمل صالح، وأن أكون من المتّقين الذين يتقبّل الله منهم ﴿...إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. (المائدة: 27).

قلبي يجيش بالعواطف، كيف أفارق المعهد وهذه الجلسات معكم، وجلسات الإدارة، خاصّة مثل هذا الاجتماع الذي أراه أعظم المجالس، نرجو أن يتقبّله الله تعالى منّا.

لقد وقفت سنة 1948م بعد عودة زعيم الأمّة الشّيخ بيّوض من سفر طويل، وقد احتشد الجمع، بصحن المسجد، وألقيت خطابا كبيرا، وقمت أمام الجميع مبايعا الشّيخ بيّوض، وقلت له: أعاهدك باسم المعهد والمدارس في قرى ميزاب ووارجلان وبسكرة وباتنة، وحيثما كانت مدرسة أفتّشها، أبايعك على التّفاني في خدمة العلم والإصلاح، وبكى النّاس كلّهم ممّا سمعوا، ولقد تحقّقت هذه المبايعة، فازداد طلبة المعهد، وتوسّعت المدارس إلى آلاف التّلاميذ، ونشط الإصلاح والحركة العلمية والحمد لله، والله تعالى يتقبّل منّا، نرجو أن يجمعنا الله تعالى في رحمته الواسعة على سرر متقابلين، كما جمعنا اليوم في الدّنيا في رحاب هذا السجد العامر.

إنّكم كلّكم تعرفون الأستاذ الكبير محمّد الهادي الحسني، إنّه يحبّ الإباضيّين والميزابيّين أكثر ممّا يحبّ الميزابيّون أنفسهم، إنّني أقرأ دائما كتاباته، خاصّة ما ينشره في البصائر والشّروق اليومي والأسبوعي، وقد

نشر مقالات عديدة عن الإباضية، خاصّة مقاله الذي سمّاه – حبّ عقلي – إذ هو يحبّ الإباضية عقلا لا عاطفة، إذ ما نفعه الإباضية بشيء مادّي ولا بخير، إنّه صديق لبعض الذّوات والمثقّفين، خاصّة الدّكتور محمد ناصر.

له مقالات ممتعة، من أمتع ما يقرأ ويطالع الإنسان، منشورة في كتابه الصّادر له هذا الأسبوع تحت عنوان (من وحي البصائر)، أكثرها صدر في هذين العامين الماضيين، وكلّ مقال يجتذبك إلى قراءة المقال الموالي، كما قال مقدّم الكتاب الدّكتور محمّد ناصر، الذي قدّم له بمقدّمة نفيسة، ومطالعة الكتاب تبيّن مقام الكاتب، وإنّني أقول هذا الكلام في حقّ صاحب الكتاب عقلا لا عاطفة، إنّه كتاب عزّ له نظير، ويجب علينا أن نمدّ لهذا الشّخص يد العون، بشراء هذا الكتاب وترويجه، وهو في غاية الأناقة من حيث التّجليد والصّفحات والكتابة، وأسلوبه من أروع الأساليب، إذ هو صادر من كاتب من أعظم الكتّاب في الجزائر، ولقد كنت أقرؤه، ولكن سرعان ما يتملّكني التّعب أو يطرأ شغل يشغلني، كتاب نفيس، فيه تاريخ، فيه سياسة، فيه أدب، فيه أخبار.

إنّني لا أفرض الكتاب على الطّلبة، ولكنّ لي كلّ الثّقة في الأساتذة أنّهم لا يردّون طلبي، فأسجّل في حساب كلّ واحد منهم قيمة الكتاب، وإن كنت لا أدري إلى الآن سعره، ولست بهذا مرغما أحدا، ومن لم يقبل فله الخيار، ولا يؤثّر ذلك في نفسي شيئا، وإنّما أريد أن

يأخذ كلّ واحد الكتاب عن رضى وطيبة نفس، وهذا أحسن ما يهدى ويكافأ به الأستاذ الفاضل، وفي الحقيقة هذه إعانة لنا للتّمتّع بالكتاب، لا إعانة مادّية للأستاذ، وبودّنا لو قمنا نحن بتوزيع وترويج الكتاب، ويا سعدنا لو كنّا نحن القائمين بذلك. و الحمد لله رب العالمين.

8) كلمة الشّيخ عدّون (رحمه الله) في الاجتماع العام مع طالبات متوسّطة وثانوية الحياة المنعقد بعشيرة البلات بالقرارة صبيحة الأحد 17 رمضان 1425هـ / 31 أكتوبر 2004م

بسم الله الرّحمن الرّحيم، الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على رسول الله.

أبنائي الأساتذة الأعزّاء! بناتي الطّالبات العزيزات! السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تحيّة من عند الله مباركة طيّبة، أزفّها إليكم من صادق صاف يودّ السّعادة لبنيه وبناته، سلام عاطر من قلب يحبّ الجنّة لكلّ النّاس، خصوصًا من كان تلميذا في دائرة العلم، وبالأخصّ في دائرة هذا التّعليم الحرّ الذي حبانا الله تعالى به، وهو من أعظم نعم الله، قلّ من ينعم بها، نعمة لا نقدر قدرها ولا نؤدّي شكرها إلاّ بالتّفاني في سبيل هذه النّعمة.

فاشكروا الله تعالى أيّها الأعزّاء، فإنّكم لتسبحون في رياض الجنّة،

تقطفون أزهارها وتأكلون ثمارها، واسألوا الله أن يتمّها عليكم.

وإنّني لأكرّر وأعيد وأؤكّد على شكر الله على هذه النّعمة، ولا تشعر واحدة منكنّ بعظم هذه النّعمة إلاّ إذا قارنت نفسها بمن حرم مثل هذا التّعليم.

أيّتها البنات الفضليات! إنّكنّ لم تخلقن لهذه الحياة الدّنيا، وإنّما لحياة أخرى دائمة، ولا تعتبر الحياة الدّنيا بالحياة الآخرة شيئا، وهذا ما يجب أن يرسخ في القلوب، والعلم الذي يضمن لنا المستقبل الدّائم، إنّما هو علم الله تعالى ومعرفته حقّ معرفته، والإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر، وكلّ ما يجب الإيمان به من أصول الدّين، هذا الذي يجب الإيمان به والعمل بمقتضاه ﴿ يَآ أَيـُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾(الأنفال: 24)، والحياة التي نستجيبها لله وللرّسول إنّما هي الحياة الحقيقية التي نعيشها في الآخرة، وذلك بسلوكنا وخلقنا، ومعرفة الله حقّ المعرفة؛ خالقا مدبّرا حكيما، محييا مميتا.

هذا هو العلم الذي أريد أن أركّز عليه، والذي يجب أن يتعلّمه كلّ واحد، وكلّ عالم خلا من هذا العلم فإنّما علمه يضرّه ويخلد صاحبه في النّار.

لقد خلقنا للبقاء والحياة، ولكن لا في الدّنيا وإنّما في الآخرة، ولقد مضت القرون ولم يبق منهم أحد، وكلّ من ولدوا إلاّ وقد ماتوا وقضوا وصاروا إلى الله.

خُلِق النّاسُ للبقاءِ فضلَّت أُمَّةٌ يحسبونهم للنَّفَـــادِ
إنَّما يُنقَلُون من دَارِ أَعمـــا لٍ إلى دَارِ شَقْوَةٍ أو رَشَادِ

هذا العلم الذي يجب أن يأخذ جزءًا كبيرا من حياتكم، وهذا الذي نطلبه من الأبناء الأعزّاء، وما تقوم هذه المشاريع كلّها إلاّ لأجل هذا العلم، ولأجل هذه الحياة، والنّاس الذين يبذلون الملايير في سبيل هذا العلم، كان بإمكانهم أن ينفقوها في سبل أخرى، لكنّهم آثروا الإنفاق في سبيل علم الآخرة، بارك الله فيهم وأثابهم أجرًا كبيرًا.

أيّتها البنات! إنّ ما قلته أو أقوله قد سَمِعتُنَّه مرارًا في لقاءات سابقة، وإن هو إلاّ تكرار، ولكن لا بأس بالتّكرار، والله تعالى يقول: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُومِنِينَ﴾(الذّاريات: 55)، فهو يدعو إلى التّذكير والتّفكير والتّدبُّر، وما نزل القرآن إلاّ لـــيُتدبَّر.

جئتُـــنَّ إلى هذه المؤسّسة لتتعلَّمن العلم الدّينيَّ أوّلا، ثمّ مختلف العلوم الدّنيوية الأخرى والمهنية، والعلم الدّنيويُّ إذا أردناه لوجه الله كان عبادة لله، بشرط العمل بما نتعلَّم، وهذا ما نريده بقولنا دائما: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة: 5)، أي إنّنا نخضع لألوهيتك وإرادتك، ونستعين في كلّ الأمور وفي هدايتنا للسّير في الطّريق المستقيم.

أيّتها البنات العزيزات! ويا نساء المستقبل! إن هذا المجتمع لا يقوم إلاّ عليكنّ، نعم هو يقوم على جناحين، على الرّجل والمرأة، ولكن على

المرأة أكثر.

فخدمة البنت في دارها عبادة. عملها في المجتمع عبادة، إذا كانت أحسنت التّعلّم وأحسنت التّعليم، وإنّها متى تتزوّج تأتي بأولاد ذوي أخلاق وإدراك، يكونون من عمّار الحياة السّعيدة الفاضلة، يقومون بواجبهم في المجتمع، حتّى إذا قيل ممّن الرّجال؟ فيقال من بنات تعلّمن في مدرسة الحياة. فالأمّ إذا قامت بواجبها فلأنّ مدرسة الحياة قد قامت بواجبها نحوهنّ، وبذلك يصبح المجتمع كلّه مدرسة يعلّم ويتعلّم.

هناك تضحيات كبرى تبذل لإقامة هذه المشاريع، ومنها مشروع الحياة العظيم الذي يقام من أجل هذا العلم، لأجل أن تكون هناك قوّة عقلية وروحية عظيمة، وبهذه القوى نسعد في الحياة.

حافظن على الواجبات المدرسية، وعلى أوقات الدّراسة، فهي بالنّسبة إليكنّ قليلة إذا ما قيست بالنّسبة للذّكور، فللذّكور أوقات طويلة في التّعليمين الرّسميّ والحرّ، وأمّا أنتنّ فلكنّ وقت في التّعليم الحرّ فقط، فحافظن عليه، ولنستثمره ونربحه ونعمل كلّ عملنا بجدّية للتّحصيل ولتتفتّق القلوب، ولننكبّ على المطالعة والمدارسة، إنّكنّ لا تكسبن من هذا ذهبا ولا فضّة، ولكن تكتسبن أغلى من ذلك، عزَّ الحياة وعزَّ الممات.

لا تضيِّعْنَ الوقت في القيل والقال، ركِّزن على الاستماع وقت التّحصيل، لا تَخُنَّ أوقاتكنّ بالالتفات وعدم الإصغاء، ثمّ قمن بواجبكنّ، لا بالإكثار من المعلومات، وإنّما باستعمالها فيما يَصلُح

ويُصلِح.

حسِّنَّ أخلاقكنّ مع أنفسكنّ، مع والديكنّ، وهذا أمر واجب، وطاعة الوالدين من طاعة الله، ثمّ مع المجتمع كلّه.

على الفتاة أن تقوم بكلّ واجباتها، سواء هي في بيت أبويها أو بيت زوجها، وندعو الله تعالى أن يرزق كلّ واحدة منكنّ بعائلات طيّبة جديدة، فأحسِنَّ العشرة بأخلاقكنّ الطيّبة، وهذا ما تتعلّمنه هنا.

هذه كلمة صادقة أرجو أن تعملن بها، وإنّني متعب كثيرا ولا أستطيع أكثر من هذا، ولولا إلحاح من الإدارة واستجابة لنداء الواجب، فافتحن قلوبكنّ لله يفتح لكنّ باب الرّزق والعلم والسّعادة في الحياة. و الحمد لله رب العالمين.

الشّيخ سعيد بن بالحاج شريفي ([88])

(الشّيخ عدُّون) في الخالدين

الدّكتور مصطفى بن صالح باجو

تمضي الحياة سيلاً موّارًا بالأحداث الجسام، وتلفّ الأيّام ما لا يحصى من الأنام، قضوا على ظهر هذه الأرض عدد سنين، ثم مضوا إلى عالم آخر، فتطوى مع أنفاسهم آثارهم، ويصبحون في خبر كان.

وثمّة فئة من النّاس أدركت حقيقة الحياة، فاستمسكت بواهب الحياة، وتشبّثت بأسباب الخلود، فكان له من أعمالها وآثارها ما أحياها بعد مماتها، وظلّت حاضرة وإن غابت أشخاصها عن النّواظر، وحيّة وإن رمّت جسومها في المقابر، ومن هؤلاء شيخ الشّباب الصّالح، الوليّ الرّضيّ، أبونا الشّيخ سعيد شريفي، الشّهير بالشّيخ عدُّون عليه شآبيب الرّحمة والرّضوان.

لقد مضى الشّيخ عدُّون إلى دار الخلود، وما انقضى ذكره وأثره من الوجود، بل هو حاضر بيننا مشهود، يتمثّله الأحفاد قبل الأبناء، ويأتسون به مثلا في الإخلاص والمضاء، والتّضحية والوفاء.

أجل لقد ودّعنا هذا الأب العظيم، وودّعته الجزائر والعالم الإسلامي

---

[88] – مجلّة الحياة (معهد الحياة)، العدد العاشر، ص: 231 – 254.

قبل أزيد من عام ونصف، فودّعت فيه علمًا بارزا من أعلام النّهضة الإصلاحية، والحركة العلمية المباركة التي شهدتها أرض الجزائر طوال القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين.

كانت جنازة مهيبة يوم الأربعاء 20 رمضان 1425هـ/ الثّالث من نوفمبر 2004م، بمسقط رأس الفقيد بمدينة القرارة، حضرها آلاف المشيّعين من مختلف جهات القطر الجزائري، من العلماء والزّعماء، والقادة وعامّة المسلمين، جاؤوا من كلّ حدب وصوب ليودّعوا رجلا كان أمّة يمشي بين النّاس، ويغدقوا عليه من خالص الدّعاء ما يكون شفيعا له عند ربّ النّاس، يوم يقوم النّاس لربّ العالمين.

وشهدت الجموع الوافدة على القرارة لحظات مهيبة خالدة، وموقفا مشهودا في التّاريخ، فيه تخرس الكلمات، ويقصر البيان، فينعقد اللّسان، ويكبو فرس اليراعة دون المرام، لجلال الموقف وهيبة المقام.

ويتساءل السّائلون: من هو الشّيخ عدُّون؟ وماذا يقول عنه الواصفون والعارفون؟ وما موقعه بين مقامات أعلام التّاريخ؟ ممّن صنعوا أمجاد الدّول، وبنوا شوامخ القلاع، أو فتحوا الأقطار، وسحروا الأنظار، وعرفتهم ساحات النّجوم في دنيا المال والفنّ والسّياسة. واحتضنت أسماءَهم موسوعاتُ الأعلام، وتزيّنت بها صفحات الجرائد وشاشات الإعلام؟

لا شيء من هذا كان، إلاّ نزرا يسيرا، لا يعدو تعريفا في جريدة

محلية أو وطنية، وحفلة تكريم ووفاء إخوانية، بعيدا عن الأضواء السّاطعة، وصخب الإثارة الإعلامية الصّارخة.

فمن هو الشّيخ عدُّون؟ وأيّ رجل يكون؟ وهل يستحقّ أن يحجّ لجنازته المشيّعون؟ ويذكره بين الزّعماء الذّاكرون؟ أو يكون له لسان صدق في الآخرين؟

أمّا عن مسيرة الشّيخ عدُّون، ومنطلقه، فقد نشأ في وادي ميزاب بالقطر الجزائري، حيث كان مولده بمدينة القرارة التي تبعد مسافة 630 كلم جنوب الجزائر العاصمة، رأى بها نور الحياة سنة 1319 هـ/ الموافق لـ 1902 ميلادية.

عرف الفقر والعوز في خطوات حياته الأولى، ففقد والده في بواكير العمر، وكشّرت له الأيّام عن أنيابها، حين لم يخلّف الوالد الرّاحل ما يرثه الأبناء من متاع الحياة، إلاّ زادا من التّنشئة على الفضيلة والاستمساك بأهداب الدّين، وديونا بذمّة الأب عاجله الموت دون قضائها، فكانت تركته مغارم لا مغانم، تحمّلها الابن سعيد عن رضى بقضاء الله في اجتماع ألَمِ اليُتْم وهَمِّ الدَّيْن، وما كان أمامه من خيار إلاّ أن يسافر مغتربا إلى مدينة سَرْيَانة وهو صبيّ دون العاشرة من عمره، فعمل أجيرا لسداد دين أبيه، وقضى بتلك القرية النّائية في جبال الأوراس، ذات الشّتاء القارس والثّلوج بضع سنين.

ولكنّ شغفه بالعلم كان قد ملك عليه أقطار نفسه، ورأى نفسه ثمرةً اختُضِرت قبل تمام نضجها، وازداد لهفه للعودة إلى منابع العلم ليشفي غليله، وظلّ يتحيّن الفرص بالانكباب على ما يجده في محيطه من قصاصات أوراق فيها بعض الكتابة، فيقرؤها ويسلّي نفسه بها.

وظلّت نفسه الطّمّاحة طُلَعَةً إلى العلم تهتبل منه فرصا نادرة، ولحظات سانحة، حتّى بلغ سن الثّامنة عشرة فرجع إلى بلدته الأمّ، وانضمّ إلى طلبة العلم في حلقة شيخ المدينة الصّالح الحاج عمر بن يحى المليكي، رحمه الله. ([89])

وكان قد برز نجم إبراهيم بيّوض في حلقة هذا الشّيخ، فتآلفت روح الطّالب الجديد مع الطّالب القديم، وكانت نقطة انطلاق مسيرة حافلة مباركة تركت أثرها في ميزاب والجزائر وفي مواطن شتّ من العالم الإسلامي.

وحين توفّي الشّيخ الحاج عمر بن يحى كانت مؤهّلات الشّيخ بيوض القيادية قد اختارته زعيما للحركة العلمية، ثمّ النّهضة الإصلاحية في القرارة، وفي جنوب الجزائر، وقضى في هذا الجهاد ستّين سنة كاملة من

---

89 – قبل أن ينضمّ إلى معهد الشّيخ الحاج عمر بن يحي، دخل مدرسة الشّيخ محمّد بن الحاج إبراهيم قرقر، المعروف بالشّيخ الطّرابلسي (ت 1948م) بالقرارة مرّتين سنة 1915م، ثمّ سنة 1919م. بينما التحاقه بمعهد الحاج عمر كان سنة 1920م. (م.ن.ب)

عام 1921م إلى وفاته سنة 1981م.

كان الشّيخ عدُّون طيلة هذه الفترة الحافلة وزير صدق للشّيخ إبراهيم بيّوض في جهاده الإصلاحي ومشاريعه العلمية والتّربوية. لم يتخلّ عنه يوما، ولم يتوانَ عن نصرته ساعةً، حتّى لحق الشّيخ بيّوض بربّه قريرا مطمئنّ البال، فخلفه في ريادة الحركة الإصلاحية، ومضى بالسّفينة رُبَّانًا لها، على امتداد ربع قرن من الزّمان، إلى أن فاضت روحه إلى بارئها، ولحق بالرّعيل الأوّل من رجال العلم السّابقين، الذين كانوا معه فريقا متلاحما متضامنا، عاهدوا الله على نصرة الدّين وتنوير الأمّة، وإخراجها من ظلمات الجهل، وإنقاذها من براثن الاستعمار، فتحقّق للجزائر النّصر والاستقلال، ونعمت بظلال الأمن والازدهار، ثم شاءت الأقدار أن يودّع الشّيخ عدُّون الجزائر، وهي في غمرة احتفالات الذّكرى الخمسين لاندلاع ثورة التّحرير الكبرى.

تاريخ حافل أَرْبَى على قرن من الزّمان، ومسار زاخر بجلائل الأعمال، قطعه الشّيخ الرّاحل بعزيمة وإيمان، وصبر ويقين، لم يحِدْ عنه قيدَ أنملة، على تقلّب الأحوال، واشتداد وطأة المستعمرين، وأعوانهم الطّامحين، وأذنابهم الطّامعين، وبرغم اشتداد الفتن، وتنكّر عشّاق التّسلّق في غفلة من الزّمن، وقَلْبِ بعضِ اللّئام ظهر المجنّ، فقد ظلّ وفيّا صامدا، لم تزعزعه الأعاصير، ولم تفتّ من عزمه حُبليات اللّيالي وطوارق الأيّام.

أجل؛ كانت بداية المشوار من حلقة العلم مع رفاقه تلاميذ الشّيخ الحاج عمر بن يحي، ثمّ تطوّر نشاطه فكان العضو الرّئيس في تأسيس «مدرسة الشّباب» بزعامة الشّيخ بيّوض، سنة 1921([90]) إثر وفاة شيخهما المليكي، وكانت مدرسة حديثة تعلّم النّشء علوم الشّريعة واللّغة العربية وفق المناهج العصرية، تطوّرت بعد فترة من الزّمن لتأخذ اسم «معهد الحياة».

معهد الحياة:

يعرف النّاس في وادي ميزاب أن معهد الحياة هو الشّيخ عدُّون، وأنّ الشّيخ عدُّون هو معهد الحياة. تلازَمَا تلازُمَ الظّلّ والإنسان، وما ذكر أحدهما إلاّ ورد الآخر على اللّسان.

كان معهد الحياة أملَ الشّيخ الأوحد، وهمّهُ المقيم المقعد، فهو عصارة عمره، وروح رسالته منذ نشأته إلى يوم وفاته.

في رحاب معهد الحياة تولّى الشّيخ عدُّون تدريس قواعد اللّغة العربية وظلّ أستاذا لها ما يربو على خمسين سنة، كما أسند الإمام الشّيخ بيّوض

---

90 – هذا التّاريخ يحدّد سنة وفاة الشّيخ الحاج عمر بن يحي، أمّا تأسيس معهد الشّباب (معهد الحياة) فكان سنة 1343هـ/ 1925م. ما يشير إليه الدّكتور باجو هو انضمام الشّيخ عدّون إلى حركة الشّيخ بيّوض العلمية بخاصّة، ثمّ الإصلاحية بعد ذلك بعامّة، التي كانت بدايتها بوفاة شيخهم الحاج عمر بن يحي. (م.ن.ب).

إليه أمور تسيير المعهد منذ الأيّام الأولى([91]) إذ شغلت الإمامَ قضايا الأمّة العامّة، فكان الشّيخ عدُّون المديرَ الفعلي، والشّيخ بيّوض المدير الشّرفي.

أجل لقد كان الشّيخ عدُّون رجل الميدان وأساس البنيان، وإن لم يبدُ للعيان، وكان للشّيخ بيّوض وزيرَ صدق في ميادين الجهاد والكفاح، وكم مرّةٍ صرح فيها أنّه لولا الشّيخ عدُّون لما حسم أمورا مصيرية عديدة في مسيرة الإصلاح الحافلة.

لكنّ هذا الوزير آثر البقاء في الظّلّ، موقنا أنّ السّفينة لا تحتمل إلا قائدا واحدا يزجيها، وإلاّ غرقت بمن فيها وما فيها. وكم من زعامات قامت بينها نزاعات بسبب شهوة السّلطة وحبّ الرّئاسة، فتآكلوا بداء التّحاسد والتّكاثر، وقضوا على الأمّة في أتون التّناحر.

في أحضان هذا المعهد لم يكن الشّيخ رأسا في الإدارة يرقب المسيرة على الأوراق، مَحَاضرَ وتقارير تتلى عليه أو تملى، بل كان الأستاذ المربّي، والمراقب الموجه، وفوق ذلك المديرَ المسؤول، يرعى كل صغيرة وكبيرة من شؤون الطّلبة والمعلّمين، رعاية الأمّ الحنون لفلذات أكبادها، يرقب مسارهم على مدار السّنين، يسبق إليه الفرح والحزن الذي أصابهم، ويناله منه أضعاف ما نالهم.

---

[91] – حصل هذا في الأربعينيات.(م.ن.ب)

في ظلّ رعاية الشّيخ عدُّون مضت من عمر المعهد أكثر من ثمانين عاما، في مسيرة مباركة، أثمرت ثمارا طيّبة في تنوير الأمّة، وبناء الأجيال، ولا يزال – بحمد الله – حصنا شامخا في سماء العلم والثّقافة الأصيلة، يمدّ الجزائر وأمّة الإسلام بأجيال من الهداة والدّعاة الرّاشدين المرشدين.

ظلّ الشيخ عدُّون مشرفا مباشرا على أنشطة المعهد التّعليمية من برامج ومقرّرات، وساعيا لتطوير مناهجه وتحديث أنظمته في الامتحانات وتحديد مستويات الدّراسة، لم يألُ جهدا في مدّه بكلّ جديد مفيد ممّا عرفته المدارس والمعاهد الحديثة في ربوع العالم العربي. إذ كان يحثّ الأساتذة وخرّيجي المعهد، الذين توزّعوا في بلدان شتّى، على إمداده بكلّ نافع من هذه البرامج والكتب. ونجحت جهوده فعرف المعهد تطوّرا متسارعا، حتّى عدّه الباحث السّوري بسّام العسلي تجربة رائدة في العالم العربي، يحقّ للعرب أن يفخروا بها أمام العالم، كما يفخر الرّوس بتجربة المربّي الشّهير بافلوف.

وكان لحصّة الأخلاق نصيب الأسد في منهج المعهد، ولا يزال يحمل شعاره الخالد: «الخلق قبل الثّقافة، ومصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد».

وتولّى الشّيخ عدُّون مهمّة البناء الخلقي في دروس منتظمة للطّلبة الجدد، توطئة لهم للانخراط في منظومة المعهد المتميّزة، حتّى يتخرّجوا متميّزين وممتازين في نتائج الأخلاق، قبل ما يسطّرون من معارف في

الأوراق. وقد يهون الرّسوب في الامتحان، ولا يباح أن يرسب في السّلوك أيّ إنسان، وإلاّ فهو الوبال والهمّ والهوان.

وظلّ هذا الدّرس آخر ما تمسّك به الشّيخ حتّى حال دونه ثقل السّنين، فأسند الأمر لخلَف أمين، والموكب سائر بتوفيق ربّ العالمين.

وما ميّز نظام المعهد قيامه على الرّبط بين الجانبين النّظري والعملي في مجال التّربية، إذ لا يكتفي بمنح الطّالب معارف مجرّدة في دروس رتيبة، بل يشفعها بحصص تطبيقية في ما عرف باسم "الجمعيات الأدبية "، كان الشّيخ عدُّون قد ابتكرها، واتّخذها مضمارا لاكتشاف المواهب وتشجيعها، وتفجير طاقات الشّباب في ميادين الخطابة والكتابة، والشّعر والأدب. فضلا عن التّطبيق الأساسي الذي يرونه في أساتذتهم، استقامة والتزاما بتعاليم الإسلام، فيسلكون نهجهم ويتأسّون بهم، ويكون لكلمتهم أثرها البالغ وصداها الخالد في أنفسهم، إذ عاينوها واقعا ملموسا، لا دعوى جوفاء، ممّا يردّده بعض المربّين الفاشلين، فيتعلّلون معتذرين: «خذوا علمي ولا تعملوا عملي».

وكان الشّيخ عدُّون في هذا المنهج الرّائد والحارس، يربّي تلاميذه على الأخلاق والفضيلة، ويحرص أن يكونوا نماذج عليا في تمثّل قيم الإسلام بين النّاس، يحاسبهم على التّقصير فيما يستهين النّاس به من الهفوات، ويغرس في وعيهم أنّهم قدوة للنّاس، فلا يجوز أن يغفلوا عن

هذه الحقيقة يوما، ويجسد لهم معنى الحكمة الشّهيرة: «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين».

علاقــتُه بتلامــــيذه:

كانت علاقة الشّيخ بتلاميذه علاقة الوالد الرّؤوف والأمّ الرّؤوم بأبنائهما، يُعنى بهم ويسأل عن أحوالهم، ويسعى لحل مشكلاتهم، ويمدّهم بالعون الأدبي والمادي لتجاوز عقبات التّحصيل، وكان لا يكبر أمامه عائق في طريق العلم، ويبذل المستحيل ليذلّلــه، وكان يعقد الجلسات العديدة، يقضي فيها السّاعات الطّوال، لحلّ تلك المشكلات، وإزاحة المعوّقات، كي يواصل هؤلاء مسارهم حتّ بلوغ الغايات، ونيل أعلى الدّرجات.

من هنا كان اهتمامه البالغ بالطّلبة النّجباء، مثل اهتمامه بالمتمرّدين على حدّ سواء، هذا بالتّشجيع والتّأييد، وذاك بالتّقويم والتّسديد. وفي هاتين الجبهتين جهاد جليل، وفي بيانهما كلام يطول، يقتضي بسطًا، تبخل به هذه الومضات وتقصر عنه هذه الصّفحات.

وكان أكبر همّه انقطاع الطّالب عن العلم، بل كان يعدّ ذلك فرارا من الزّحف، ويغضب لذلك أشدّ الغضب، ويردّد على مسامع طلبته حُكم الفقهاء أنّ الفار من الزّحف يقتل، تأكيدا منه على خطورة الأمر وفداحة العواقب ليس إلاّ. ولا غرو فقد ذاق مرارة الانقطاع عن

التّعليم، ورأى مصير الصّغار حين يختضرون من رياض العلم، فيُرمَى بهم إلى أوحال الاستذلال والامتهان، فتُرزأ الأمّة في قدراتهم ومواهبهم، ويضيع حاضرهم ومستقبلهم، ويخسرون دنياهم وآخرتهم، وذلك هو الخسران المبين.

وحنوُّ الشّيخ على تلاميذه وحبّه لهم ترك بصمات خالدة في ضمائرهم، وما رأيت أحدا ممّن حظي بالتّلمذة على يديه إلاّ أحبّه حبًّا جمًّا؛ لما كان يغْذُوهم به من هذا الحبّ والحنان، حبّ ينضح صدقا وإخلاصا ورغبة في أن يحقّق كلّ طالب في مستقبله نجاحا كبيرا، ويكون بين النّاس شيئا مذكورا.

أمّا جوّ الدّرس فهو درس لمن رام نموذجا لطريقة التّعليم المثلى، توضيحَ حقائقَ علمية، وزرعَ قيمٍ خلقية، وتوطيدَ محبّةٍ ومودّةٍ وتوقيرٍ واحترامٍ بين المعلّم والتّلاميذ، وفي تلك العلاقة سرّ التّفوّق وحافز على الجدّ في التّحصيل، وفيه تختزل كثير من طرق التّدريس العقيمة التي قصَرَتْ نظرها على الوسائل والشّكليات، وأغفَلَتِ القدوة، وهي أُولَى الأولويات، وأساس كلّ الخطوات.

ولكلّ طالب قضى عمرا في معهد الحياة، ذكرياتٌ عن حصص الدّرس بين أحضان الشّيخ عدُّون، لو جُمعت لكانت موسوعة ونبراسا يهتدي به المربّون. وصدق من أرسلها قولةً حكيمة:

«حتى عصاه لمن عصاه رحيمة».

وبفضل معهد الحياة امتدّ نور الإصلاح فعمّ وادي ميزاب ومدن الجزائر، وتفيّأت ظلاله بلدانًا أخرى مثل تونس وليبيا وعُمان وتشاد ومالي والسّنغال وساحل العاج وزنجبار. وغيرها من الأقطار.

وسطع نجم خرّيجي معهد الحياة حيثما حلّوا وارتحلوا، وكانوا شموسا مضيئة، شرَّفوا المعهد وشرّفوا أنفسهم وأوطانهم، وتبوّؤوا مقاعد سامية في هيئات حكومية وخاصّة، تعليمية وإدارية، ورصّعوا صدور الجامعات والمؤسّسات المختلفة، ونجحوا في شتّى ميادين الحياة التّجارية والصّناعية والمهنية. وذلك بعض أثر بركة الإخلاص التي نفح بها الشّيخ عدُّون ورفاقه أبناءهم في رحاب معهد الحياة.

ويكفيه شرفا في تشجيعه للنّشاط الفكري والتّأليف والطّباعة والنّشر، أن ينجب أمثال الشّيخ علي يحيى معمر، داعية الوحدة الإسلامية، ومنصف الإباضية من تهم أصحاب المقالات. والمؤرّخ الكبير الشّيخ محمد عليّ دبوز، والأديب الشّيخ حمّو فخّار، كهف الحكمة والوقار، والفقهاء الشّيخ النّاصر المرموري والشّيخ محمد الشّيخ بالحاج، الشّيخ المرحوم الشّيخ بكير ارشوم، وشاعر الجزائر والعروبة الدّكتور صالح الخرفي، وشاعر المعهد الخالد وأنعم به من مربٍّ ووالد؛ صالح باجو، والأديب الشّاعر والباحث الإسلامي الدّكتور محمد ناصر وبلبل

الوادي وحكيم أمّ القرى الشّيخ إبراهيم قرادي. ومن تلاميذه إطارات سامية بأرض عمان، أمثال سعادة الشّيخ سعيد بن ناصر المسكري، والشّيخ محمد بن ناصر الرّيّامي، والشّيخ يحي بن سفيان الرّاشدي، والدّكتور خلفان بن محمد المنذري، وآلاف مؤلّفة من الخرّيجين والنّابهين، يقصر عن تعدادهم المقام، ويثقل بأثرهم ميزان الشّيخ بين الأعلام.

جمعية الشّباب وأثرها:

أمّا الجمعيات الأدبية التي عرفتها أنشطة الطّلبة، فلم تكن مجرّد ميدان للتّكوين العلمي التّطبيقي، والتّدريب على تمثّل القواعد النّظرية وممارستها في ما يكتب أو يقال، فحسب، بل كانت فوق ذلك ميدانا لترويض العقل على البحث والنّظر، والنّقاش والحوار، والأهمّ من هذا كلّه، أنّها كانت مجالاً لعمل أخطر، ومضمارا لتحقيق غاية أسمى، غاية تتمثّل في بعث الرّوح الوطنية ومقارعة الاستعمار، إذ تُعرض في أحضان تلك اللّقاءات قضايا الحرية وعزّة المسلمين، وفداء الأوطان، والسّعي لإنقاذها من براثن الكافرين، وكانت جلسات هذه الجمعية سرية لا علم للإدارة الفرنسية بها، ويتعهّد أعضاؤها بكتم أمرها، وعدم إفشائه ولو لأقرب النّاس وأعزّ الأصدقاء.

ومضت الجمعيات الأدبية في مقدّمة القطار، تقود عرباتها من محطّة نصر لأخرى، حتّى كانت شرارة حرب الخلاص، فثار شعب الجزائر

بتضافر جهود رجال الإصلاح العاملين في الشّمال والجنوب، ووقف الشّعب صفًّا واحدا يقول للمستعمر على لسان شاعر الثّورة مفدي زكريّاء:

يَا فَرَنسَا قَدْ مَضَى وَقْتُ العِتَابْ
وَطَوَيْنَاهُ كَمَا يُطْوَى الكِتَابْ
يَـــا فِرَنْسَا إِنَّ ذَا يَومُ الحِسَابْ
اَستَعِدِّي وَخُذِي مِنَّا الجَوَابْ
إِنَّ فِي ثَوْرَتِنَا فَصْلَ الخِطَابْ
وَعَقَدْنَا العَزْمَ أَنْ تَحْيَا الجَزَائِرْ
فَاشْهَدُوا فَاشْهَدُوا فَاشْهَدُوا...

وتركت لنا هذه الجمعيات في أرشيفها كنوزا من النّتاج الفكري والأدبي يكشف عمّا كان يجري في رحمها من مخاض عسير، أفرز هذه الرّوح الوطنية الواعية، وينمّ عن مدى الرّشاد الذي اتّسمت به قيادة الشّباب في هذه اللّقاءات، حمل رايتها الشّيخ عدُّون وأثمرت في ما دوّنه الطّلبة من مقالات وقصائد، وأناشيد بلغت العشرات، كلّها تشيد بالوطن وتدعو للسّعي إلى تحريره من نير الاستذلال، وجاءت في أسلوب حماسيّ صادق، ولكنّه ذكيّ حكيم، تدكّ قنابله معاقل المفسدين، دون أن تناله

أعين المخبرين، فتصيدَ قائله شراك المستعمرين، أو تسجّل عليه إدانة في تقارير العسكريين الفرنسيّين.

وتلك صفحة بحاجة إلى دراسة مستفيضة تجلي فضل الجمعيات الأدبية بمعهد الحياة في إيقاظ الرّوح الوطنية في الشّباب، ومحو خرافة أن فرنسا ستبقى في الجزائر إلى يوم الحساب.

علاقة الشّيخ بالأساتذة:

أمّا عن علاقة الشّيخ عدُّون بالأساتذة في المعهد فشيء فوق الوصف؛ ممّا كان يفيضه عليهم أيضا من نبع المحبّة والتّقدير، ويشعرهم أنّهم قلب المعهد وقدوة الطّلبة، ويشيع في أوساطهم علاقة مودّة تسامت عن المطامع والمصالح، وترسّخت فجعلت منهم أسرة متلاحمة، ضربت مثالا لنجاح الأسرة التّعليمية وتعاونها، وتضحياتها وعملها بروح الفريق الواحد، لغاية واحدة هي بناء الأجيال ونشر النّور، وإرضاء الله وراحة الضّمير، لا مجرّد أداء الواجب وانتظار موعد الأجور.

وما تقدّم إليه أستاذ بشكوى إلاّ أشكاه، ولا في حاجة إلا أغناه، وقد بلغوا جميعا غايتهم منه ونال كلٌّ ما تمنّاه، وفازوا منه بدعوات الخير، ورضى الأمّة وما عند الله خير وأبقى.

وكذلك كانت صلته بالمعلّمين في مدارس التّعليم الحرّة، التي

أنشأتها جمعيات الإصلاح في مدن ميزاب وخارجه على امتداد القطر الجزائري، يهتمّ بهم ويتابع أخبارهم ويسأل عن أحوالهم، ويبذل قصارى جهده لتوفير الجوّ المناسب لهم حتّى يقوموا برسالتهم أحسن قيام. ويدعو مَن حولهم من النّاس وأهل اليسار لمؤازرتهم ومدّ يد العون لهم، ويهيب بالأولياء أن يعضدوا جهود المدارس، مركزًا على دورهم الأساس في إنجاح عملية التّعليم. كما يغرس في ضمائر النّاس وأذهانهم شرف ومقام المعلّم، وأنّه المنقذ الذي يقود الأمّة ويتقدّم القافلة في طريق الجنّة، فعليهم أن يعرفوا مقامه ويقدروه حقّ قدره.

وكانت استجابة النّاس مثالية لهذه التّعاليم فاحتضنوا هذه المدارس بمعلّميها وتلاميذها، وناصروها فانتشرت واتّسعت وتطوّرت، ولا تزال نجوما تنير طريق الأجيال في كلّ مدينة وقرية.

وَمَدَارِس بُثَّـــتْ نُجُومًا لِلسُّرَى في القُطْرِ مِن بُعدٍ يَرَاهَا القَاصِدُ

وفيها يستيقظ الصّبيّ وهو دون البلوغ مع أذان الفجر، يقصد المدارس لتلاوة القرآن، لا يثنيه برد ولا زمهرير، ثمّ تشرق الشّمس فيتّجه إلى المدارس الرّسمية، ثمّ يقفل راجعا مساء إلى مدارس القرآن، يختم فيها يومه بهدي الكتاب وسيرة الرّسول ﷺ، وتاريخ الإسلام، وأنعم به مسكا للختام.

جمعية الحياة:

وفي جبهات الشّيخ عدُّون العديدة تتوارد إلى الأذهان جمعية عتيدة، كانت محور الأحداث في القرارة وميزاب منذ نشأتها سنة 1937م، إنّها جمعية الحياة التي أسّسها الشّيخ بيوض، لتكون مظلّة لحركة التّعليم، بما تقتضيه تنظيمات القوانين آنذاك، وكان صدور رخصة الجمعية في ظرف عصيب بعد مساع مضنية، ومماحكات السّلطات الاستعمارية، ثم غدت الجمعية موئلا لأنصار العلم والإصلاح، تتولّى الجانب المادي والتّنظيمي للحركة العلمية في مدارس التّعليم الحرّة بالقرارة، على اختلاف مستوياتها من الابتدائي والإعدادي والثّانوي والعالي. وتشرف على البناء والتّجهيز والتّسيير والتّنظيم. وكان قلب الجمعية الشّيخ عدُّون، لم يتخلّ عن موقعه فيها إلى آخر حياته، رغم ثقل السّنين، واشتداد وطأة المرض، ولم يكن يعجبه قولة الشّاعر:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ
ثَمَانِينَ حَوْلاً لاَ أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

ويقول: أمّا أنا فلم أسأم بعد تكاليف الحياة.

ولا عجب، فتلك ثمرة الإيمان، وبركة الإخلاص. وأنّى أن يسأم

الحياة من ظلّ عمره يتمثّل قولة المصطفى عليه السّلام: « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله »؟.

وظلّ مسؤولا عن جولات جمع المال لجمعية الحياة، يقطع لأجلها آلاف الكيلومترات، لا يردّه عن ذلك إنجاد ولا إغوار، ويتلقّى في سبيل ذلك ما لا يعلمه إلاّ الله من الأخطار، ولم يتخلّ عن هذه المهمّة إلى آخر عمره، رغم انعدام الأمن وخطورة الأسفار، بعد أن خيّم ليل الفتنة على أرض الجزائر، وخشي النّاس أن يبرحوا ديارهم، ولكنّه واصل مسيره وأسفاره في إصرار وتحدٍّ عجيب، لا يفسّره إلا تمام التّوكل وقوّة الإيمان.

دار البعثات العلمية:

حين ذاع صيت معهد الحياة في ربوع الوطن تداعى النّاس لإرسال أبنائهم للنّهل من معينه، فأقبل طلبة العلم على القرارة يستسقون، وكان رائد النّهضة بها الشّيخ إبراهيم بيّوض على وعي بأهميّة نشر الفكرة بواسطة هؤلاء الطّلبة، فأولاهم عناية منقطعة النّظير وآواهم إليه، وخصّص لهم دارا يقيمون بها، ثم تتابعت وفودهم وتكاثرت أعدادهم، فكان ميلاد نظام دار البعثات العلمية، وتطوّر عبر السّنين، وكان للشّيخ عدُّون اهتمام بالغ بأبنائه الوافدين.

وإدراكًا منه بما يحسّه غريب الأهل من وحشة الغربة والشّوق إلى الدّيار، بذل جهده ليعوّض هؤلاء التّلاميذ الوافدين ما يأنسون به، بل

يجدون أنفسهم بين أهلهم وذويهم. وكان رحمه الله يكلؤهم بعناية خاصّة، ويؤثرهم بجلسات متميّزة، فملك عليهم قلوبهم، وكان لهم رائدا في معترك الحياة، ومثالا ظلّوا يشرئبّون للسّمو إلى مقامه السّامق، جدّا وتحصيلا، وتواضعا وإخلاصا، فعمّ فيض هذه القدوة على أوطانهم، وسعدت الأمّة بخيرهم، ونسبت للوالد المربّي الشّيخ عدُّون، سبب هذا الفضل المبين. وكلّهم يلهجون بالثّناء عليه قائلين: لولا أيّام تلمذتنا بالقرارة ما بنينا لأمّتنا هذه الحصون، من جمعيات ومؤسّسات، ومدارس ومعاهد للبنين والبنات، فبفضل القرارة كنا شيئا مذكورا، وبفضل الله كان سعينا مشكورا.

وواصل الشّيخ اهتمامه بتطوير المعهد ودار البعثات، على امتداد السّنين، حتّى دعت الحاجة لبناء جديد يسع أعداد الطّلبة الوافدين، من أبناء المسلمين، وانطلق المشروع العملاق ثابت الخطى، وشاءت الأقدار أن يزوره قبل وفاته بيومين، ويسرّ باستمرار المشروع واطّراده، ومات وكلّه أمل أن يكتمل ولو لم يشهده بجسده، فروحه ترعاه من شرفات عليّين.

موقفه من تعليم المرأة:

ظلّت قضية تعليم المرأة تثير جدلا بين سدنة القديم وأنصار التّجديد في العالم العربي، وأسالت من حبر الكاتبين أنهارا، وتوزّع الفريقين

سبيلان، اشتطّا بين متزمّت متحجّر وبين مندفع متحرّر، فمنهم من رآها نسخة طبق الأصل للرّجل إلا فوارق، لا تغيّر من جوهر التّطابق بينهما، مردّدا دعوات غربية، أملتها أفكار شيطانية، فأطلق للمرأة العنان في كلّ ميدان، وتركها نهبًا للثّيران، وفريق آخر رآها فتنة مكنونة، واتّخذها أمَة أمينة، أو متاعا للزّينة، وحظر تعليمها خوفا عليها ومنها، وإلاّ أفلتت من الزّمام، وشقيت بها الأنام. فتركها فريسة للجهل وصيدا للشّيطان، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

وضاعت بين النّقيضين أجيال، واصطرعت لأجلها الرّجال، وقال الشّيخ عدُّون فصل المقال، فرفض تجهيل المرأة خوفا من انحرافها، وتبنّى تطبيق أمر الرّسول ﷺ لأمّته "طلب العلم فريضة على كل مسلم"، وأخذ بتفسير الرّاسخين من العلماء، أنّ خطاب التّكليف يستوي فيه الرّجال والنّساء، وأمْرُ الله بالقراءة في قوله «اقرأ»، ليس خاصًّا برسوله، بل يعمّ أمّته جمعاء.

ورغم معارضة فريق عريض من النّاس لفكرة الشّيخ عدُّون، ومنهم بعض رجال الإصلاح، إلاّ أنّه أصرّ على رأيه، واقتنع أنّه صواب ورشاد، وبدأ التّطبيق منفردا بإدراج بنته في المدرسة، ولم يأبه بقوّة المعارضة، ثم استبان للنّاس رشد ما فعل، فاقتدوا به وعمرت المدارس بالبنين والبنات، وحمد النّاس غبّ سراهم بعد قرون الجهل الحالكات.

وفي وادي ميزاب اليوم مدارس عصرية نموذجية لتعليم البنت بأفضل المناهج، في محيط نقيّ، كلّه طهر وعفاف، فيه تلقّن البنت كلّ ما ينفعها من علوم الشّريعة وعلوم العربية، وما يعضدها من علوم العصر، فضلا عمّا يؤهّلها للقيام بمهمّة تربية الجيل، من علم النّفس والتّربية، ومهارات الحياة التي تجعلها ربّة بيت ذات خبرة ويد صنّاع، بأسلوب عزّ له نظير فيما عرف النّاس من مناهج التّعليم الحديث.

تطـــوُّر الـــمـــدارس:

من ثمار معهد الحياة تخريج نخبة من المثقّفين توزّعوا في مدن القطر الجزائري وخارجه، فسعوا لنشر هذا النّور في أوساطهم، وتحرّكوا تدفعهم وصايا الشّيخ عدُّون ومشايخ المعهد ليعمّ خيرهم مَن حولهم، وكان من نصائح الشّيخ بيّوض لأحد تلاميذه مودّعًا: " أنِر البقعة التي أنت فيها "، فتنافس النّاس في إنشاء المدارس القرآنية العصرية، واطمأنّ الآباء على مستقبل أبنائهم، بعد أن كان مهدّدا بمخطّطات المسخ الاستعماري، ومعاول الانحلال الخلقي الذي أفرزته الحضارة المادية الماجنة.

وكنت تسمع بين الحين والآخر عن ميلاد مدرسة في هذه المدينة أو تلك، حتّى بلغ تعدادها مبلغا مباركا، دعا أهل النّظر فيها إلى توحيد الجهود وتنسيق الخطط للقيام بالعمل التّربوي، وتحقيق أفضل النّتائج. فكان الشّيخ عدُّون رئيسَ هيئة "وحدة التّعليم"، واختير

مشرفا ومفتّشا عامًّا لمدارس الوحدة في وادي ميزاب ومدن الجزائر المختلفة.

وأهّلَته خصال الحزم والجدّ لحمل هذه الرّاية أكثر من ثلاثين سنة([92])، فكان يقوم كلّ عام بجولة عامّة لتفتيش هذه المدارس، وتقديم تقرير مفصّل عن نشاطها ومستوى طلبتها وكفاءة أساتذتها، وهي مهمّة غير يسيرة وأيم الحقّ، تقتضيه أسفارا بعيدة تبلغ آلاف الكيلومترات، من شرق الجزائر إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، لا يقوى عليها إلاّ أولو العزم من الرّجال، ولم يتوقّف عن هذا العمل الشّاقّ، إلاّ حين أقعده العمر المبارك وقد جاوز الثّمانين.

وفي تقاريره الشّاملة حول هذه المدارس صفحة ناصعة لجهاد الأمّة وجنود الخفاء في هذا الثّغر الهام من ثغور الإسلام.

جمعية قدماء التّلاميذ:

في سنة 1948 تأسّست بميزاب جمعية قدماء التّلاميذ من خرّيجي معهد الحياة المنتشرين في مدن وادي ميزاب، كانت رابطة للتّواصل بينهم وتنسيق نشاطهم العلمي والاجتماعي، وأبرزت ثمارا طيّبة في سنيها الأولى، ولكنّ يدا ماكرة حاولت وأدها لمّا رأت من خطرها على

---

[92] – بل أزيد من أربعين سنة. (م.ن.ب).

مصالح بعض المتنفذين، فتقلّص نشاطها، واقتصرت على مدينة القرارة، وظلّت مشرفة على النّشاط الثّقافي والاجتماعي في المدينة، برعاية الشّيخ عدُّون، ولا تزال إلى اليوم.

الشّـــــيخ عــدُّون والصّحــافة:

آزر الشّيخ عدُّون رائد الصّحافة العربية في الجزائر وعميدها الفقيد الشّيخ إبراهيم أبا اليقظان في جهاده الصّحفي، في أحلك ليالي الاستعمار، وبذل جهده لنصرته بالتّشجيع والاكتتاب والكتابة والتّحرير، في متابعة أخبار وادي ميزاب ومجريات حركة الإصلاح، ثمّ انتدبه الشّيخ أبو اليقظان ليتولّى تحرير افتتاحية إحدى جرائده الثّماني التي توالى صدورها طيلة اثنتي عشرة سنة، من عام 1926 إلى عام 1938م، كلّما وأد المستعمر واحدة، دكّ أبو اليقظان في عرش المستعمر أخرى.

وكان الشّيخ عدُّون يوقع مقالاته في تلك الجرائد باسم "سعيد"، وتبلغ تلك المقالات ما يقرب من مائة وخمسين مقالا، تشهد على ضلوعه في الأدب، وتملّكه ناصية البيان.

وفي صحافة أبي اليقظان ــ تاريخًا وكفاحًا ومقالاتٍ ــ شواهدُ عن سفر ذهبي من جهاد «سعيد» في مقارعة الاستعمار العسكري والجمود الفكري.

دفاعُه عن اللّغة العربيَّة:

عرف الشّيخ عدُّون بأنّه مدافع مستميت عن لغة القرآن، قضى العمر يبني النّفوس عليها وينشئهم على قواعدها، نحوًا وصرفا، وأدبا وبلاغة، وتاريخا وفكرا، مؤمنا أنّ العربية وعاء القرآن، وإذا ضاع الوعاء ضاع ما فيه، ويرى الحفاظ عليها واجبا دينيا قبل أي اعتبار، ورأى ببصيرته ما يخطّطه الاستعمار للقضاء عليها في الجزائر، وما بذله من مساع جبّارة لجعلها لغة ثانوية لا أصيلة، جاهدا ليستبدل بها لغته الدّخيلة. وآتت جهوده في ترسيخ العربية في القلوب، فأحبّها النّاس وتعلّقوا بها، ولمع فيهم شعراء وأدباء، وخطباء بلغاء، وغدت ميزاب قلعة العربية في أحلك ليالي الاستعمار، ولا تزال بحمد الله نموذجا رائدا في نصرة الضّاد، رغم تكالب أعدائها لمواصلة المشروع الاستعماري لفرنجة لسان الشّعب الجزائري.

واشتهر الشّيخ عدُّون في الأوساط العامّة والخاصّة أنّه مدافع عنيد عن اللّغة العربية، لا يرضى في شأنها مساومة ولا موازنة، ولو مع اللّغة الأمازيغية لغة الآباء والأجداد، ويرى أنّ هذه لغة المصالح الآنية، تشكّل جزءًا من الهوية، ولكنّها في مأمن وعافية، أمّا العربية فلغة الدّين، ولغة القرآن، ومفتاح سعادة الإنسان، وعليها يقع الرّهان، وإن فقدناها كانت القاضية!

مع أنشطة الشّباب:

كانت للشّيخ عدُّون اليد الطولى في تشجيع الأنشطة الشّبانية في الجمعيات الأدبية، والرّياضية، والكشفية، والنّوادي العلمية والثّقافية، والمجموعات الصّوتية ذات الفنّ الأصيل، يسندها ويشجّعها، ويصوّب مسارها، ويقوّم اعوجاجها، لا ينفكّ مهتمًّا بها غاية الاهتمام، وكأنّها همّه الأوحد، ومشكلته الأساسية، وهي في الواقع رقم في عدد كبير، وعنصر ضمن قائمة طويلة من ملفّات المجتمع وقضايا الأمّة، ولكنّه الإخلاص والصّدق، يمنحان الفرد الوحيد قوّة جيش عتيد.

وتميّز بفكره الذي ظلّ شبابا، لم تؤثّر في مضائه واتّقاده السّنون، ولم يدركه المشيب، فكان إلى آخر عمره مشجّعا لأنشطة الشّباب داعيا للتّطوير، وابتغاء الجديد من كلّ نافع مفيد، منكرا الجمود على القديم وتقديسه لمجرّد أنّه قديم. وشرطه الوحيد في مضمار التّطوير التّمسك بالثّوابت من قضايا العقيدة وقيم الأمّة، ثمّ البحث عن الأجدى والأفضل في كلّ ما أنتجت قرائح البشر في مشارق الأرض ومغاربها، لأنّه من الحكمة التي أُمِرْنا بالبحث عنها والأخذ بها.

وعرف الشّيخ عدُّون لدى الجميع بأنّه شيخ الشّباب، ورائد التّجديد، وأنّه سباق بفكره لكثير ممّن يَصغُرُونه في السّنّ بعقود، ولا غرو، فقد سبقهم إلى الحياة بأمد بعيد.

جمعـــــية الـــــتّراث:

وفي سنة 1989 أنشئت بوادي ميزاب جمعية علمية، حملت اسم «جمعية التّراث»([93]) هدفها العناية بالتّراث الفكري للمنطقة: حفظا ودراسة وتحقيقا ونشرا، وتشجيعا للبحوث العلمية الجادّة في مجال الفكر الإباضي وتاريخ أعلامه، وكان على رأس الجمعية الشّيخ عدُّون، وقطع الوليد الجديد خطوات مباركة في هذا المضمار، وأنتج للأمّة نتاجا طيّبًا من البحوث والدّراسات، والكتب والكنوز، وعرّف الأجيال بتراثها وتاريخها، وما هي أصولها وهويتها، ولا تزال جهود العاملين متواصلة في سبيل هذه الغاية النّبيلة، بفضل توجيهات رئيسهم الشّيخ عدُّون، مؤمنين بأنّ هذا مشروع حضاري واعد، سوف يحقّق تقاربا محمودا بين المسلمين، وإزالة لغشاوة الشّكّ وسوء الظّنون، وتصحيحا للرّؤية القاتمة التي صنعتها كتب المقالات عن أهل الاستقامة، وتلك خطوة لازمة لتوحيد الصّف ومواجهة العدوّ المشترك للمسلمين.

---

[93] – النّشأة الحقيقية كانت في بداية الثّمانينيات من القرن العشرين، على يد أستاذنا الدّكتور محمد بن صالح ناصر، هو الذي وضع القواعد الأولى للعمل ضمن هذه الهيئة. وهو الذي خطّ طريقها ورسم معالمها العامّة... إنّما الاعتماد الرّسمي كان سنة 1989م. فكان أبونا الشّيخ عدّون أوّل رئيس لها، من ذلك التّاريخ. (م.ن.ب).

مجلس باعبد الرّحمن الكرثي:

في ميزاب هيئات عرفية قديمة كانت ولا تزال تقوم بدور هام في الرّعاية بشؤون المجتمع، ومنها مجلس يعرف باسم "مجلس باعبد الرّحمن الكرثي"، يعنى بقضايا العمران والاجتماع، واتّخاذ المواقف المناسبة المتعلّقة بمصير المجتمع، ومواجهة الأخطار ومستجدّات الحياة. كما أنّ له اهتماما بقضايا السّياسة التي أفرزها تطوّر المجتمع الحديث.

وقد ركن هذا المجلس العرفي إلى الظّلّ أمدا طويلا، فدعا الغيورون إلى إحياء نشاطه، وكان للشّيخ عدُّون يد طولى في ذلك، فعاد لمواصلة جهوده، وتصدَّر المجلس قيادة أحداث كثيرة عرفتها المنطقة في السّنوات الأخيرة.

رئاسة مجلس عمِّي سعيد:

يتميّز المجتمع الميزابي بأنّه مجتمع مسجدي، تقوده هيئة العزابة من مقرّها في المسجد. والمسجد يمثّل قمّة الهرم في بناء المدينة بوادي ميزاب، كما تمثّل هيئة العزّابة قمّة البناء الاجتماعي، وتعمل جاهدة لتحوط المجتمع بالرّعاية، وترقب استقامته وسلامته، وتحرص على أن تصطبغ حياة النّاس بشريعة الإسلام، أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر. ولكل مدينة ممثّل للهيئة في مجلس أعلى لمساجد وادي ميزاب ووارجلان، يعرف باسم "مجلس عمّي سعيد"، نسبةً إلى الشّيخ عمّي سعيد الجربي، الذي أحيا

العلم بميزاب في القرن الثّامن الهجري.

ودور المجلس فقهي ديني، يعنى بالقضايا الدّينية أساسا، وقد أحيا نشاطه الإمام الشّيخ بيّوض إثر استقلال الجزائر، سنة 1962م، وترأّسه إلى حين وفاته، ثم تلاه في رئاسة المجلس شيوخ أجلاّء، كان آخرهم الشّيخ عدُّون، استمرّ على رأسه منذ وفاة شيخه السّابق الشّيخ الحاج محمد بابانو سنة 1989 إلى آخر حياته.

ولهذا المجلس جلسات أسبوعية لتداول مستجدّات الحياة الدّينية وما يحتاج إلى بتّ وفصل من قضايا الفقه والفتوى في ميزاب.

كما يُعنى المجلس برعاية أوقاف الميزابيّين في ربوع الجزائر وخارجه، وبخاصّة في البقاع المقدّسة، ومتابعة ما يهمّ هذه الأوقاف من تنظيم وترسيم وتسيير.

الشّيخ عدُّون وقــضايا المســلمــين:

كان الشّيخ عدُّون داعية حريصا على وحدة المسلمين، يبثّ ذلك في نفوس طلبته وفي دروسه ومواعظه للعامّة والخاصّة، لا يَني يذكّر بقضاياهم الأساسية وهمومهم الكبرى، وفي مقدّمتها قضية فلسطين، ويذكر أن حلّها لن يكون إلاّ على يد من يحمل راية التّوحيد، ويعمل لدين الله أن يسود، وما سوى ذلك محاولات بائسة فاشلة.

كما ظلّ عُمْرَه يدعو لرأب الصّدع وتقريب الشّقة بين أبناء الأمّة الواحدة، ومن نافلة القول الإشادة بواحدة من ثمراته، وهو تلميذه الفقيد الشّيخ علي يحيى معمّر، رحمه الله، الذي أثرى المكتبة الإسلامية بسِفره الخالد " الإباضية بين الفرق الإسلامية "، أزاح فيه النّقاب عن أسباب التّفرّق، ووضع دستور الوحدة المنشودة بين المسلمين.

وكانت له جهود حميدة لإطفاء نار الفتنة التي اندلع لهيبها بأرض الجزائر، وأتت على الأخضر واليابس، وألحّ على وحدة صفّ المسلمين، وحرمة اتّخاذ الاختلاف المذهبي سببا لشقّ الصّفّ وإيقاد نار الفتنة، فما المذاهب إلا مدارس اجتهادية تنهل من معين الكتاب وسنّة المصطفى عليه السّلام.

غرامُهُ بالمطالعة:

ذاق الشّيخ عدُّون فقد العلم ومرارة الحرمان أوّل عمره، فانتصر للقراءة إلى حدّ الإدمان طول عمره، وأكبّ عليها بلهف منقطع النّظير، وظلّ الكتاب أنيسه وسميره، لا يعوقه عنه سهر ولا سفر، ولا ينفكّ عن المطالعة مهما بلغ به الإعياء، وكان يختم ليله بقراءة تستمرّ على الأقل ساعة من الزّمن، إن سبقها سهر، وإذا خلت ليلته من جلسة عمل – وقليلا ما تخلو –كان نصيب القراءة فيها موفورا، فاستمرّت لعدة ساعات.

وكان حريصا على الكتابة والتّأليف، حرّض عليهما تلاميذه، فأبدعوا فيما كتبوا، وله مراسلات أدبية معهم في هذه المجالات. كما دوّن صفحات ناصعة من تاريخ الحركة الإصلاحية ومن دروس الشّيخ بيّوض في التّفسير، لعلّ الله يقيّض من ينشرها لتنصف الرّجال العاملين، وتكشف حقائق ثمينة عن هذه الحقبة الذّهبية من تاريخنا المعاصر.

وكان يتابع ما تصدره دور النّشر من كتب وبحوث ودراسات، وما ينفحه به أبناؤه وأحباؤه من إنتاجهم، ولم يعجزه كثرة ما يرده عن استيعابه، فكان إذا بلغه كتاب وجدته قد أكمل قراءته بعد يومين أو ثلاث أو بضعة أيام، حسب حجم الكتاب، وفوق هذا فما فتئ متابعا حريصا للصّحف والدّوريات، تأتيه من داخل الوطن وخارجه، بصورة مستمرّة متابعة يومية، قد يعجز عنها المتخصّصون أو المتفرّغون.

يقرأ كلّ ذلك الإنتاج وينقده نقدا موضوعيا ببيان ما له وما عليه، في الفكر والمنهج، والتّحليل والأسلوب.

وقد حدث أن كان لجمعية التّراث – وهو رئيسها- مشروع "معجم أعلام الإباضية"، وقدّمت له النّسخة التّجريبية للملاحظة عليها، كما وزّعت على عدد من المشايخ والمفكّرين للهدف نفسه، ولم

يَرِدْ إلى لجنة المعجم جواب بالملاحظات إلاّ من قِبله.([94]) فأخبرته بذلك، شاكرا حرصه وجوابه، بعد أن نقد الكتاب بأجزائه، وصوّب ما فيه من أخطاء، وعلّقت قائلا: أرى أن أعجز النّاس عن الكتابة عندنا هم المثقّفون. فأجابني على الفور: وأنا إمام العاجزين.

وتعجب لقدرته وجلده، وطول نفسه في القراءة رغم كبره، فلم تضعف السّنون من بصره، حتّ فتحها على رياض قبره، رحمه الله.

وكان له من الأسفار مدرسة أفادته في رسالته المقدّسة، بما نال منها من اطّلاع على أحوال المسلمين واتّصال بعلماء الإسلام، وقد زار معظم الدّول العربية والأوروبية، في جولات عديدة، وكانت حميمة بعلماء المسلمين في مواطن عدّة، داخل الجزائر وخارجها، نذكر منهم الشّيخ أحمد سحنون أحد مؤسّسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، وسماحة الشّيخ أحمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عُمان.

تقديـــــسُه للــمواعِـــيد:

من خلال الشّيخ الحميدة التي ندرت في زماننا، تقديس المواعيد، واحترام مواقيتها، فهو دائما مع أوّل الحاضرين وآخر المنصرفين، لا

---

[94] – بل وردت ملاحظات من عدّة مشائخ وأساتذة. إنّما كان الشّيخ عدّون أسبقهم كلّهم إلى الإجابة.(م.ن.ب).

يعرف الأعذار ولا الاعتذار، إلاّ ما كان قاهرا منها، فلا يكلّف الله نفسا إلاّ وسعها.

ومن حرصه على المواعيد حضوره لدروس تفسير القرآن الكريم للعلاّمة الشّيخ بيّوض في مسجد القرارة، وقد استمرّت تلك الدّروس خمسا وأربعين سنة من عام 1935 إلى 1980م، لم يتخلف عنها وهو في المدينة إلا يوما واحدا لضرورة قاهرة، وما عدا ذلك فلم يكن يغيب عنها مهما كانت الشّواغل والأعراض، تقديرا منه لأهميتها القصوى، ورغبة في فوائدها الجُلّى، فكان أسوة لطلبة العلم في الجدّ والتّحصيل، وقدوة لعامّة النّاس في علوّ الهمّة وقطع الأعذار.

خـفَّـــــة رُوحِـــه:

لم يكن الشّيخ عدُّون ممّن يتصنّع الوقار المتكلّف وإن جلّله المشيب، وما كان يخيّم على مجلسه داكن السّحاب الكئيب، بل يشيع فيه جوّ الأنس، وتنطلق من أسارير وجهه بشائر الابتهاج والحبور، فتتفتّح له القلوب، وتأنس إليه النّفوس، وما زاده وقار المشيب إلا خفّة روح تأسر الحاضرين، فيودّون أن لو امتدّ لقاؤه عدد سنين.

حقًّا، لقد كانت مجالسه باقةً أدبية زاهية الألوان، زكيّة الشّذى، يمازج فيها الجلالَ جمالُ الأدب، وتقترن الحكمة والنّصيحة بالابتسامة الوديعة، تراه يتصيّد المُلحة ويطرب لها، وينتشي للدّعابة البريئة انتعاش

الزّهر في الرّوض النّضير، إذا سقاه السّحاب أو جرى في عروقه ماء الغدير.

بَرَكــة العـــمر والـــولد:

منح الله الشّيخ عدُّون بركة العمر والبدن، فكان نسيجا فريدا، عجز الطّبّ في استكناه أسراره، إذ جاوز القرن من الزّمان، وما هدّت السّنون من تماسكه وسلامته، إلاّ في شهوره الأخيرة، وقد أجريت له عملية جراحية في رأسه في سنواته الأخيرة، وتعجب الأطبّاء كيف سلم له مخّه، وحفظ من التّلف، وقد كان يشكو ضغطا لا يتحمّله الإنسان العادي في مقتبل العمر.

أجل، لقد خرق الشّيخ عدُّون كلّ قوانين الصّحّة ومحظورات الشّيخوخة، وكانت صحّته مثار دهشة الأطبّاء، لا يعرف تحرّزا من ماء مثلّج، ولا وليمة دسمة، ولا شراب معسول، والدّسوم والسّكريات قاصمة الصّحّة في نظر الأطبّاء، وخبراء العلل، وكأنّه سبر أغوار العلّة في قواعد اللّغة العربية، وقد قضى في تدريسها سنوات عمره الذّهبية، فنفعته لقاحًا واقيا للصّحّة البدنية، وقد يكون ذلك بعض جزاء الله العاجل في هذه الدّار. ولله في خلقه شؤون، وأيّ شؤون!

وإن تعجب فعجب من طول نفَسه في الجلسات الطّويلة، تستمرّ طول النّهار ويمكث فيها على هيئة واحدة من مفتتح الجلسة إلى نهاية

اللّقاء، بينما ترى بعض الحضور من الكبار، بل ومن الصّغار، في تململ من طول الاصطبار، حتى يصرّح مغلوبهم بالاعتذار لقضاء حاجة أو استراحة، والشّيخ يخرس بهيئته الجميع، ويجيبهم بحجّة صامتة هي أبلغ من أيّ كلام بديع.

وتلك بعض معاني البركة في الصّحة والعمر، كما ناله منها نصيب في المال والولد.

وأفاض الله عليه من متاع الحياة ما قضى به شطرا من دهره ميسورا، وكان مثال الأب الحاني على أبنائه من الصُّلب، كما كان مع أبنائه من الرّوح، وتَمثَّلَ في بساطته وحدبه على أهل بيته، وبذله قصارى جهده ليسعدهم، رغم توزّع جهوده في مهام المجتمع المتكاثرة، فكلّل الله سعادته بذرية طيّبة، كانوا رجالا لامعين في شتّى ميادين الحياة، أحدهم أستاذ جامعي قدير، قضى العمر في تفسير كلام العليم الخبير، وآخر طبيب ماهر خبير، نذر طبه لنفع الأرملة والفقير، وثالثهم خطاط بارع كتب المصحف الشّريف ثلاث مرّات، صار معتمد العالم الإسلامي في قراءة ورش بين القراءات، وخاتمة العنقود معلّم رابط في البلد وظلّ لوالده سندا، ولنهجه في بناء الأجيال مددًا.

الإخـــــلاص ثمّ الإخـــــلاص:

كان الشّيخ عدُّون إخلاصا يمشي على قدمين، وقد لخَّص تجربته في

الحياة في كلمتين نصح بهما الشّباب قائلا، بعد طول عمر بلغ مئة من السّنوات:

*ــ ما رأيت مشروعا قام على الإخلاص وعاقت دون تمامه العقبات.

*ــ وما رأيت أحدا أعطى درهما لله ولم يخلف الله عليه بالنّماء والبركات.

ومن نظراته السّديدة ونصائحه التي يزوّد بها الشّباب؛ ضرورة ثقة الفرد بنفسه، وبالله أوّلا، وإخلاص القصد له دائما، والتّزوّد بالصّبر لبلوغ الغايات وتحقيق النّجاح، ودون ذلك ستذهب جهوده أدراج الرّياح، ولن يكون له دور فعّال في التّغيير والإصلاح.

إنـــكار التّـــكريم:

ويأبى تواضع الشّيخ إلاّ التّنكّر للذّات، ونسبة الفضل لغيره، واستصغار ما بذل، واعتبار جهاده طيلة قرن من الزّمان مجرّد قطرة في محيط جهود العاملين، ونكرة في قاموس أعلام الإسلام السّامقين.

وقد رغب منه أبناؤه إقامة حفل تكريم له احتفاء بجهوده في خدمة العلم والصّالح العام، فأبى ذلك، وأصرّ على رفض الفكرة، ولكنّه غلب على أمره تحت إلحاح أبنائه، الذين كانوا قد أعدّوا كلّ التّرتيبات، فرضخ للأمر الواقع، وقَبل به على مضض، والدّموع تنهمر من عينيه خشية أن تذهب تضحياته هباء. وكان ذلك يوم 14 فبراير من عام 2003م.

كما حظي بتقدير جميع فئات الشّعب الجزائري من رئاسة الجمهورية ووزراء الدّولة إلى مختلف السّلطات الرّسمية، واتّفق الكلّ على توقيره وتقديره، والاعتراف بفضله وسابقته.

ثمّ حملته قلوب علماء الجزائر فاختاروه رئيسا شرفيا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، اعترافا بفضله وأياديه، وقد كان من مناصري الجمعية والدّاعين لمباركة جهودها لإيقاظ الشّعب الجزائري من ظلمات الجهل، والسّعي لتحريرها من نير الاستعمار، قبل سبعين سنة خلت، فكافأته حين وضعته تاجا على مفرقها، جزاء وفاقا.

مسيرة قرن وخمس سنين، حفلت بآلاف وآلاف، من حلقات علم تقام، ومجالس فكر وذكر تنصب، وجلسات صلح تعقد، وتتواصل أحيانا ليالي وأياما عديدة، ويمتد السّهر فيها إلى منتصف اللّيل أو يزيد. كانت سعيا دؤوبا لصالح الأمّة والدّين في مختلف المناسبات والميادين، لا انتظارا لشكر ولا ثناء، ولا نيشان ولا شهادة، إلاّ رضوان الله وفردوسه الموعود.

وبلغ به الجهد أشدّه وانهارت قواه البدنية، بيد أنّه ظلّ محتفظا بكامل قواه العقلية رغم إجراء عملية جراحية في رأسه قبل بضع سنين إثر حادث سيارة أليم، ظلّ نجاح العملية لغزا بمقاييس علم الأطبّاء، وحفظ الله له وعيه وقلبه وبصيرته، ثمّ كانت له لقاءات وداع لأبنائه

وبناته في مختلف المؤسّسات في أواخر أيّامه في هذه الحياة، أوصاهم فيها بالتّمسّك بأهداب الدّين، والحفاظ على الوحدة، والاستمساك بالإخلاص والصّبر والتّضحية، حتّى ينالوا رضوان الله ربّ العالمين.

ومضت تلك السّنون في صمت عجيب، قضاها الشّيخ عدُّون يصنع مجد الخلود حتى أتاه اليقين، فمضى إلى ربّه في شهر القرآن المشهود، مستبشرا بإذن الله بجزائه الموعود، ليلقى الأحبّة محمدا وصحبه.

أجل، لقد مضى الشّيخ عدُّون إلى وعدٍ طالما تمنّاه، وقضى العمرَ يعمل له، فما تأفّف ولا توانى، ولا تقهقر ولا تنكّر، وصدق ما عاهد عليه ربّه، وما زادته السّنون والأسقام إلاّ يقينا ومضاء، ودعا ربّه وما خاب من أخلص لربّه الدّعاء...

﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. (الفجر: 27 – 30).

الشّيخ عدّون: قطب المخلصين، وإمام العاملين ([95])

الدّكتور محمد موسى باباعمي

مقدّمة:

الحمد لله وحده، نستعينه ونستهديه، والصّلاة والسّلام على صفيّ الله محمّد الأمين.

مشايخي الأجلاّء، أساتذتي الفضلاء، سلاما وتحيّة واحترامًا.

وبعد، فقد تلقّيت هاتفا كريما من أستاذ كريم، هو شيخي محمد الهادي الحسني، طالبا منّي المشاركة في اليوم التّكريمي التّاريخي للإمام الشّيخ عدّون حفظه الله تعالى، وعلاقته بالشّباب أبا ومربيًا، فطلب منيّ الأستاذ أن أتّخذ علاقتي به أنموذجا، غير أنّي أحجمت، وما لبثت أن أقدمت لسببين هما:

* أنَّ كلَّ ما سيرد في هذه المداخلة إنّما فضله على الشّيخ عدّون، وليس لي منه شرو نقير.

* أنَّ الصّراحة والصّدق هما السّمة المميّزة لهذه الكلمات، وهي خالصة من قلب مخلصٍ لله تعالى إن شاء الله.

---

[95] - ألقى الدّكتور محمد بابا عمّي هذه الكلمة في دار الإمام بالجزائر العاصمة في يوم مهيب، ونشرت في جريدة البصائر، (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، الجزائر، العدد: 177، (3 – 10 من جمادى الأولى 1425هـ/ 21 – 28 من جوان 2004م).

فإن أكن قد قصُرت فإنّي يقينا ما قصَّرت، ولله المنَّة والفضل.

حادثة وحديث:

يُذكر أنَّ طفلا فتيًّا، بلغ من العمر تسع سنين أو تزيد، حظي يوما ما من عام **1911**م بدعاء مبارك من شيخ وقور، وبمسح خفيف على رأسه، مع رُقيًا شرعيةٍ، لطالما حرَصت الأمّهات المخلصات على استجلابها في مثل هذه المناسبات، طلبا للبركة، وابتغاء لصلاح الذّرية... فالنّية الخالصة لا تخطئ طريقها إلى الله تعالى، وإنّها لتنشّئ العظماء والعباقرة، وتبني الأمم والحضارات... فقديما قيل: «**ومن ذاق عرف**».

ليس ذلكم الشّيخ سوى قطبَ الأيمة الشّيخ امحمد بن يوسف اطفيش([96])، وما الطّفل الوديع إلاّ أبونا الرّوحي قطبُ المخلصين الشّيخ عدون أمدَّ الله في أنفاسه.

ولقد استفدت من الحادثة والحديث، وقبضت قبضة من أثر بركات القطب فلم أنبذها، يوم حضر الشّيخ مناقشة أطروحة الدّكتوراه في جامعة

---

[96] - الحاج امحمد بن يوسف اطْفيش (1228 – 1332هـ/ 1818 – 1914م) المعروف بقطب الأئمّة. عالم من علماء الإسلام الكبار، الذين قيّضهم الله عزّ وجلّ لتجديد أمر دين الأمّة الإسلامية، وكان له دور كبير في النّهضة العلمية بوادي ميزاب بخاصّة بما تركه من مؤلّفات عديدة في مختلف الفنون، وبما كوّن من تلاميذ حملوا صفة العلماء، انبثّوا في مختلف قرى وادي ميزاب وخارجه، وقاموا بأدوار جليلة في نشر العلم وبثّ الدّعوة والنّهوض بمجتمعاتهم. (م.ن.ب).

الأمير عبد القادر بقسنطينة سنة 1424هـ/2003م، فـزيَّن المناسـبة بجلاله وجماله، وكان رجلَها وإمامها وواسطة عقدها، فأسرعتُ يومها - بإيعاز من أمِّ الرّبيع - إلى تقديم ابني الوحيد "الرّبيـع"، وهـو في عامـه الخامس، إلى الشّيخ العالم وقد أدرك المائة من السّنين. فوضع يده علـى رأسه، ودعا له بالإيمان والعلم، وبالنّصرة والصّلاح... وأنا اليوم أتـوجَّز خيرا، وأنتظر بشراً، علَّ التّاريخَ يعيد نفسه، وعلَّ الابن يكون يوما ما من جملة الرّواد، فيتحقَّق الحلم، وأبلغ المنى.

الثّقة من أوّل يوم:

إنَّ الذي ربط خيط العلاّقة بيني وبين الشّيخ عدّون هـو أسـتاذي الدّكتور محمد ناصر، ويبدو أنّه قد أثراني عنده أيَّما إثـراء، فكـبرتُ في عينيه، ونزلتُ من قلبه مترلة عليَّة، ولقد كنت دوما أحسُّ أنّني أدنى مـن هذا المقام السّامق، فأتحجَّر قلقا ثم أتقطَّر حياء، ولكنِّي مع ذلك أعـاود الكرَّة "فأتَّبع إليه - دون أترابي - سببا"، علِّي أبلغ منه مجمع البحرين: بحرَ الخلق، وبحر العلم... أو أمضي حقُباً، و﴿**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَـةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِـنْ بَعْـدِهِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ**﴾ (فاطر:2).

ولقد لمستُ هذه الثّقة في كامل مسيرتي العلمية والعملية:

- تحت كنف جمعية التّراث أمينا عامًّا،
- وفي ثنايا معهد الحياة أستاذا لمناهج البحث،
- وضمن جمعية العلماء سكرتيرا للتّحرير،
- وعند مكتب الدّراسات العلمية التّربوية مشرفا ومسؤولا...

جمعية التّراث:

في رمضان من سنة 1418هـ/جانفي 1998م، أنجزت مشروعا لإنشاء دورية الحياة، وصغتُ تقريرا شاملا في ذلك، ثم سلَّمته للأب الرّوحي الشّيخ عدّون، لينظر فيه فيقلِّبه، ويرفضه أو يقبَله... فتلقَّاه - مشكورا - بعين الإعجاب والثّناء، وأعطى لي إشارة الانطلاق، على بركة الله، فشرعتُ في إنجاز العدد الأوّل من الدّورية، رغم اعتراض البعض وتخوّف الآخرين... وها نحن اليوم نشرف على إصدار العدد الثّامن...

وإنَّ البعض ليشكُّ في كون الشّيخ هو الرّئيس الفعلي للدّورية، ولكنِّي أؤكّد أنّه يعمل عمل الرّئيس وأكثر... فهو الذي أمر بميلادها، وهو الذي بإخلاصه يحميها، وهو الذي بكرمه يموّل طباعتها، وهو الذي بصبره يقرأ مقالاتها مقالا مقالا، وهو الذي بحزمه ينقد ما يجب نقده، ويستحسن ما يرى حسنه... دون عاطفة ولا اعتبار.

ولقد كتبت مقدِّمة للدّورية، في عددها الخامس، عبَّرت فيها عن

هذا المعى، فقلت: «ولقد تظافرت في إنجاح المشروع عدَّة أسباب، أمثلُها – بعد فضل الله – عنايةُ والدنا الرّوحي فضيلة الشّيخ عدّون حفظه الله تعالى، فهو الذي تقبَّل الفكرة يوم استهلَّت جنينا، وأذَّن له وأقام، ولم ينس السنَّة فتكرَّم بالعقيقة، وكان دائم السّؤال عنه، ودائم الإلحاح، ولا عجب فروح معهد الحياة من روحه المباركة، وروحه الطّيّبة من روْح الله ومدده، وهذه من تلك.»

ولنا في هذا نماذج كثيرة، منها هذا الأنموذج الحيّ:

كتب الباحث سليمان ناصر مقالا نقديا في الاقتصاد، قرأ فيه فتاوى العلاّمة البكري، ونقد بعض الجوانب، وأظهر بعض الأخطاء، ثم إنّي توجَّستُ خيفة من طبعه، وعدلت عن ذلك في العدد الرّابع من الدّورية، ولكنَّ الشّيخ أنَّبني وأمرني بإصدار القراءة في العدد الخامس، وقال: «**لا خوف عليك، أنا الذي أتحمّل المسؤولية، ومن يرى فيه خلاف الحقّ فعليه بالنّقد، والعلم سجال**».

والشّيخ عدّون هو الذي دافع عن "معجم أعلام الإباضية" إلى يوم صدوره، وحرص على تحقيق "الإباضية بين الفرق الإسلامية" إلى حين إنجازه وطبعه... بل، وله في كلِّ خطوة من خطوات الجمعية سبب وأيُّ سبب. فأعجِب به من شاب في روحه وفكره، وأكرم به من شيخ في جسده وعمره... ولله في خلقه معجزات.

جمعية العلماء فوق كلِّ اعتبار:

كان يوما جميلا من أيّام الرّبيع، تلقّيت فيه هاتفا من أستاذ أحبه في الله، هو الدّكتور عبد الرزّاق قسّوم، بمناسبة عزم المشايخ على إحياء **جمعية علماء المسلمين الجزائريّين**، وحرصهم على أن تكون لجميع الجزائريّين كما كانت يوم النّشأة الأولى، فأخبرني بأنَّ الاختيار كان عليَّ، وطلب منّي الالتحاقَ في أقرب الآجال، فصرت حينها في أمر مريج: بين مسؤوليات محلية ألقيت على عاتقي، ومسؤوليات وطنية تراءت لناظري. أأقدِم أم أحجم؟

وقلت بعفوية: سأستشير الشّيخ عدّون، وأعمل برأيه، فإن رضي رضيت، وإن أبى أبيت.

فيمّمت وجهي شطر القرارة، وما إن عرضت الموضوع على الشّيخ عدّون حتّى قال: «**يصعب علينا أن نهدم سورا لنبني سورا، ولكنَّ السّور العام أولى من السّور الخاصّ، فتوكّل على الله، وباشر مهامك، وليكن رائدك الإخلاص**»

ثمّ، التحقت بركب العلماء في جمعية العلماء، وتمدرستُ على يد الشّيخ عبد الرّحمن، والدّكتور قسّوم، والشّيخ الحسني... ولا أزال طالب علم كطفل يسبح على الشّاطئ، فيقال عنه: إنّه قد اقتحم البحار. وفي مثل هذا المقام يقول المثل: «**لقد استسمنت ذا ورم**».

مكتب الدّراسات:

يوم عزمت على إنشاء مكتب للدّراسات التّربوية، وعملت على تأسيس مدرسة خاصّة – في الحميز – بمقاييس علمية وإيمانية، كان أوّلَ من سألت والدي الشّيخ عدّون، وبخاصَّة أنَّ عواصف الرَّفض كانت هوجاء من أناس آثروا الإحجام على الإقدام، فما كان من الشّيخ إلاَّ أن أعطى لي الوقت الكافي، ليفهم غايتي وأهدافي، وبعد مدّة صاغ مقولته التّاريخية: «**إنّنا قد أوجدنا الحلول لعصرنا، فعليكم أنتم أن توجدوا الحلول لعصركم**»، ثم قال في مناسبة أخرى: «**إنّنا نعيش عصرا متطوّرا، ولذا فنحن في حاجة إلى مدرسة متطوّرة**».

فكان الشّيخ عدّون الملاذَ الأوّل بحمد الله، والسّورَ الذي سخّره الله لنا ليحمينا من شكِّ الشّاكين، وعرقلة المعرقلين...

واليوم وقد ظهر الصّبح لذي عينين، وأشرقت شموس الحقّ لكلّ مبصر، أقولها صريحة: **ليس لأحد من فضل في رياح التّغيير إلاّ للشّيخ، فهو الآمر وهو المبارك، وهو الدّاعي وهو الحامي**... وسبحان الذي يسخِّر من يشاء لما يشاء، متى يشاء، وكيفما يشاء.

حفظك الله شيخنا حيًّا، ورحمك يوم تلقى الله وهو عنك راض، والله ندعو أن يقرَّ عينيك بنوال رضاه، ويتزلك الفردوس الأعلى، فيزوّجك الحور المقصوراتِ في الخيام، تترقق اللّغة العربية من شفاههنّ

غضَّة طرية، فلا لُكنة ولا لحن، ولا تصحيف ولا تحريف، فتنال بإذن الله تعالى الحسنيين، وترزق إن شاء الله الأمنيتين...

الحميز، الخميس 22 ربيع الثاني، 1425هـ

10 حزيران، 2004م

الشّيخ عدُّون والكتابة الصّحفية

(مدخل إلى مقالاته)

في صحف الشّيخ أبي اليقظان (من 1926م إلى 1938م) ([97])

الأستاذ محمد بن أحمد جهلان

إنَّ الدّارس لشخصية الشّيخ سعيد شريفي (الشّيخ عدُّون) رحمه الله، يلفت نظره تميُّز خصالها وتعدُّد اهتماماتها ومواهبها؛ بحيث تستحقُّ كلُّ موهبة منها وقفة متأنية فاحصة. وإنَّ إفراد بعض السّطور لناحية هامة من نواحي جهاد الشّيخ العظيم - وبالخصوص في ميدان الكتابة الصّحفية- ليس إلاَّ جُهد المقلِّ الذي لا يفي للعالم بحقِّه، ولا يُغني المتعلِّمَ النَّهِم من مزيد البحث والتّدقيق.

فالشّيخ سعيد شريفي رائدٌ من روّاد الحركة الإصلاحية في الجزائر، جمع بين الإيمان بالفكرة، والعمل الدّؤوب المتواصل، والكلمة الصّادقة الصّريحة، كان حريصًا على إبلاغ فكرته ومبادئه السّامية إلى الآفاق، ولا يقنع بما تتلقَّفه الآذان من منابر التّبليغ في ميزاب، فكان من الكتَّاب الأوائل الذين أثروا الصّحافة الوطنية بكتابتهم الثّمينة، وصحافة الشّيخ أبي اليقظان بوجه خاص.

لقد كان الشّيخ عدُّون من مؤيّدي الشّيخ أبي اليقظان في مسعاه

---

[97]- مجلّة الحياة (معهد الحياة)، العدد التّاسع، ص: 148 – 170.

وجهاده رغم ما عاناه من إدبار الجزائريّين عن القراءة، وميلهم إلى حبِّ المادَّة وملذّات الحياة، فإنَّه تحمَّل تكاليف ومشاق طباعة أولى جرائده "وادي ميزاب" في تونس، وتوزيعها كلَّ أسبوع في الجزائر.

قال الشّيخ أبو اليقظان متأثّرًا بالحالة المزرية التي تمرُّ بها الصّحافة الإصلاحية تأليفًا وقراءة:

«إذا ذاب مخُّك في تجهيز الجريدة بما لذَّ وطاب من فصولٍ مُمتعة... وبذلتَ لمصاريفها من حرِّ مالك المئات والآلاف... ثمَّ توقَّفتَ بمحفظتك على باب حضرة المشترك الكريم تسأله معلوم الاشتراك، فأجابك بكلِّ سخرية واستهزاء بأنِّي لا أقرأ الجريدة ولا أعرفها ولا أشتغل «بالبوليتيك»، ونحن نَجري وراء الخُبزة والخبزة طايرة...!

فما هو صنيعُك معه..؛ وهل تشرب من ماء البحر...؟»

"أسئلتي" (جريدة الأمَّة. العدد: 10، 1934/11/20)

ولكنّه كان يجد الشّيخ عدُّون بجنبه دائمًا مستعدًّا لمؤازرته ورفع معنوياته، ومن السبَّاقين والمداومين على الكتابة في صحفه، وقد تجاوزت مقالاته في هذه الصّحف المائة (100) مقالة، في مواضيع مختلفة واتّجاهات متعدّدة، تصبُّ جميعها في بوتقة إصلاح المجتمع وبعثه من رقدته الطّويلة.

الشّيخ عدُّون والكتابة الصّحفية:

إنَّ أوَّل مقال نشره الشّيخ عدُّون في صحف الشّيخ أبي اليقظان كان بعنوان:

«**جولة في وادي ميـــزاب**»، نشـــره في العـــدد السّـــابع (**07**)، من صحيفة وادي ميـــزاب الصّـــادر بتـــاريخ 1926/11/12، ثم ما انفكَّت المقالات تترى تباعًا، والكاتب الألمعي يشـــقُّ طريقـــه في الميدان بخطى ثابتة، وما إن شهد وادي ميـــزاب والجزائـــر بشـــكل عام قيام الجمعيات الإصلاحية، والصّـــحوة الدّينيـــة والاجتماعيـــة، حتَّى كان الشّيخ عدُّون من أبرز الكتَّاب؛ رفعًـــا لرايتـــها وإعـــلاءً لكلمتها، فقد كـــان تأســـيسُ "جمعيـــة الحيـــاة" بـــالقرارة ســـنة 1937م نقطةَ تحـــوُّل في ســـيرورة المجتمـــع، وفي تفكـــير الشّـــيخ عدُّون الصّحفي بشـــكل خـــاص، ويبـــدو ذلـــك جليًّـــا في نمـــط العناوين التي صدَّر بها جريـــدتي "المغـــرب" و"النّـــور" فتطالعنـــا عناوين مثل:

دعاةُ الإصلاح وما يجب عليهم	المغرب ع:34	31/02/26
دعاة الإصلاح وما يجب عليهم (الحلقة الثّانية)	المغرب ع: 35	31/03/05
إذا مِتُّ ظمآن فلا نزل القَطرُ!	النّور ع: 13	31/12/08
الأفكار المستعــبِدة بالأوهام والخرافات	النّور ع: 14	31/12/22
الأوهام وأثرها في النّفوس	النّور ع: 15	31/12/29
موقفُــنا إزاء الواجبات العمومية	النّور ع: 16	32/01/05

كانت هذه المقالات والتي تليها تُقرأ في المدن الكبرى للبلاد، وفي ميزاب، وكان لنوعية المواضيع التي يعالجُها الشّيخ عدُّون، وطريقة تناوله إيَّاها السّبب المباشر الذي جعل الشّيخ أبا اليقظان يُنيط بكاتبنا مسؤولية وضع المقال الافتتاحي لجريدة "النّور"، وجميع الإعلاميين يعرفون قيمة

المقال الافتتاحي لأيّ جريدة، فهو الوجه الذي يطّلع من خلاله القرّاء، ليس على المواضيع الهامَّة والرئيسة فحسب، بل وعلى التّوجُّه والمنحى العام للجريدة، وإذا علمنا أنَّ جريدة "النّور" قد رأى النّور منها 78 عددًا (من 31/09/15 إلى 33/05/02)، فإنَّ الشّيخ عدُّون قد كتب في كلِّ أعدادها مقالات, وصاغ المقال الافتتاحي لـ 38 منها، وبذلك نلمس قيمة كتابات الشّيخ ووزنها. فما هي المواضيع التي عالجها الشّيخ عدُّون في مقالاته، وكيف كان يعرض أفكاره؟

المواضيع والاهتمامات:

لقد كان الإصلاح بشتَّى فروعه ونواحيه الهاجس الأوّل والدّافع الأكبر للكتابة عند الشّيخ عدُّون وفي هذا يقول:

« إنَّ الأمَّة الجزائرية المغلوبة على أمرها، المبتلاة بأنواع الشّرور في حاجة شديدة إلى الإصلاح في جميع نواحي حياتها؛ من دينية واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وإصلاح ناحية من هذه النّواحي يستلزم طبعًا إصلاح النّواحي الأخرى (...) فيجب أن يتناولها الإصلاح دفعة واحدة (...) لكن مع تخصيص جانب الأهمّ منها بالعناية لاختلاف مراتبها بالتّأكيد ».

("الأمَّـــة". عدد: 103, 1936/12/29).

ومن هذا المنطلق نجد جلَّ كتابات الشّيخ عدُّون تتناول قضايا الإصلاح حسب ما يراه الأهمَّ ثمّ المهمّ؛ وهو يصوغ نظرته لمراتب الإصلاح بقوله:

« بيد أنَّ النّواحي المهمَّةَ فيه [أي الإصلاح]: تتناول ناحية التّعليم في مقدِّمة ما تتناول، بالسّعي في فتح المدارس وتهذيب الأساليب، وناحية التّربية بتهذيب النّفوس، وتنوير العقول بالوعظ والإرشاد، وناحية الدّين بإظهار محاسنه (...) وبمحاربة البدع التي شوَّهت جماله وحجبت جلاله، وناحية الاجتماع بتوثيق العلائق وبثّ روح التّضامن بين الأفراد والجماعات والهيئات».

(الأمَّـــة. عدد: 55، 1935/12/17).

إذًا، فالمواضيع التي يرى الشّيخ عدُّون ضرورة معالجتها أوّلاً، وهو بالتّالي أشدُّ تركيزًا في التّأليف حولها هي:

*-إصلاح التّعليم

*-تصحيح الدّين

*- إصلاح التّربية

*-إصلاح العلاقات الاجتماعية

أ ــ إصلاح التّعليم:

لقد ساء الشّيخ عدُّون ــ وجميع المصلحين ــ الحالة المزرية التي آل إليها التّعليم في ميزاب؛ وبدائية المناهج وطرق التّدريس، مقارنة بما تعرفه دول المشرق العربي، ومصر بالخصوص، من تطوّر جليٍّ في مناهج التّعليم وأهدافه، فكان يتحرَّق لرؤية أبناء قومه متفتّحي العقول، مقبلين على العلم الصّحيح غير مدبرين، ينهلون من منبعه الصّافي يَروي نَهَمَهُم المعرفي عن دينهم الحنيف ومذهبهم القويم ولغتهم العربية الجميلة، وكان يأسف إذا رأى أبناء الأقوام الأخرى تتدافع في طلب العلوم وتتزاحم في كلِّ بداية موسم دراسي أمام أبواب المدارس، بينما يلوذ أبناءُ قومه بالتّجارة وطلب المال؛ وهم مع ذلك لم يوفَّقوا لا في العلم ولا في التّجارة؛ لجهلهم بأمور دينهم وكيفية تسيير أمور دنياهم.

يقول الشّيخ عدُّون في مقال عنونه بـِ: "**هذا موسم الدّراسة على الأبواب فماذا أعددنا له؟**" ما يلي:

«... يسوؤُنا - والله - أن نبقى عاكفين على هذه الحالة المزرية، نعالج هذه المواضيع عشرات السّنين، ولم نبلغ منها وطرًا، وقد أصبحت لدى أكثر الأمم من المفروغ منها منذ عشرات ومئات السّنين، (...) فإذا انشغلنا اليوم بهذه الأبحاث فإنَّنا ننشغل بها مضطرِّين ونعالجها مُكرهين ونركب متنها منشدين:

وما عن رضًا كان الحمارُ مطيَّتي

ولكنَّ من يَمشِي سيرضى بما ركب

... أيَّة نفس تعرف للعلم قيمة تشاهد أبواب المدارس النّظامية تتفتَّح والتّلاميذ تعجُّ بهم الأزقّة بأزيائهم المدرسية (...) والآباء مغتبطون بحال أبنائهم ينظرون إلى المستقبل السّعيد بأعين ملؤُها آمالٌ بعيدة، وخططٌ مرسومة، وهناءٌ موفورٌ (...) أيَّة نفس تشاهد هذا وتشاهد آثاره ونتائجه في كلِّ شيءٍ، ولا يقضي عليها الأسى، ولا تتقطَّع حسرات حين تلتفت إلى أمَّتها فتجدها في معزل عن هذه الحياة، التي عمَّت كلَّ ناحيةٍ سوى ناحيتها...».

("الأمَّـــــة". عدد: 90، 1936/10/15).

وقد كتب الشّيخ عدُّون في التّعليم أكثر ما كتب من مقالات، وبالخصوص بعد تأسيس الشّيخ بيوض لمعهد الحياة بالقرارة، فكان تطوير التّعليم وإصلاح مناهجه من أولى أولويات الحركة الإصلاحية، خاصَّة وأنَّ تفشّي ظاهرة التّسرب المدرسي والانفصال عن الدّراسة في السّنوات الأولى من التّعليم، وانتقال اليافعين من أبناء ميزاب إلى التّجارة في التّلّ كان ظاهرة مَرَضِيَّة، تستفحل وتزداد انتشارًا مع مواتاة رياح الأزمة الاقتصادية الخانقة التي مرَّ بها الجزائريون في الثلاثينيات. فانبرى الشّيخ عدُّون إلى هذا المشكل بحزمٍ وتفانٍ.

وقد أُعجب بنموذج رائع لشابٍّ، لم يَنَل من التّعليم في المدارس والمعاهد الرّاقية شيئًا، وإنَّما نشأ عصاميًّا معتمدًا على نفسه، محبًّا للعلم يطلبُه أينما وجده، ولا يغفل عنه آناء اللّيل وأطراف النّهار، وقد نشر هذا الشّاب - واسمُه: «أبو عامر قاسم» - سلسلة مقالات هامّة في جريدة "الأمَّة"، عنونها بـِ «**نصيحة حبّ وعتاب إلى الشّباب المسلم**»، فتأثّر به الشّيخ عدُّون أيّما تأثُّر، واستغلَّ الفرصة لإذكاء شعلة الغيرة والمثابرة في نفوس الشّباب المتعلّمين والمتمدرسين، فكتب بدوره مقالاً في الموضوع:

«إلى الشّباب الحيِّ: صرخةٌ داوية صرخ بها مثالُ الشّباب؛ فهل من مدَّكر وهل من مُجيب!؟».

"الأمَّـــــة". عدد: 81, 1936/06/30

ومن القالات التي كتبها الشّيخ عدُّون في مجال التّعليم نورد ما يلي:

الأزمتان الجهل والفقر	عدد: 20	32/02/02
إعراض الأمَّة عن ثمار عقول أبنائها	عدد: 31	32/05/03
من هم الجناة على العلم	عدد: 39	32/06/28
أعداء العلم الألدَّاء	عـــدد: 40	32/07/05
دروس ومحاضرات بدل الأجـــواق والعوادات	عـــدد: 99	36/10/17([1])

[1] – المقال الأخير نشره الشّيخ عدّون في جريدة الأمّة، والأخرى نشرها في جريدة النّور. (م.ن.ب).

ب – إصلاح التّربية:

إنَّ الشّيخ عدُّون من خلال مطالعاتنا ــ التي لا ندّعي عمقها ــ لكتابته الصّحفية شديد الحساسية تجاه قضايا التّربية وإصلاح الأنفس والعقول، حريصٌ على بناء الأصالة الذّاتية للأمّة الميزابية الجزائرية المسلمة؛ خاصَّة وإنَّ السّلطة الاستعمارية آنذاك لا تُرضيها هذه الصّحوة وهذا الاعتزاز بالشّخصية الميزابية الجزائرية المسلمة؛ ولا يروقها وجود هذا النّوع من التّربية بين من هو تحت نفوذها، فهي ترى هذه الصّحوة منافية لخطَّتها، وتُسمِّي هذا الصّنف من الغيرة على الدّين أو الملَّة أو الوطن «تعصُّبًا ذميمًا»؛ ليزهد أصحابها فيها فيخلصُوا منها، فيتسنَّى للمستعمر بسط أفكاره، وتربيته، وأخلاقه، ومبادئه، على كافة فئات الشّعب.

لقد انبرى الشّيخ عدُّون للآفات التّربوية، والأخطاء التي يمارسها المربّون عن علم أحيانًا، وعن جهل في أحيانٍ أخرى كثيرة.

أمَّا من يمارس التّوجيه التّربوي الخاطئ والمقصود عَيانًا، فهم أذناب المستعمرين الذين وصفنا خطَّتهم لمحو شخصية الإنسان الجزائري المسلم الغيور على دينه وأمته ووطنه ولغته العربية، أمَّا من يُعنى بتربية الأجيال وتنشئتهم وفق الطّرق الموروثة، دون تمحيصٍ وإعمال عقل، فهم في غالب الأحيان علماءُ غيورون على الأمَّة ومستقبلِها ولكنّهم انكفؤُوا

على تراثهم لا يبرحونه إلى ما يستجدُّ من وسائل وأساليب، وهم يشكّلون خطرًا على الأمّة خطورة سابقيهم أو أشدّ؛ فالتّربية عن جهل تورث العقد والتّشرذم في نفوس الأبناء؛ « وهكذا شأن العامي المسكين؛ إذا بُلي بهذا النّوع من العلماء ممَّن سُلبوا نعمة التّفكير أو مُنحوها ولكنَّ الأهواء طمست بصائرهم فلم ينتفعوا بها، وليس الذنبُ ذنبَ هذا العاميِّ المنكود الحظِّ، الذي ألقته المقادير بين أحضان هذا الجامد فضرب على عقله قُبَّةً من حديد (...)، ولكنَّه ذنب المفرِّطين من العلماء والأحرار والمصلحين الأبرار الذين قصَّروا في واجب الدّعاية إلى الحقّ».

«من منطقهم تعرفهم؛ جمود العلماء وأثره في نفوس العامَّة».

(“الأمَّـــــة”. عدد: 71، 1936/04/21).

إنَّ مهمة العالم المصلح في مجال التّربية مهمَّةٌ خطيرة وحسَّاسة، فعليه تهذيب العقول من شوائب التّقاليد البالية، التي لا تستندُ إلى أساسٍ صحيح من الدّين، أو سِيَر الصّالحين، وقد تتناقض مع شرائع الدّين وأهدافه السّامية. وعليه أن يصوغ الأفكار التّربوية الجديدة، التي يرى ملاءمتها لخصوصيات الأمّة؛ باستخدام العقل والدّليل الميداني الملموس، وينتقي من أفكار الآخرين ما لا يتعارض مع المبادئ الأساسية لتفكيره.

يقول الشّيخ عدُّون: إنَّ « أعظم نكبةٍ تُصاب بها أُمَّةٌ أن تُصاب في عقولها، فتتوقّف عن أداء وظيفتها من التّمييز بين النّافع والضّار، والحقِّ

والباطل، فترى حسنًا ما ليس بالحَسَن، تستسمن ذا ورم، وتستورم ذا سمن؛ ما أعظم بلاء هذه الأمَّة، وما أشدَّ محنتها، وما أشقَّ محنةً يضطلع بها مرشدوها، ومصلحوها، إنَّ ذلك لمن عزم الأمور».

"من هم حماة الدّين ومن هم الخاذلوه!؟"

("الأمَّـــــة". عدد: 81، 1936/06/30)

ج- تصحيح الدّين:

لقد أدرك المصلحون وعلى رأسهم الشّيخ عدُّون أنَّ إصلاح المجتمع وتطوُّره، لا يمكن أن يتمّ بمعزلٍ عن الأساس الدّيني، فإذا كان هذا الأساسُ صحيحًا وراسخًا سهل بناء المعارف وتطوير العقول، أمَّا إذا كان الأساس مترجرجًا انهار جميع ما يقوم به المصلحون من جهود:

« إنَّ من لم يبلغ الإدراك إلى الاعتراف عن يقين بأنَّه لا يُصلح هذه الأمَّة إلاَّ دينُها، وإنَّ كلَّ حركةٍ لا يُقرُّها الدّين هي منبع الفساد (...) والواقع الملموس ينادي: أن لا صلاح لآخر هذه الأمَّة إلاَّ بما صلح به أوَّلُها؛ فكلُّ مُصلح كان دينيًّا أو سياسيًّا أو اقتصاديًّا، لم يتشبَّع بهذا المبدأ القويم، ولم يكن إصلاحه على مقتضاه وسَنَنِه، وجب أن يُطرد من ميدان الإصلاح ويُضرب بإصلاحه عرض الحائط ». **"يجب أن يكون الدّين أساس كلِّ أصلاح"** **("الأمَّـــــة". عدد: 103، 1936/12/29).**

وفي ميدان الإصلاح الدّيني برع كتّاب حركة الإصلاح بوجه عام، والشّيخ عدُّون كان من أبرزهم، وتستوقفُنا في هذا الميدان سلسلة مقالات بعنوان: «**مواقف الأمَّة إزاء حركة الإصلاح في ميزاب**»؛ نشرها الشّيخ عدُّون في جريدة "الأمَّة" تِباعًا لمدّة تزيد عن ثلاثة أشهر، وكانت مقالات شجاعة، دقيقة، صريحة.. وضعت الإصبع على الجرح الذي ما فتِئت الأمَّة تعاني منه.

وقد تمَّت هذه السّلسلة بعشر مقالات كاملة، كان أوَّلها بتاريخ: 1935/12/17 وآخرها بتاريخ: 1936/03/31.

لقد كان لهذه المقالات صدى واسعٌ في نفوس القرَّاء؛ حتَّى إنَّ الشّيخ أبا اليقظان عقَّب في آخر مقال في هذه السّلسلة؛ مُهنِّئا الشّيخ عدُّون على أن وفَّقه الله لإتمام الموضوع، ومبديًا إعجابه بأسلوب الكاتب وبراعته، فقال: «**حيَّاك الله وبيَّاك أيُّها الكاتب المجيد؛ لقد أعطيت الموضوع حقَّه، ووفَّيتَه حظَّه بأسلوب سهل عذب المذاق، سائغٍ لدى أرباب الأذواق (...) وهكذا فلتكُن الأقلام، نرجو أن يكون لها أثرٌ في نفوس من يتحامى الدّاء ويطلب الدواء ممَّن جاءه به**».

("الأمَّة". عدد: 68، 1936/03/31)

د- الإصلاح الاجتماعي:

إنَّ المتتبِّع لتاريخ الحركة الإصلاحية في الجزائر يلاحظ أنَّها كانت تهدف أساسًا إلى إصلاح الجانب الدّاخلي للفرد أوَّلاً وقبل كلِّ شيء؛ بتربيته التّربية الصّحيحة والعلم النّافع وتنشئته على الطّريق السّويّ، ثمّ يليه - بطريقة آلية - إصلاح الجماعات بوجه عام، بتحسين الرّوابط بينها، ومعرفة كيفية توجيهها إلى الأهداف والغايات المنشودة. أمَّا وسائل تحقيق إصلاح الأفراد فقد رأينا بعض صورها في مجال التّربية والتّعليم وتصحيح الدّين، أمَّا وسائل إصلاح العلاقات بين الجماعات - وإن كانت في الأساس لا تختلف عن وسائل إصلاح الأفراد - فيمكن إيجازها في النّقاط التّالية:

1- مكافحة الآفات الاجتماعية؛ كالتّدخين، والقمار، والفواحش، وغيرها.

2- مكافحة الخرافات والأوهام والعادات البالية، ومحاربة الجهل والدّعوة إلى التّعليم.

3- تحرير النّفوس من الأهواء والأغراض الذّاتية وزرع روح التّكافل الاجتماعي.

4- تقديم المسؤولين والمشايخ أمام العامَّة مثالاً للنّزاهة والاستقامة.

5- القضاء على النّعرات الطّائفية، والإحن المذهبية، وإرساء أسس الاتّحاد بين كلّ الجزائريّين.

6- التّحريض على العمل المنتج في جميع الميادين، الماديَّة والأدبية، والتّنديد بمظاهر التّسيّب والكسل واللامبالاة.

وقد سلَّ الشّيخ عدُّون سيفه في وجه الآفات الاجتماعية، ونضى قلمه في سبيل توحيد صفوف الأمَّة، وتمتين أواصر الأخوَّة الإسلامية بين جميع الجزائريّين، ودعا إلى التّكافل الاجتماعي بين جميع أفراد المجتمع، كلٌّ حسب مجاله وصِفته: الغنيّ يالأخذ بيد الفقير، يعلِّمُه الحِرف ويردُّ عنه شبح الفاقة، والعالم يالأخذ بيد الجاهل، يُخرجه من الظّلمات إلى النّور، وهكذا؛ فليست النِّعم والوسائل بذي قيمة لذاتها وإنَّما بحسب ما يوظِّفها الإنسان في ما يعود عليه وعلى أمَّته بالخير:

« إنَّ العلم والمال والجاه والشّهرة مثلاً وسائل صالحة لها قيمتُها، ولكن لا لذاتها، بل لما يترتَّب عليها من المقاصد الشّريفة (...) لو كان لنا حظٌّ من الشّجاعة الأدبية لنقف موقف المحاسب المنتقد، نناقش المتعلِّم ونسائلُه ماذا عَمِل فيما عَلِم؟ هل قام بواجبه تجاه نفسه ونحو أمَّته ووطنه؟ (...) وإذا كان الجواب سلبيًّا بأن كان دعيًّا في العلم، أو كان عالمًا، ولكن ليس له منه إلاَّ اسمُه، فلم يكن له منه أثرٌ في نفسه ولا في أمَّته، أو كان له أثرٌ فيهما ولكن عكس المقصود، في الشّرّ لا في الخير..

رفضناه بكلِّ شجاعة ونفضنا منه أيدينا، وفَرَرْنا منه فِرَارَنَا من الأجرب. ونقفُ من الغنيّ مثل هذا الموقف؛ فإن وجدنا في ماله حقًّا معلومًا للسّائل والمحروم، وللنّائبات النّازلة على الأمَّة، وللمشاريع الخيرية، كان جديرًا باحترامنا، حريًّا بكلِّ احترام وتقدير واعتبار، وإن لم نجد له أثرًا في كلِّ ذلك، وكان بماله شحيحًا يكترُه ولا يُنفقه في سبيل الله كان مرمى احتقارٍ وازدراء ومصبَّ اللَّعنات ».

(“الأمَّة”. عدد: 96، 1936/10/27)

هكذا يتَّخذ الشّيخ عدُّون موقفا حازما أمام من يفكّر في اتّجاه واحد، يخدُم نفسه ولا يهمُّه أمر مجتمعه وأمَّته. ولا يعالج القضايا الاجتماعية برويَّة وتحكيم عقل.

وقد يتطرَّق إلى مواضيعَ لا تخطر على بال القارئ في هذا العصر، ولكنَّها تُصيب في الحقيقة لبَّ المجتمع وتُوجِّه مسيرته إلى التّطوّر والرّقيّ، أو إلى التّردّي والانحطاط. ومن هذا القبيل معالجتُه موضوعَ اليأس والقنوط، وأثره في هدم الجهود وإفشال العزائم، فبعد أن يحلِّل هذه الآفة الاجتماعية ويكشف أعراضها يصف لنا العلاج قائلاً:

« ولا سبيل لعلاج هذا المرض المنتشر بيننا، والمتمكن في كثير من النّفوس إلاَّ بتقوية الإيمان فيها، وترديد النّظر في الأمم الغابرة والحاضرة ودرس أطوارها وتقلُّباتها، والمَثَلُ الأعلى هنا الأمَّةُ الإسلامية التي أعطت

للأمم الضعيفة المنحطَّة أعظم الدّروس في تاريخ النّهضات والانقلابات الخطيرة، وأرَتْهُم كيف يصير العبد سيِّدًا، والمملوك مالكًا والقوي ضعيفًا، والمنحطُّ راقيًا، وعلَّمتهم كيف يكون الإنسان عزيزًا أبيًّا كاملاً في إنسانيته، قويًّا في رجولته كريمًا في نفسه. (...) متى نرجع إلى هذا النّبع الصّافي فيروينا من ظمإٍ كاد يؤدي بنا، ويشفينا من علة الإياس (...) فإذا استطعنا القضاء على هذه العلَّة والتّخلُّص منها استطعنا حينئذ القضاء على جميع الآفات، ولا أحسبُ مسلمًا مُصدِّقًا بالقرآن يترك أثرًا لهذه العلَّة في نفسه وهو يقرأ فيه: ﴿...إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرونَ ﴿١٠٧﴾﴾». (يوسف: 87).

«من أمراضنا الاجتماعية: آفة الإياس الفتَّاكة».

("الأمَّة". عدد: 89، 1936/09/08)

إنَّ المتأمّل في كتابات الشّيخ سعيد شريفي (الشّيخ عدُّون) في المجال الاجتماعي يلمس روح حكيمٍ خبيرٍ بخفايا المجتمع، عليمٍ بأدْواء الأمَّة، يخترق بتفكيره الحُجُب ويرصد الآفات التي تهدِّد كيان المجتمع، والتي قد تبدو للبعض غير ذاتِ أثر، ولكنَّها في الواقع تسري سريان النّار في الهشيم، تَخفَى على الكثير، ولكنَّها لا تخفى على عين المنتقد الفاحص الخبير؛ راجع إن شئت المقالات التّالية التي كتبها:

نظرة في حالة شبابنا المتمدّنين	وادي ميزاب: 19	27/02/11
هل نحن مستيقظون	وادي ميزاب. ع: 38	27/07/2
التّعاون الاجتماعي	وادي ميزاب. ع:69	28/02/10
المصلحة الشّخصية آفة مبيدة للمشاريع	المغرب. ع:32	31/01/13
الأفكار المستعبدة بالأوهام والخرافات	النّور. ع:14	31/12/22
الأوهام وأثرها في النّفوس	النّور. ع:15	31/12/29
الأزمتان الجهل والفقر	النّور. ع:20	32/02/02
إنكار الذّات في سبيل المصلحة العامّة	النور. ع:35	32/05/31
ما نورث أبناءنا بعدنا من أسباب التّعاسة؟	النّور. ع:55	32/11/01

خاتمة:

إنَّ جهاد الشّيخ عدُّون (رحمه الله) في ميدان الصّحافة، وما كتبه من مقالات افتتح بها الشّيخ أبو اليقظان جرائده الثّماني منذ 1926 إلى 1938، لا يُمكن أن يُرصد ويعالج في هذه السّطور البسيطة، وأعترف كما بدأت أوَّل الموضوع أنِّ هذا جهد المقلِّ، ولم أطَّلع بعد على جميع

مقالاته، وإنِّي لأرجو الله أن يوفّقني إلى جمع مقالاته العظيمة من بطون الجرائد اليقظانية التي فعل فيها الزّمن فعلته، ونالت الأرضة منها ما نالت، حتّ ترى النّور بإذن الله؛ ودراستها وتحليلها تحليلاً متأنِّيًا، لتكون شهادة للتّاريخ عن رأيٍ وفكرٍ مستنير، قلَّما نجد مثاله بين الكتاب، ولتكون مرجعًا للباحثين والطّلبة الذين يطّلعون من خلالها على أمال وآلام مفكّري الإصلاح، واستنبطوا صورًا ساطعة لجهاد أبائه ومشايخه العظام.

ملاحظات:

*- كان الشّيخ عدُّون وأغلب قادة الحركة الإصلاحية يمضون مقالاتهم باسم مستعار؛ وكان الشّيخ عدُّون يمضي مقالاته، باسم: (سعيد) أو (عدُّون).

*-كتب الشّيخ عدُّون في أغلب جرائد الشّيخ أبي اليقظان، ولا نستبعد أن تكون له كتابات في جرائد حركات الإصلاح في الجزائر، وعلى رأسها: الشّهاب، والبصائر، وغيرها، مِمَّا يستدعي المزيد من الجهد لاكتشافها ونفض الغبار عنها.

*-لم نعثر للشّيخ على مقالات في ثلاث جرائد للشيخ أبي اليقظان؛ وهي: «ميزاب»، و«البستان»، و«الفرقان»؛ أمَّا «ميزاب» فالسّبب واضح، هو أنَّ الجريدة صدر منها عددٌ واحد

فقط، وأوقفتها السّلطة الاستعمارية. أمَّـا «البسـتان» فربَّمـا لكـون أسلوب الجريدة السّـاخر والفكـاهي الـذي تبنّتـه شـعارًا لتوصـيل أفكارها، لم يناسب جديَّـة الشّـيخ في طـرح قضـاياه وانشـغالاته، ولأنَّها هي وجريدة «الفرقان» لم يصدر منـهما سـوى أعـداد قليلـة: عشرة للبستان، وسبعة للفرقان([1])؛ مقارنـة بالجرائـد المعمّـرة أمثـال: «الأمَّة» التي صدر منها مائة وسبعون عددًا.

[1] – صدر للفرقان ستّة أعداد. (م.ن.ب).

فهرس لمقالات الشّيخ سعيد شريفي (الشّيخ عدُّون) في صحف الشيخ أبي اليقظان(*)

ملاحظة: المقالات مرتَّبة حسب تاريخ الصّدور، بداية من جريدة "وادي ميزاب" إلى "الأمَّة". ولقد وضعنا للمقال الذي كتبه الشّيخ افتتاحية للعدد من الجريدة علامة النّجمة: (*) لتمييزه.

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(1)	جولة في وادي ميزاب	7	26/11/12	وادي ميزاب
(2)	نظرة في حالة شبابنا المتمدّنين	19	27/02/11	
(3)	مرحبا بك يا أبا اليقظان	20	27/02/18	
(4)	هل نحن مستيقظون؟	38	27/07/2	
(5)	التّعاون الاجتماعي	69	28/02/10	
(6)	رياض الأدب (اللّغة العربية) (شعر)	1	30/05/26	المغرب

(*) ـ اعتمدنا في صياغة هذا الجدول بشكل أساسي على العمل الجبّار الذي أنجزه الدّكتور محمد صالح ناصر بفهرسة مقالات ومواضيع جرائد الشّيخ أبي اليقظان، في كتابه: «**أبو اليقظان وجهاد الكلمة**». الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع. الجزائر. 1980.

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(7)	رياض الأدب (بني أوطاننا هل من قيام؟) (شعر)	14	30/09/2	
(8)	احتقار النّفس	29	30/12/16	
(9)	المصلحة الشّخصية آفة مبيدة للمشاريع	32	31/01/13	
(10)	دعاة الإصلاح وما يجب عليهم	34	31/02/26	
(11)	دعاة الإصلاح وما يجب عليهم	35	31/03/05	
(12)	التّشاؤم	36	31/03/12	
(13)	التّسويف ومثال المفرطين	5	31/10/13	*النّور
(14)	الحياة السّافلة وكيفية التّوقّي منها	6	31/10/20	*
(15)	الشّعور بالخطر باعث على درئه	7	31/10/27	*
(16)	الشّعور بالخطر باعث على درئه	8	31/11/9	*

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(17)	المطمح الأسمى ونتيجة إعراض النّاس عنه	9	31/11/10	
(18)	المطمح الأسمى ونتيجة إقبال النّاس عليه	10	31/11/17	*
(19)	إذا متُّ ظمآنَ فلا نزل القطر!	13	31/12/08	*
(20)	الأفكار المستعبدة بالأوهام والخرافات	14	31/12/22	*
(21)	الأوهام وأثرها في النّفوس	15	31/12/29	*
(22)	موقفنا إزاء الواجبات العمومية	16	32/01/05	*
(23)	هذه خصائصنا فهل آن لنا أن نعرف كيف نستثمرها	18	32/02/19	*
(24)	المؤتمر الإسلامي بالقدس ونتائجه	19	32/01/26	*
(25)	الأزمتان الجهل والفقر	20	32/02/02	*
(26)	المثل الأعلى وكيف يجب اتّخاذه علما في مفازة الحياة	24	32/03/08	*

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(27)	هذه مقدّمة الحرب تفتك بنا فهل آن لنا أن نزدجر ونرعوي	25	32/03/18	*
(28)	هذه مقدّمة الحرب تفتك بنا فهل آن لنا أن نزدجر ونرعوي	26	32/03/22	
(29)	الإفلاس الدّيني جسرٌ إلى هوّة الإفلاس المادي	27	32/03/29	*
(30)	كِتاب الجزائر؛ وما هو موقف الأمّة إزاءة	30	32/04/26	*
(31)	إعراض الأمّة عن ثمار عقول أبنائها	31	32/05/03	*
(32)	الجزائر المسلمة يجب أن يكون لإسلامها صوت مسموع	32	32/05/10	*
(33)	المبادئ الصّحيحة ومواقف البسطاء والمغفّلين إزاءها	34	32/05/24	*
(34)	إنكار الذّات في سبيل المصلحة العامّة	35	32/05/31	*

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(35)	جمعية العلماء المسلمين (بين أمس واليوم)	36	32/06/07	
(36)	إنكار الذّات في سبيل المصلحة العامّة	37	32/06/14	*
(37)	من هم الجناة على العلم	39	32/06/28	*
(38)	أعداء العلم الألدّاء	40	32/07/05	*
(39)	ماذا يلاقي الصّحافي عندنا	40	32/07/05	
(40)	رحلة الأستاذ الجليل الشّيخ بيّوض لعمالة وهران	44	32/08/02	*
(41)	الجمود	46	32/03/16	
(42)	الجمود وكيف يجب على الأمّة الاتّقاء منه	47	32/08/23	
(43)	حافظوا على الصّلوات	48	32/08/30	*
(44)	ما نورّث أبناءنا بعدنا من أسباب التّعاسة؟	55	32/11/01	*
(45)	متى يجب الإصلاح؟	56	32/11/08	
(46)	إذا لم يكن الإصلاح لدفع الإفساد، فمتى يكون ولماذا يجب إذا..؟	57	32/11/15	*

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(47)	إذا لم يكن الإصلاح لدفع الإفساد، فمتى يكون ولماذا يجب إذا..؟	61	32/12/13	
(48)	إذا لم يكن الإصلاح لدفع الإفساد، فمتى يكون ولماذا يجب إذا..؟	62	32/12/20	*
(49)	إذا لم يكن الإصلاح لدفع الإفساد، فمتى يكون ولماذا يجب إذا..؟	63	32/12/27	*
(50)	إذا لم يكن الإصلاح لدفع الإفساد، فمتى يكون ولماذا يجب إذا..؟	64	33/01/10	*
(51)	كيف يكون الإصلاح وما هي وسائله؟	65	33/01/17	*
(52)	ضعف الإيمان بالله إنّما هو أصل كلِّ علَّة	67	33/02/07	*
(53)	مأدبة فاخرة بنادي التّرقّي	68	33/02/14	*
(54)	دمعة وادي ميزاب الحارة..	69	33/02/21	*

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(55)	خلل كبير في صحافتنا يجب على الكُتَّاب سدُّه؛ فهل من مجيب؟	73	33/03/21	*
(56)	الغرور وأعراضه، أو الطّبل الأجوف	75	33/04/04	
(57)	خطورة الهجرة على مستقبل ميزاب	76	33/04/18	*
(58)	كيف ينتقدون بين الجدران وفي ظلام اللّيل البهيم	76	33/04/18	
(59)	خطورة الهجرة على مستقبل ميزاب	77	33/04/25	*
(60)	كيف يفهمون الانتقاد النّزيه (الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر)	77	33/04/25	
(61)	ثلاث ليال بالصّحراء (أو درس تطبيقي في الأدب العربي)	01	33/07/21	النبراس
(62)	الانتقام السّافل (علله وأسبابه ونتائجه)	05	33/08/17	

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(63)	الانتقام السّافل (علله وأسبابه ونتائجه)	06	33/08/25	
(64)	صحافتنا وموقف الأمّة إزاءها في الحالة الرّاهنة	04	34/10/09	الأمَّة
(65)	صحافتنا وموقف الأمّة إزاءها في الحالة الرّاهنة	05	34/10/16	
(66)	صحافتنا وموقف الأمّة إزاءها في الحالة الرّاهنة	08	34/11/06	
(67)	صحافتنا وموقف الأمّة إزاءها في الحالة الرّاهنة	11	34/11/27	
(68)	صحافتنا وموقف الأمّة إزاءها في الحالة الرّاهنة	12	34/12/04	
(69)	هل المعارضة إلاّ من لوازم الإصلاح	32	35/07/09	*
(70)	موقف المصلحين من المعارضين	37	35/08/13	*
(71)	من هم حماة الدّين ومن هم الخاذلوه	39	35/08/27	*

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(72)	الشّرع في الحكم قبل التّروّي مصدر الخطأ	50	35/11/12	
(73)	موقف الأمّة إزاء حركة الإصلاح بميزاب	55	35/12/17	
(74)	موقف الأمّة إزاء حركة الإصلاح بميزاب	56	35/12/24	
(75)	موقف الأمّة إزاء حركة الإصلاح بميزاب	58	36/01/14	
(76)	مواقف الأمّة إزاء حركة الإصلاح بميزاب	59	36/01/21	
(77)	مواقف الأمّة إزاء حركة الإصلاح بميزاب	60	36/01/28	
(78)	مواقف الأمّة إزاء حركة الإصلاح بميزاب	62	36/02/11	
(79)	مواقف الأمّة إزاء حركة الإصلاح بميزاب	64	36/02/25	
(80)	مواقف الأمّة إزاء حركة الإصلاح بميزاب	65	36/03/03	

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(81)	مواقف الأمّة إزاء حركة الإصلاح بميزاب	66	36/03/17	*
(82)	مواقف الأمّة إزاء حركة الإصلاح بميزاب	68	36/03/31	
(83)	من منطقهم تعرفهم (جمود العلماء وأثره في نفوس العامّة)	71	36/04/21	*
(84)	هذا هو الدّاء فما هو الدّواء؟ ما هي الوسائل المبيدة لجراثيم الجمود؟ وما هي طرق الوقاية منها؟	73	36/05/06	*
(85)	إلى الشّباب الحي: صرخة داوية يصرخ بها مثال الشّباب فهل من مدّكر وهل من مجيب؟	82	36/07/21	
(86)	حول صحافتنا (أجل صحافة بلا شعب.. فمتى تؤدّي مهمّتها؟)	83	36/07/28	*

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(87)	من صور حياة الجزائر. المؤتمر الإسلامي الجزائري. (استقبال الأمّة لوفدها)	84	36/08/04	*
(88)	حول صحافتنا (أجل صحافة بلا شعب.. فمتى تؤدّي مهمّتها؟)	84	36/08/04	
(89)	يوم مشهود في الملعب البلدي؛ بيانات وفد المؤتمر	85	36/08/11	*
(90)	على هامش اعتقال الأستاذ العقبي (معيار النّضوج الفكري في الأمم)	86	36/08/18	
(91)	حول الإفراج عن الأستاذ العقبي (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم)	87	36/08/25	
(92)	على هامش الحوادث الأخيرة: إلى قادة الإصلاح ورؤساء حركته والمنضوين تحت علمه	88	36/09/01	*

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(93)	من أمراضنا الاجتماعية: آفة الإياس الفتّاكة كيف السّبيل لتطهير مجتمعنا منها	89	36/09/03	*
(94)	حول التّعليم: ها هو موسم الدّراسة على الأبواب فماذا أعددنا له؟	90	36/09/25	*
(95)	التّاريخ يعيد نفسه: المطبعة العربية تُفتَّش للمرّة الثّانية	90	36/09/25	
(96)	حول التّعليم: ها هو موسم الدّراسة على الأبواب فماذا أعددنا له؟	91	36/09/22	
(97)	لا عطف لا مواساة !	92	36/09/29	*
(98)	الاجتماع الخامس العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. نظرة عامّة	93	36/10/06	*
(99)	نجاح العاملين في مسعاهم يتوقّف على اعتراف الأمّة بجهودهم	94	36/10/13	*

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(100)	إنّما الرّجال بأعمالهم لا بما يملكون من وسائل العمل	96	36/10/27	*
(101)	عبث المنافقين بكرامة بيوت الله	99	36/10/17	
(102)	دروس ومحاضرات بدل الأجواق والعوادات	99	36/10/17	
(103)	اعتراف بالجميل للأمَّة	101	36/12/08	
(104)	الاحتفال السّنوي لجمعية الشّبيبة الإسلامية بالجزائر	101	36/12/08	
(105)	المتطفّلون على موائد العلماء هم أصل الفساد ومنبع الشّقاق	102	36/12/05	*
(106)	يجب أن يكون الدّين أساس كلّ إصلاح	103	36/12/29	*
(107)	ليس الحقّ تنازلاً ولا هوادة "الحق أحقُّ أن يتّبع" رأي صريح في أسباب انحطاط مدينة غرداية من النّاحية العلمية	105	37/01/12	*

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(108)	مصر العربية تحمل لواء العروبة	107	37/01/26	*
(109)	حول قضية الحجّ إلى مَ العبث بكرامة وفد الله؟	109	37/02/09	*
(110)	ألم يان للصّحافة المصرية أن تترع عن كبريائها وتتنازل لمبادلة زميلاتها؟	110	37/02/16	*
(111)	الفضلاء الزّيتونيين يخطون خطوة موفقة بتأسيس "جمعية الرابطة الزّيتونية"	111	37/03/02	*
(112)	ذكرى الهجرة: عبرة الدّهر الخالدة وآية الله الكبرى فهل من مدّكر	113	37/03/16	*
(113)	حول بعثة البرلمان	114	37/03/23	*
(114)	الشّباب المصري يعلن جهاده الدّيني	116	37/04/06	*

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة
(115)	في سبيل الحياة: الاجتماع العام لجمعية الحياة بالقرارة	145	37/11/23	*
(116)	ليلة زهراء في غرّة الحياة: الاحتفال البهيج لجمعية الحياة	146	37/11/30	*
(117)	وادي ميزاب: تحتفل جمعية الحياة برأس السّنة الهجرية	159	38/03/22	
(118)	ذكرى الفيلسوف الكبير الشّيخ إسماعيل الجيطالي: الاحتفال بختم كتابه "القناطر" في مسجد القرارة	162	38/04/12	
(119)	النّهضة الإسلامية في فرنسا: اللّجنة الجزائرية العامّة تعمل بكلّ نشاط لإحياء اللّغة العربية ونشر الهدى الإسلامي بالدّيّار الباريسية	162	38/04/12	

	عنوان المقال	العدد	تاريخ الصّدور	الجريدة	
(120)	ذكرى الفيلسوف الكبير الشّيخ إسماعيل الجيطالي: الاحتفال بختم كتابه "القناطر"	163	38/04/19		
(121)	ذكرى الفيلسوف الكبير الشّيخ إسماعيل الجيطالي	166	38/05/10		
(122)	الاجتماع العام لجمعية الحياة بمناسبة رأس سنتها الأولى	168	38/05/24		
(123)	من المشرق إلى المغرب: من إمام المسلمين بعُمان إلى إخوانه الإباضية بالمغرب	169	38/05/31		*

نموذج لكتابات الشّيخ عدُّون في صحف أبي اليقظان (بإمضاء: سعيد):

"المطمح الأسمى ونتيجة إعراض النّاس عنه"

النـــــور: ع:09 - 1931/11/10

المكاتبات

تكون باسم مدير الجريدة وصاحب امتيازها هو

ابو اليقظان

ابراهيم بن الحاج عيسى

بنهج روفيقو عدد عدد ٧٠ بالجزائر

DIRECTEUR-GÉRANT

Aboulyakdan Hadj Brahim

70, Rue Rovigo — ALGER

قيمة الاشتراك

في القطر الجزائري عن سنة ٤٠ ..

عن نصف السنة ٢٠ ..

في تونس والمغرب وطرابلس ٤٥ ..

في سائر الاقطار ٥٠ ..

الاعلانات

يتفق في شانها مع الادارة

Chèques Postaux: 84-30

Téléphone: 31-60

EN-NOUR

الجزائر — يوم الثلاثاء ٢٨ جمادى الثانية ١٣٥٠ — جريدة عربية تصدر كل يوم الثلاثاء — الموافق ١٠ نوفمبر ١٩٣١

* من رئاسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين *

الى السادة الاعضاء العاملين بها

الحمد لله وحده

نعلم سائر الاعضاء العاملين بجمعية العلماء، ل الجلسة الادارية التي قرر المجلس عقدها في غر رجب المقبل، ستنعقد بحول الله يوم ميس ١٥ رجب الاصب الموافق ليوم ٢٦ نفامبر تالي. وبما ان سائر الاعضاء العاملين يعتبرون ضاء في المجلس الاداري.

والقانون الاساسي يسمح لهم بالحضور اختياريا في جلسات المجلس، فاننا اعلمنا حضراتهم بهذا، حتى يقدم الى هذا الاجتماع من استطاع منهم الى القدوم سبيلا. ويكون الاجتماع بنادي الترقي بالعاصمة على الساعة التاسعة من اليوم المذكور. والسلام.

رئيس الجمعية

عبد الحميد بن باديس

المطمح الاسمى

ونتيجة اعراض الناس عنه

مطمح كل انسان هو الغاية التي يعمل لها والمثل الاعلى الذي يطمح اليه ويسعى للحصول عليه فما من عمل الا وله في عمله وجهة يرنو اليها وغرض يود تحقيقه وتختلف هذه الغاية او هذا المطمح شرفا وخسة عظمة واحتقارا باختلاف انظار الناس واختلاف عقولهم فقصير النظر ضعيف العقل يقصر نظره عن هذه الحياة الفانية وما تستدعيه من مطالب ومرافق للعيش ويحيا حياة طيبة قد اتخذها مطمحا له حقيرة كانت او شريفة وبعيد النظر عظيم الهمة يطمح الى ما هو اسمى من ذلك واشرف ينظر الى غاية تقصر دونها الآمال وتتضاءل دونها الغايات يرى هذه الحياة التي اتخذها الناس مطمح انظارهم لاجلها يعملون عليها يتكالبون وسيلة لمطمحه الاسمى وغايته العظمى فلا يرى لها قيمة ولا اعتبارا الا ما يرى الوسائل اما مقصده الوحيد فهو مرضات الله عز وجل التي يتوصل بها الى الحياة الخالدة والسعادة الابدية ذلك هو المطمح الاعلى الذي يجب على كل عاقل ان يعمل له ويتفانى لاجل الوصول اليه فكل مطمح دونه غرض زائل ومقصد وضيع لا يزال الانسان في تعب ونصب وهم ونكد ولا تزال حياته في فرضى واضطراب وانزعاج وقلق مملوءة اكدارا وهموما لا ينال له عيش ولا يهدأ له بال حتى يتوجه الى هذا المطمح الاعلى فاذا هو في انبساط وحبور مثلج

يهيم الناس في كل واد ويسلكون كل سبيل يلتمسون لانفسهم السعادة والهناء فمنهم من يراها في تحصيل العلم ومنهم من يحسبها في طلب المال ومنهم من يخالها في اكتساب الجاه الخ ومهما اختلفت الانظار وتعددت الوجهات فالسعادة التي يهيمون وراءها في واد وهم في واد ما داموا غافلين عن هذا المطمح السامي فما السعادة الا اطمئنان القلب وراحة الضمير وهذه لا تحصل للانسان الا اذا كانت مرضات الله هي مطمحه الوحيد.

يجعل الانسان النظر الى هذه الغاية السامية ويصرف وجهه عنها زهدا فيها او غفلة عنها فيعمل لاغراض زائلة وغايات تافهة وينسى جانب الله وما اعده له في الحياة الاخرى من مقام كريم ونعمة خالدة فان تصدى لطلب العلم كانت غايته الحصول على مهنة يحترفها او وظيف يمتص من وشله او جاه يسترضي به الاقوياء او سلطة يتحكم بها على الضعفاء الى غير ذلك من المنافع العاجلة التي لا يتعدى اثرها هذه الحياة الزائلة وان تصدى لكسب المال كان مقصده الفرار من شبح الفقر الذي يتخيله متحفزا للانقضاض عليه او جمعه او تكديسه فيلتذ بمجرد كنزه وادخاره او تشييد الدور والقصور واقتناء الاراضي والضياع به فيمتع النفس بمنظرها وبهجتها او تمكين النفس مما تصبو اليه من الملاذ والشهوات

من يطلب العلم او يكتسب المال ليخدم بهما امته ووطنه وينفق في المشاريع العامة والنائبات الوطنية لكن غرضه من ذلك الشهرة وحسن الاحدوثة ورضى الناس لا وجه الله ولا ابتغاء رضوانه فغاية كل فريق غير الحياة الفانية والسعادة الموهومة فكلهم عن الحق معرضون وعن الصراط ناكبون.

ومتى كانت وجهة الانسان هذه المقاصد الحقيرة فحسب سقطت همته ووهنت عزيمته وضاقت عليه سبل الحياة فحرم من التمتع بسعادة النفس وراحة الضمير والحياة انما تتسع وتنبسط وتهنأ بالنظر الى ذلك المطمح الاسمى فاذا قنعت النكبات وحوادث الايام التي تعترض مجرى الحياة على آمال الغير الطامح الى المطمح الاسمى وقطعت السبيل عليه دون مراده وبلوغ امنيته طارت نفسه شعاعا واحترق قلبه هما وكمدا والتياعا ومات وهو في عداد الاحياء.

انما المنيت من يعيش كئيبا
كاسفا باله قليل الرجاء

فان كان هم طالب العلم الاحراز على الشهادات فقط ثم اخفق في سعيه وخاب التي بنفسه بين مخالب اليأس والقنوط فسخط على المقدور وتبرم من الحياة وما فيها وقد يبلغ به التهور والطيش وضعف النفس عن مقاومة الخطوب الى دفع الشر بما هو اشر منه وادهى فيتعجل الشقاء الابدي بالانتحار. وان نال مبتغاه التمس بها ما تصبو اليه نفسه من ورائها من وظيف او مهنة او جاه او سلطة وهنا ترى شرورا توتى! وجرائم تقترف في سبيل الحصول على هذه الغايات والتطلع الى تلك المقاصد! فكم من مشروع وطني مات في مهده ضحية الالقاب المجوفة وكم من مصلحة عامة ديست وقضى عليها حب الرئاسة المبيد وكم من حزازات وشحناء بذرها في قلوب الاصفياء التكالب على المقاعد والتنافس على الوظايف وعجزت فؤوس الاصلاح ومعاول النكبات العامة عن اقتلاع جذورها واستئصالها وكم وكم. ويقيني ان القارئ في غنى عن الاسترسال في وصف ما يتفرع عن اصل هذه الشرور

وان كان غرض طالب المال الغايات السافلة التي ذكرناها من اكتنازه او اعطاء النفس مناها الخ عرض نفسه لشقاء مستمر وامتهن الآفات الاجتماعية فتراه لاهثا في سعيه مندلع اللسان وراء هذا الدرهم بغيته من احرازه ويحمله خوف الفقر على الشح به والقبض عليه بيد من حديد حرصا على اكتنازه فلا يزال اسيرا ذليلا لهذين العاملين شقيا بماله!! ومن ينفق الساعات في جمع ماله

مخافة فقر فالذي فعل الفقر
ومن كان همه هذه الغاية المهلكة انقطع لخدمتها وانصرف عن كل واجب تعين عليه فكان عضوا عاطلا بل آفة اجتماعية تثير كل شر وما نفاق سوق الخصومات والمنازعات في كل وقت الا نتيجة الطموح الى متاع الحياة الفانية وقصر النظر على لذاتها الزائلة دون المطمح الاسمى

وان كان غرض العامل الشهرة ورضى الناس اشتبهت عليه المسالك وتاه في بيداء الحيرة ووقع في مجاهل الارتباك فياخذ الخذلان بيده ويتقاد اليه طايعا فيذهب به الى حيث يلقى صنعه الادبي

الشهرة منحة يمنحها الله عباده الذين اخلصوا له العمل واعرضوا عن كل شيء سواه ويمنعها الحريصين عليها الهايمين وراءها ويستبدلهم بها الذلة والهوان ونفور الناس عنهم

يريد محب الشهرة بعمله رضى الناس ورضاهم غاية لا تدرك فان ما يستحسنه هذا يستقبحه ذاك وما يرضى به هذا يسخط عليه الآخر فاذا هم ان يعمل استرضاء افلان خاف سخط فلان لانه يستهجنه فيصبح في موقف حرج فيحاول ستر هذا العار بعار اشنع منه واخزى فيلتجئ الى النفاق والمداهنة والكذب فيبقى منبوذا من الجميع مرودا باللعنات من كل وجهة خسر الدنيا والاخرة ذلك هو الخسران المبين

طلبت الجميع فغاب الجميع
فمن سوء رأيك لا ذا ولا ذا

القرارة — سعيد

مصرع انور باشا

كيف قتل القائد والوزير التركي

انور باشا قايد تركي معروف كانت له في تركيا ومصر والشرق أجمع شهرة عظيمة ترجع اسبابها في الغالب الى بطولته وانتصاراته المتعددة على اعداء الدولة العلية

وقد راجت عن موت هذا البطل القديم

نموذج لكتابات الشيخ عدُّون الأدبية في صحف أبي اليقظان (بإمضاء: عدُّون):

"رياض الأدب: بني أوطاننا هل من قيام" (شعر)

المغرب: ع:14 - 1930/09/02

الجزائر يوم الثلاثاء ٧ ربيع الثاني ١٣٤٩هـ - ٢ سبتمبر ١٩٣٠ (ثمن النسخة ٢٠ سانتيما) السنة الاولى N° 14 صفحة ١٤

الاكتابات

تحرر باسم مدير الجريدة وحاسب ادارتها

طبع بالحروف عين بن بحي

مطبع ايزار عدد ٧ بالجزائر

DIRECTEUR-GÉRANT

TAAMOUT AISSA

7ter, Rue du Lézard - ALGER

المغرب

جريدة عربية تصدر كل يوم الثلاثاء

EL-MAGHRIB

تهنة الاشتراك

في القطر الجزائري عن سنة ..... ٤٠ فر

عن ستة اشهر ٢٠

في تونس والمغرب وطرابلس ٤٥

في سائر الاقطار ٥٠

Chèques postaux 148 - 18

الاعلانات

يتفق في شأنها مع الادارة

بريطانيا العظمى وفلسطين

جاء في المذكرة التي قدمتها الحكومة البريطانية مؤخرا على لجنة الانتداب الدائم في الامم ان الهيئة التي انيطت بعهدتها العناية بشؤون فلسطين ليس من شأنها ان تسيل بحل وطن قومي لليهود بل هذا واجب على اليهود انفسهم ان يدبروه وليس لكرمة اوفى دخل فيه

اشعرت الوزارة الخارجية البريطانية اخيرا لجنة الانتداب الدائم الخاص بشؤون فلسطين بما ورد في المذكرة الانكليزية على التقرير الذي

وقد اتى الرد المذكور من الصحافة الصهيونية من قبول اما التقرير فقد وجد انتقادات بحيث ان جريدة الديلي تلغراف تناولت كثيرا منه في عدد من اعدادها الصادرة امس وكانت كتابتها التقرير قاسيا في الشدة، اما جريدتا - الجويش رونيكل بوست - فكانتا معتدلتين في انتقادهما وتطابقانها من موقف بلغة عصبة الامم.

وقالت جريدة - الديلي هيرالد - كان على الحكومة ان تظهر اكثر حزما وشدة للصهيونيين ونسبت الى عصبة جنيف الكثير

في بلاد الانتداب عدم ارسال من يمثلها

الزراعة باليبرو (المغرب الاميركي)

ليما في ٢٦ اوت - زار كثير من اعضاء ارسالية المكسيكيين الرئيس م. ليغيا وطلبوا اليه بلاغة من الحكم تصريح قائلا انه متأكد من ان هم طيبات في نهضتهم ثم عرضهم على الشعب بعد الدستور في الحكم وعلى اتخاذ احتياطات تمنع الفوضى وذلك بتنظيم قوى عسكرية في انحاء البلاد وانها لحفظ النظام،

انتخاب البلاد العربية

اجتماع حزب الوفد

القاهرة ٢٦ اوت - تبعا لما جاء في رسالة - بريدنا ان بريد رويتر الى القاهرة بان حزب الوفد المصري قد اجتماعا في الليلة الفارطة واعمل مرارا برئاسة النحاس باشا ويظن ان الرئيس سيعرض على تدعيم حركة عدم التعاون مع الحكومة وعلى تغيير حكومة اسماعيل صدقي باشا بالمطالبة على الاستقالة

رياض الادب

بني اوطاننا هل من قيام؟

جمال القوم اعملا قد تروق ... بها يشتق للعلبا طريق
وهو النفس لا يعدو نيلا ... كشاب او حبيب او رحيق
وخير ذخيرة للقوم نجل ... شباب العلا دوما يتوق
وحسن الشعب ان رام احتماء ... براع او خطيب مستبيق
اذا ما رمت ان تحيا حياة ... لها الدنيا بين فيها تضيق
فهيئ للورى بعدا اثيلا ... وتبقى في العلا ذكرا باقي
فهيئ لنشأ تحتي حماه ... بانلام الى العليا تسوق
وتزق الكمال بعدق عزم ... بما تختار في الدنيا وتسبق
فهل ترجو حياة من سوام ... وهل يكفي بجسم وثوق ؟
فقم روح التدرب وم سماه ... وم في كل حالكة بروق

•••

هوى اوطاننا فرض عليها ... وبعد كتابها بعد وثيق
فليس لها سوى الاعلاق حل ... وليس لها سوى القوى صديق
ما في كل معركة سلاح ... ما في كل عدة طريق
ارضي بالموات وبالدلي ... وان نحيا كما يهوى الرفيق ؟
وفيما نحترا نختار منها ... وابيا نجدا منعما تقوى
سلوا التاريخ يبنكم بلبنا ... ليس لقومنا مجد عريق ؟
(ورثنا المجد عن اباء صدق) ... فضاع الارث واشتد غروق
فهم اشراط اباء كرام ... وبأس المالك والدهم عرق
كذلك ما مضى عزبا وقوما ... كذلك عادة لنا قوم عريق
وقد نادى منادي الخير فينا ... ايقظوا ايها الرقدى ايقظوا
تراك يلبنا حسن ويأتي ... وصل بارضنا ما لا نطيق؟
فثار الترب للشعب العصابا ... لها في كل ملحمة شؤون
اذا لم تخف نار المعلى قرما ... بماء العلم حاق بها المريق !

•••

بني اوطاننا هل من قيام ... فقلت الا نرى الا بليق
زمان الانكماش لقي الكماش ... وترك السعي في الدنيا مروق
زمان الجهل قد ولى فرارا ... وليس العلم بالقوس فروق
الى التعليم هبوا باندفاع ... الى الاتفاق في التعليم بادر
هنالك العز والقدر الجليل ... هنالك المجد والشرف العتيق
هنالك النصر والذكر الابق

(الشرارة)

مالطة والكليرة

تكلمت الصحافة البريطانية كثيرا في حديث من سفر الارد الكسندر الى مالطة، وتشرح في اخبارها الغرض من قيام الدوق بهذه الجولة التي كانت في اثنائها بمثابة رحلة تفقد بها اقاليم تركز بريطانيا البحرية بالبحر الابيض

اننا لا ننسى الهيجان الثوري الذي حدث بمالطة اخيرا من جراء مسألة دينية لم اتصال بالغاء شعور ديني كان في بعض المقاطعات الايطالية.

ولكن بدون ريب ان مما ذكر ليس من ملاقاة الدوق الكسندر الذي كان مستقلا او ذاهبا بالاوتر البحري الثلاثي للمتفقين بين الدول الثلاث انكلترا واميركا واليابان.

اما ما يخص المذاكرات الدائرة الايطالية المفتوحة من المسألة البحرية فلم تسفر حتى الجهة حاسمة انما اتفقت الحكومتان اتفاقا رضيا على عدم بناء بوارج حربية حتى عشر وبما يعمل القبيل

وحيث ان كثيرا من السفن الايطالية الحربية قد ازلت بالبحر وسط ابتهاج الجمهور وقد تبين على حكومة الملكة الانكليزية ان تعلم اذا كانت ايطاليا لا تنوي صنع سفن اخرى في بدايات السنة القابلة ذلك الصنع الذي لا يتأخر عن ان يدعو زلما الى سلوك تلك الطريقة من غير التفات الى تزايد البرنامج البحري الذي كان لا تكترا

من البولة

الدين

الدين ناموس السعادات وأب الفضائل والكلمة الجامعة لقوانين البشر

•••

لا تقدر ان تسير بدون دين لانه هو الطريق الوحيد للقيام بجميع الواجبات،

•••

ان الدين قوة سحرية تكسب المرء رغبة فيه روح الامل والاقدام على الدواهي وعدم الخوف من اي قوة كانت،

وهو يتطرق الى النهاية ويقال انه حضر بعجالة تكرمت لاجل نقل اسماعيل صدقي باشا -

القنصلات

قنصلية رئيس الجمهورية

من قبل حيث ان سلامة الاجانب وارزاقهم في خطر بدون ريب والطبع فان الحكومة هي المسؤولة عليهم لدى الدول اذا تضرروا بشيء او وقع الاعتداء على املاكهم

قبل البدء...

عددٌ عاشر.. ومرحلةٌ عاشرة ([1])

الأستاذ محمد بن أحمد جهلان

هذه تسعُ سنواتٍ طُويت منذ أن صدر العدد الأوَّل من هذه المجلَّة المباركة، تسعُ سنوات حملت فيها راية الفكر المستنير، وانبرى كتَّابها الأوفياء لإعلاء كلمة الحقّ، وتبليغ العلم الرّفيع، ونشر الفنّ البديع.

ونحن على عتبات العدد العاشر وهذه السّنة العاشرة، نستوقف التّاريخ نسائله عن مؤسّسي هذه المجلة، ونستلهم العبر من مآثرهم، ونستشفُّ الفِكَر من تضحياتهم وخالص جهادهم. فالمّجلة بالنّسبة لمؤسسة "معهد الحياة" ــ كما أقرَّ الأديب الدّكتور صالح الخرفي(رحمه الله) ([2]): « هي ذاكرة أمجادها على مرِّ الزّمن وعبر الأجيال، ومرصد وقائعها وأحداثها، النّاس يغدُون ويروحون وذاكرة المرء إلى نضوب، ويبقى ما يرصُدُ الكتَّابُ، أو تُسجِّلُه المجلَّة همزة وصلٍ بين الغادي والرائح ».

---

[1] - مجلّة الحياة، (معهد الحياة)، العدد: العاشر، ص: 12 – 17.

[2] - أحد أبناء معهد الحياة، ومن ثماره اليانعة، أديب وشاعر وصاحب الدّراسات الكثيرة والمهمّة في الأدب الجزائري، وتراث الجزائر بعامّة. آخر منصب شغله هو مدير إدارة الثّقافة في المنظّمة العربية للتّربية والثّقافة والعلوم. توفّي يوم الإثنين 04 من شعبان 1419هـ/ 23 من نوفمبر 1998م. (م.ن.ب).

صدقتَ ــ والله ــ يا صالحنا، فقد مضيتَ إلى بارئك بعد سنة واحدة من خطابك هذا في العدد الأوَّل من "الحياة"، وبقي ذكرُك الصّالحُ صلاحَ أعمالِكَ ونَفْعَ تآليفِكَ وكتاباتِكَ، كما بقي حرصُك على أن تكون افتتاحية العدد الثّاني من المجلَّة بقلم شيخك وأستاذك الشّيخ عدُّون (رحمه الله) فكان ذلك، وكتب متواضعًا كعادة العظماء أمثالكما: «...أبَى إلاَّ أن تكون الافتتاحيةُ لهذا العاجز البالغ من الكِبر عتيًّا، والذي أثقلت كاهِلَه التّسعونُ وتوابعُها، وبينه وبين أن يطرق باب المائة خطواتٌ قلائل، إن أمهله الأجل، وإن كان ــ والحمد لله ــ لم يسأم تكاليف الحياة كما سئمها صاحب الثّمانين...»

هكذا ياشيخنا عدُّون افتتحتَ العدد الثّاني من "الحياة".. فلم يكن موضوع «معهد الحياة ورسالتُه» كغيم المعرِّي كما قلتَ متواضعًا:

والمَرءُ إنْ لم تُفِدْ نَفْعًا إقَامَتُهُ
غَيمٌ حَوى الشَّمسَ لَم يُمطِر وَلَم يَسِرِ

بل كان غيثاً نافعاً، وسحابة رشيديَّة العطاء، أمطرت وما زال خراجُها يُثقِل صحيفة أعمالك من مشرق الأرض ومغربها. وظللت حانيا على هذه المجلة راعيًا لها رعاية الأب المربّي لولده.. يُسعِدُك صدورُ العدد منها كلَّ فِطْرٍ سعادةَ الأطفال بالجديد يوم العيد، فتسارع إلى تصفُّح فهرس بحوثها، فلا يشفي غليلك إلاَّ قراءتُها إلى

آخرها، وهي لَمَّا تصلْ بعدُ أيادي كثير من القرّاء، كما كان يؤرِّقك تأخُّر الكتاَّب أو تقاعُسُهم عن الكتابة فيها، فلا تنفكُّ تحرِّض أبناء "معهد الحياة" وأساتذته للاهتمام بها والإعلاء من شأنها.

نعم يا شيخنا؛ فلا يَقْدُرُ عظمة الأمانة حقَّ قدرها، وثِقَلَ مسؤولية بقاء هذه المجلة إلاَّ من عرف قيمتها، ونُبلَ رسالتِها، وسموَّ مطمحِها... فقد كنتَ كذلك حريصًا على سالفتها «جريدة الشّباب» قبل سبعة عقود، وأنت الذي كتبت حامدًا لله في افتتاحية العدد الأوَّل من المرحلة العاشرة سنة 1936 بلسان عربيّ فصيح وأسلوب أدبي رفيع:

« ونحن إذا انتصبنا لنشكر الله على ما أولانا من نعمة الاهتداء إلى إنشاء جريدتنا "الشّباب" استنفذنا كلَّ جهدٍ، دون أن نحصل على أدنى مَرَام؛ وإذا تذكَّرنا ما رَزَقَنا من التّأييد على الاستمرار على إصدارها، وعلى القيام بما يقتضيه هذا الإصدارُ من جهودٍ وأتعاب، اتَّسع أمامَنا أفُقُ الحمد والشّكر...

نعمةٌ جَلَّت علَى الوَصفِ كَمَا

أَنَّـــها جَـــلَّتْ عَلَى أَن تُشكَرَا ».

وأستسمحُك يا شيخنا أن أنقل إلى قارئ اليوم رجاءك حينها؛ متفائلا بمستقبل واعد بتطوّر الجريدة ورقيِّها إلى مصافِّ الصّحف الكبرى، لتضاهيَ مثيلاتها المطبوعة في شمال إفريقيا!، ومحرِّضًا الكتّاب على إثرائها والاستمرار في رعايتها، فكنت تقول: « على الكتّاب أن يحقِّقوا ظنّنا فيهم

باستفراغ جهدهم في خدمة أنفسهم؛ بخدمة هذه الجريدة...فنمدّ أيدينا لرفع مستوى هذا المشروع الجليل، إلى سماء لا تطاولها سماء، وما ذلك على الله بعزيز».

عزيزي القارئ، تذكَّر أنَّ الشّيخ عدُّون (رحمه الله) قد قال هذا الكلام قبل سبعين سنة كاملة، وبالضّبط في العدد الأوّل من السّنة العاشرة لجريدة «الشّباب» الصّادر بتاريخ 23 أفريل 1936... (انظر صورته في آخر هذا المقال)؛ فعزيمته الرّاسخة وحرصه على استمرار صدور «الحياة» هو الحرص نفسه على استمرار صدور «الشّباب» قبل سبعة عقود، فهل اعتبر الشّباب بأهمية الثّبات على المبدأ بعد الاقتناع بنُبل الفكرة والإيمان بها؟، وهل انتفت المسؤولية المنوطةُ بنا نحن كتَّاب اليوم تجاه هذه المجلّة المباركة أم أنَّها غدت أثقل وأوكد؟.

فارَقتَـــنَا يا شيخنا "عدُّون"، وخلَّفت بإذن الله رجالا على المحجَّة البيضاء، يحملون الرّاية، ويرفعون لواء التّغيير وخدمة الأمَّة، واعلم بأنَّك تركت كتيبة علَّمتها أن تهب نفسَها للعلم، في عصر وهب النّاس فيه أنفُسَهم للمال، وتيقَّن بأنّ مِن خَلفِكَ جيلاً وأجيالاً، أنشأتها لتكون من حزب الله، في وقت يتربَّص بها الغربُ ليضُمَّها إلى حزب الشّيطان...

وقبل سنةٍ فارقنا أحدُ أقطاب هذه المجلّة وسالِفَـــتها «الشّباب»،

فارَقَـــنا الشّيخ الأديب حمّو بن عمر فخّار([1]) والرّفيق الأعلى اختار، بعد أن رصَّع ـــ في شبابه ـــ صفحات «الشّباب» بأروع المقالات، ولم تكن افتتاحيته للعدد الأوّل من هذه المجلّة سنة 1998، إلاَّ لؤلؤة العقد، أدبًا رائقًا، وتاريخًا شيِّقًا،مُعبِّرًا عن حنكة الحكيم الذي عرك الحياة وعركته، فتخطّى العقبات، واستخلص العبر من النّكسات والنّكبات، عزمًا جديدًا متجدّدًا، متمثلاً قول الشّاعر:

لا تَحْسَبِ المجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ

لَن تَبلُغَ المجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

فارقتنا قبل سنة تاركًا وصيتك الغالية لأبنائك الكتّاب، بنصرة لغة القرآن وذَود الأعداء عنها، قلت حينها: « واعشقوا يا رجال الغد لغتكم عشق المجنون ليلاه، وارفعوا بها عقيرتكم في اعتزاز كما رفعها في بَـــيْدَاه، (...) وفجِّروا يا مسلمين ينابيع لغتكم تفجير عدُوِّكُم فرنسا قنبلتها الذّرية في أرضكم. وبدون ذلك لن يسلم دينُكُم ـــ والله ـــ ولا لسانكُم».

ثق يا شيخنا أنّ «الحياة » تقف اليوم مرابطة في هذا الثّغر، وهي على عهدكم وعهد سلفكم الشّيخ عدُّون والشّيخ بيُّوض ما استطاعت، وكُتّابها وإن اختلفت مشاربُهم وانتماءاتُهم فغايتهم واحدة واضحة

---

[1] – أحد أبناء معهد الحياة، تلميذ الشّيخ إبراهيم بيّوض والشّيخ عدّون، وسليلهما في الإصلاح والعمل الاجتماعي، أحد أركان الإصلاح في غرداية بخاصّة، ووادي ميزاب بعامّة, أديب ومصلح اجتماعي, توفّي في شهر جوان 2005م.

وضوح المنهج والسّبيل الذي رسمتم، حريصون على هذا الكتر الثّمين، ممتثلون لقولك: « ألا فلتكونوا بمجلّتكم يا خلفاءنا على الميراث الثّمين بالمرصاد للهادمين، أوفياء للغة ربّ العالمين، ورسول خير المرسلين؛ وإلاَّ تكونوا فلا كنتم ولا كنَّا ــ لا قدَّر الله ــ».

عزيزي القارئ، هذه وقفة فرضتها مناسبة العدد العاشر «للحياة»، أردنا أن نطرّزها بِدُررٍ من العدد الأوّل من السّنة العاشرة «للشّباب» "حتّى لا يظنّ المتأخّر أنه نَبَتَ كالكمأة في الأرض، لا جذور له يستمدّ منها الغذاء والنّماء".. ووقفنا مع ثلاثة رجال كانوا دعائم لهذا المشروع العظيم، "الدّكتور صالح الخرفي"، و"الشّيخ عدُّون"، و"الشّيخ حمّو فخّار".

وإذا كنَّا قد عقدنا للأوّل ملتقى درسنا فيه بعضا من أدبه وتاريخه، كما أقمنا للأخير في هذه الصّائفة مهرجانًا يستعرض بعضًا من محطّات جهاده وكفاحه، فإنَّنا ــ في هذا العدد الذي نرجوه ممتازًا ــ نرى في عقدِ فصلٍ حول الشّيخ عدُّون جُهدَ المُقلِّ وأضعفَ الإيمان، متفائلين بأنَّ الله سيوفّق الخلف لما هو أنسب بمقام الشّيخ ومرتبته العالية، متبلِّغين بقول الشّاعر:

تَفَاءَلْ بِمَا تَهوَى يَكُن، فَلَقَــلَّمَا
يُــقَالُ لِشيءٍ كَانَ إلاَّ تَــكَــوَّنَا

عزيزي القارئ، هذه كلماتٌ مبعثرة أوحت بها المناسبة، فاسأل الله معنا أن يرحم مشايخنا وعلماءنا، ويغفر لنا زلاّتِنا وأخطاءَنا، إنهَّ سميع مجيب.

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَملَكُمْ وَرَسُولُهُ والمُومِنُونَ وستُرَدُّون إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ والشّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التّوبة: 105).

صورة الصّفحة الأولى من افتتاحية الشّيخ عدُّون (رحمه الله)
للعدد الأوّل الممتاز من السّنة العاشرة لـ "جريدة الشّباب" صادر ـ كما هو
مبيّن من تاريخه ـ يوم الخميس: 30 محرّم 1355هـ/ 23 أفريل 1936

(٢١)

السنة العاشرة — العدد الممتاز — عدد ٢٤٠

شباب قنع لا خير فيهم • وبورك في الشباب الطامحين

الشباب

نشرة علمية ادبية اجتماعية انتقادية تصدرها نخبة من الشبيبة المتعلمة صبيحة يوم الخميس من كل اسبوع

بسم الله مجراها و مرساها

الله ربي لغفور رحيم

قرآن كريم

المدير الشيخ عدون

المحرر مسعود بن عبد الله

محتويات هذا العدد

انظر الفهرسة في الصفحة ٢٨ الصفحة الاخيرة

يوم الخميس ٣٠ محرم سنة ١٣٥٥ — الموافق ليوم ٢٣ ابريل سنة ١٩٣٦

الشباب في المرحلة العاشرة

نحمدك اللهم ـ يا من اسبغت علينا من نعمك ما لا يحصى، وافضت علينا من انوارك ما لا يتقصى؛ فزففتنا في حلبها مغتبطين، وخطرنا في ضيائها مستبصرين.

ونصلي ونسلم على افضل نبيء عززته بالحكمة وفصل الخطاب، وايدته بافصح لسان واعز كتاب؛ وبعثه بحسام بتار وصدور، وملأ به قلوبا علما ونورا.

وعلى آله واصحابه الذين جاهدوا في سبيل اعلاء كلمة الله شبابا وشبابا، واستفتحوا كتاب المحامد والمكارم بابا بابا؛ ما اعتز علم، واهتز قلم،

اما بعد ـ فان من اجل النعم التي يفيضها الله على الانسان نعمة الهداية والتوفيق، واعظم نعمة منها واعز ان يستمر موفقا الى السير في سواء الطريق.

وانا ـ اذا انتصبنا لنشكر الله على ما اولانا من نعمة الاهتداء الى انشاء جريدتنا «الشباب» ـ استبعدنا ان نجهد دون ان نحصل على ادنى مرام؛ واذا تذكرنا ما رزقنا من التأييد على الاستمرار على اصدارها، وعلى القيام بما يقتضيه هذا الاصدار من جهود وانفاق اتسع امامنا اجل الحمد والشكر، وادى بنا الايماء الخضوع ـ الى الخضوع والاستسلام ـ

نعمة جلت على الوصف كما .·. انها جلت على ان تشكر

الشباب بين المرحلتين:

فها هو ذا شبابنا الزاهر ـ بعد ان قطع تسع مراحل من حياته ـ معرسا بين المرحلة التاسعة والمرحلة العاشرة ـ املا ما يكون ابتهاجا واعتبالا، واقوى ما تكون توثبا ونشاطا؛ ملتفتا الى ماضي حياته يستعرض الادوار التي مرت عليه، ويستنطق الاعمال التي قدمت بين يديه؛ مستشرفا الى مستقبل امامه ليستعد لما سيحتمل فيها من اعباء، ويتهيأ لما سيعرض له من امور معتبرا بما عبر؛ مستفيدا مما غبر؛ متفائلا مستقبله بكل نجاح؛ آملا ان يطوف في جو المعالي بغير جناح.

الالتفاتة الى ماضيه:

قطع تسع مراحل بكان في الاولى منها يدب ويدرج

محتويات الكتاب

تقديم **07**

الدّكتور محمّد بن قاسم ناصر بوحجام

الشّيخ عدّون في سطور **20**

الأستاذ عيسى بن محمّد الشّيخ بالحاج

الشّيخ عدّون العالم العامل المخلص **28**

الشّيخ إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان

حياة من أجل القرآن **31**

الشّيخ إبراهيم بن عمر بيّوض

دور الشّيخ عدّون في معهد الحياة **44**

الشّيخ محمّد عليّ دبّوز

الشّيخ عدّون العضد الأيمن للشّيخ بيّوض في جهاده العلمي **46**

الشّيخ محمّد عليّ دبّوز

من رسائل الشّيخ عدّون إلى الشّيخ أبي اليقظان **50**

الدّكتور محمّد بن صالح ناصر

الشّيخ عدّون الأستاذ المربّي **95**

الدّكنور محمّد بن صالح ناصر

بلغ العشرين خمس مرّات **120**

الأستاذ محمّد الهادي الحسني

دروس وعبر في حياة الشّيخ عدّون **125**

الدّكتور محمّد بن قاسم ناصر بوحجام

الشّيخ عدّون معدن التّطوير والتّجديد **135**

الدّكتور محمّد بن قاسم ناصر بوحجام

الشّيخ عدّون وجمعية قدماء التّلاميذ **145**

الأستاذ محمّد بن سليمان أبو العلا

آخر ما قاله الشّيخ عدّون **162**

الأستاذ عيسى بن محمّد الشّيخ بالحاج

الشّيخ سعيد بن بالحاج شريفي (الشّيخ عدّون) في الخالدين **196**

الدّكتور مصطفى بن صالح باجو

الشّيخ عدّون قطب المخلصين وإمام العاملين **233**

الدّكتور محمّد بن موسى بابا عمّي

الشّيخ عدّون والكتابة الصّحفية (مدخل إلى مقالاته) **241**

الأستاذ محمّد بن أحمد جهلان

قبل البدء..عدد عاشر ومرحلة عاشرة **280**

الأستاذ محمّد بن أحمد جهلان

محتويات الكتاب **288**

الشيخ عدون باقلام أصدقائه وأبنائه

الدكتور محمد بن قاسم ناصر بوحجام

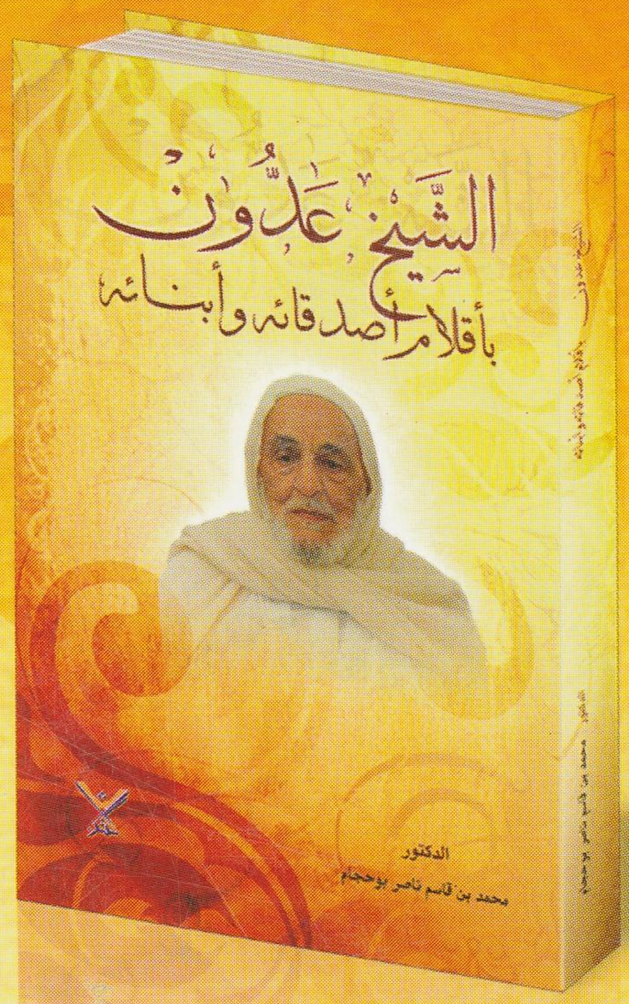

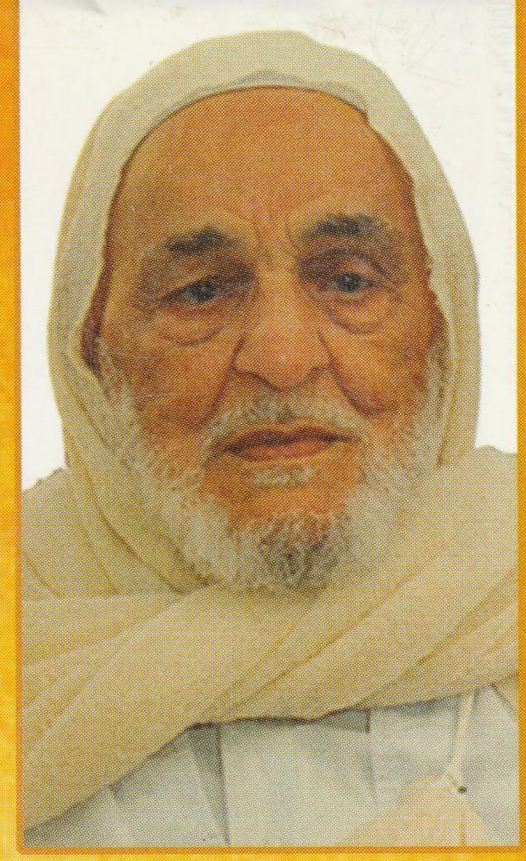

هذا الكتاب

هذا الكتاب حوى مجموعة الكتابات التي كتبها أصدقاء الشّيخ عدّون وأبناؤه عنه، وهم الذين عاشروه وعايشوه عن كثب. نقلوا إلينا شهاداتهم الموثوق بها عن جهاد شيخنا رحمه الله، وقدّموا انطباعاتهم الصّادقة عن سيرته وشخصيته، وعن نشاطه المتميّز. فهي لذلك تحمل سمة المصادر الأولى التي يعتمد عليها في الكتابة عن شخصيته. هذه الشّهادات والانطباعات والتّحليلات تفتح مجالات كبيرة للدّارسين كي ينطلقوا، وبخطوات سليمة في دراسة سيرة الشّيخ عدّون وشخصيته.

اجتهدت هذه الكتابات أن تلمّ بجوانب نشاط الشّيخ عدّون، عرضًا أوّليًا. وحرصت على سبر غور سيرة الشّيخ؛ بالوقوف على بعض ما يتميّز به من خصال وخلال وفعال، وما قدّم من أقوال وأعمال. وكان الغرض تسجيل هذه السّيرة الكبيرة، وتحسيس النّاشئة والشّباب – بخاصّة – بمكامن العبر في حياة الشّيخ، وعرض أعمال هذه النّاشئة ونشاطهم على ما قدّم الشّيخ نفسه، مع تقدير الظّروف التي كان يتحرّك فيها وينشط؛ لتقويم مسيرتهم، وتقدير جهودهم، ومحاسبة نفوسهم ونقدها فيما تقوم به. كلّ هذا يحدّد مسؤوليتهم ورسالتهم في الوجود، بعد أن تذكّرهم هذه السّيرة بواجبهم نحو أمّتهم . . .

المؤلف